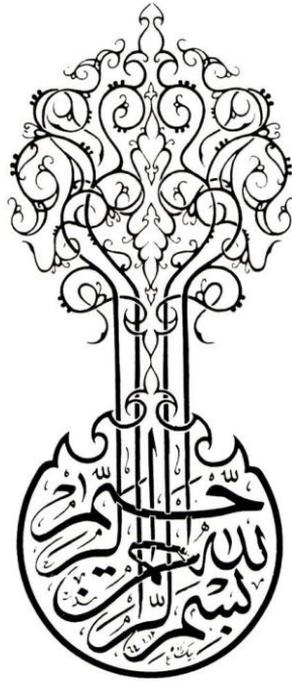


مختارات من الحياة

ذاتية، تاريخية، أدبية، نوادر وطرائف

نماذج من العلاقات البشرية



إهداء

لقد أسهمت كتابة المذكرات التي تناولت شرحها في المرحلة السابقة في ضرب عصفورين بحجر واحد:

١. ملء الفراغ القاتل الذي كنت أعاني منه.
٢. الحفاظ على معلومات وأحداث كاد أن يطويها الزمن بذهاب من يحملها في أعماقه وتدخل عالم النسيان.

وفي الحقيقة إن ما حصل كان من قبيل الصدفة، ومصدر سعادة وسرور في نفسي؛ لأنها كانت فرصة ثمينة لجعلها في حصن حصين. وكم كنت أتمنى لو أنها قد صدرت قبل انتقال أهلي وأقاربي وأصدقائي ومن أعرفهم وكل من كان حولي من محب صادق لدار البقاء، لأنني بذلك حرمت من الاسترشاد برأيهم والتزود منهم بما يحملونه من ذكريات محببة. كنت أعتبر في قرارة نفسي أن ما تم التحدث عنه -تناول في شموليته- مما مر عليّ من وقائع وأحداث، ولكن ظهر لاحقاً أنها كانت بحراً زاخراً، حملني عامل السرعة على تجاوز كثير منها دون أن يكون له تأثير يذكر على طبيعة الحياة الحقيقية، وسأحاول الآن قدر الإمكان من خلال ما عزمت عليه من كتابة مجموعة من الأفكار بعنوان (خواطر من الماضي والحاضر) أن آتي على ذكر ما تم تأجيله لاستكمال الموضوع من جميع جوانبه دون أي انتقاص.

قارئ الكريم، رجائي الحار أن تخصص جزءاً يسيراً من وقتك الثمين للمطالعة المستمرة، وأن يكون لي نصيب منك بقراءة ما نشرته؛ لتأخذ فكرة واضحة عن طبيعة حياة جيل دخل في صراع ومجابهة شرسة مع الزمن تحمّلها من أجل البقاء والعيش الرغيد.

بكل تقدير وامتنان،،،

٢٠١٦/١٠/٢٠

محمد لطفي الغنام

اعتراف

لقد كانت المذكرات التي كتبتها في السابق مبنية على ما مر عليّ من أحداث صادفتها في حياتي الشخصية الخاصة، ومعلومات استقيتها خلال مراحل دراستي المختلفة، وبذور الثقافة التي تولدت لدي من المطالعة المستمرة في مختلف المجالات الأدبية والشعرية والعلمية والتاريخية، وبصورة خاصة تاريخ الشعوب في العالم، ولكنها في الواقع لم تكن في العمق الذي تتصف به، ومقتصرة على نواحي معينة لا تغني عن الرجوع إلى مصادرها للوقوف على حقيقتها، ودورها الفعال في نهضة الشعوب، كما أن مشاهداتي القيّمة خلال زيارتي للعديد من المدن كان لها كبير الأثر في تكوين أرضية خصبة من المعارف، استهديت بها في تحديد مواضيع المذكرات المختلفة.

وباتساع قاعدة الشمول فقد بات من الضروري الرجوع إلى مصادر المعلومات من مواردها الأصلية، وتوثيقها بشكل يقطع الشك حولها، لذلك فقد لجأت فيما تناولته من أبحاث تاريخية وعلمية وحضارية إلى الرجوع لموسوعات ومراجع علمية وأدبية وتاريخية موثقة، تغرس الثقة في نفس القارئ لما يقرأه، ويطلع عليه. وقطعاً لكل تساؤل من القراء عن مصدر الشرح التفصيلي لكثير من الأمور والمعارف أوكد أنه كان موثقاً ومن مصدره الأصلي، ولم يكن مبنياً إطلاقاً على الخيال والأحاديث العابرة. وبصراحة القول أعترف بأنني مسرور للغاية لسببين أساسيين:

الأول: هو أنني تمكنت من معرفة المعلومة التي كنت أحملها بعمق وتفصيل.

والثاني: هو الوقوف على معلومات إضافية لم تتح لي الظروف السابقة من الاطلاع عليها، إضافة إلى أن التنوع والاستفاضة في الشرح سيكون له أثر كبير في معرفة الأمور على حقيقتها ومن ينبوعها الأصلي.

وختاماً فإن التركيز على التراث الحضاري العربي والغربي الذي سرنا عليه هو رد الجميل، وواجب تفرضه أدبيات مبادئنا العربية، وقيمتنا السامية وهو ليس بجديد أبداً.

والله ولي التوفيق،،،

محمد لطفي الغنام

بناء الأجيال

أستهل الحديث بالتكلم عن طبيعة الحياة في العائلات الدمشقية في مرحلة زمنية خلال العقود الماضية، كان لها أثر كبير في تكوين وتأهيل أبنائها، حيث لعب فيها رب الأسرة دوراً هاماً في رسم الطريق الذي يحدد مستقبل أفرادها في حياتهم العملية. وفي ضوء واقع الحال الفعلي الذي كان سائداً سيتم التحدث عن فترتين، الأولى تضم ثلاثة عقود الثاني والثالث والرابع، والثانية وتضم العقود اللاحقة وحتى يومنا هذا.

أ- الفترة الأولى

كانت الأسرة فيها تؤلف وحدة تامة تضم جميع أفرادها نزولاً دون استثناء بعهدة رأس الهرم رب الأسرة، الذي كان يرعى شؤونها المختلفة بإرادته المنفردة دون أي منازع، فهو الأمر النهائي، تشاركه في هذه المهمة إنسانة مطيعة تمتثل لما تكلف به بكل طيب خاطر، دون أي اعتراض أو تدمر، وقد سلكت دور الراعي من وراء الكواليس لتقريب وجهة نظر أبنائها التي يسرون بها إليها في مرحلة تحطي الأبناء مرحلة الطفولة ودخلوهم مرحلة الشباب، والتوجه نحو تكوين الشخصية الخاصة بهم، في ضوء قناعاتهم التي اكتسبوها من خلال التواصل الاجتماعي المباشر مع أقرانهم في الحي، أو نصح ذوي الخبرة والتجربة الذين تخطوا هذه المرحلة.

ويمكن القول هنا: بأن ربة الأسرة كانت حمامة السلام التي حافظت على بنية الأسرة ووحدها، وكانت ذا باعٍ طويل في تحقيق رغبات الأبناء.

تبدأ معركة الفصل النهائية بعد انتهاء الأبناء من اتمام مرحلة الدراسة الابتدائية، حيث يأتي موضوع تقرير المصير بإعلان رب الأسرة أول قرار حازم له بتحديد اسم من سيخلفه في ترعب عرش المنشأة التي يتولى إدارتها؛ لضمان استمرارية وجودها، ولا ينسى أبداً أن يحدد بجرأة الأسباب التي كانت وراء الاختيار، موضحاً أن جميع أبنائه هم على قدم المساواة في

الحبة، وأنه يسهر على مراعاة مصلحة كل منهم دون أي تأثير بالعواطف. وفي الوقت نفسه يطلب إلى أي منهم الإفصاح بجرأة عن تطلعاته المستقبلية في حياته العملية المقبلة، مبنية على قناعة تامة بما يملكه من قدرات وفي ضوء المناقشة، يتم تحديد من يرغب باستكمال الدراسة ومن يتوق إلى ممارسة الأعمال الحرة. وبهذه الخطوة تحدد آفاق مستقبل العائلة، ويذكر رب الأسرة في الوقت نفسه بأن مهمته لن تنتهي إلا بعد رؤية تقدم الخطى في هذا الميدان، ويدعو الجميع إلى التعاون مع بعضهم بروح عالية من المسؤولية العالية. ولا بد هنا من التأكيد على أن هناك أوضاعاً مختلفة كان فيها المستوى المادي للعائلة هو المعيار الأول والأخير في تحديد مستقبل أبنائها، وتفرض عليهم الالتحاق بالعمل المبكر للمشاركة في تأمين مورد للرزق؛ لمجابهة أعباء الحياة، وتمثل ذلك في عائلات من ذوي الدخل المحدود.

ولا بد من الإشارة إلى حالات استثنائية حملت بعض ذوي الطموح إلى متابعة الدراسة والتحصيل العالي في السر والخفاء، إلى جانب ممارسة العمل الحر، تحقيقاً لرغبات دفينية في أعماقهم، خلاف رغبات العائلة، وبمؤازرة فعالة من أقرانهم المحبين، أثمرت في تكوين عدد لا يستهان به من المختصين الكبار في مجالات محددة: أدبية وعلمية، أشاروا إليها صراحة في سيرتهم الذاتية بكل افتخار والأمثلة على ذلك كثيرة.

لقد كانت هذه الفترة على بساطتها وظروفها القاسية غنية بكل معنى الكلمة بأسماء خلّدهم التاريخ في المجالات الأدبية والعلمية ومن ذوي المهارات الخلاقة على مختلف المستويات، وقد جاء ذكرهم في معرض تكريم عبقريتهم وكفاءتهم العالية، نذكر على سبيل المثال وليس الحصر أن أحد الأطباء الجراحين السوريين شارك في العملية الجراحية الخطيرة لرأس الدبلوماسية الأميركية في الخمسينات، وآخر تألق في التوصل إلى نتائج مبهرة في علوم الذرة في أحد معاهد البحوث العالمية المتخصصة بهذا المجال.

ب- الفترة الثانية

تختلف كلياً عن سابقتها، حيث جاءت في مرحلة تجاوزت جميع العقبات والصعاب التي وقفت حائلاً دون تحقيقه في الفترة السابقة.

وقد اتسمت هذه المرحلة باختلافها كلياً من حيث الشكل والمضمون عن سابقتها حيث أصبح قرار تحديد المصير يتم بإرادة حرة نابعة من الذات دون أي نقاش، ولكنها بالنتيجة تنصب في بوتقة ممارسة المهنة التي ينشدها الابن، أو التمسك بمتابعة الخطى في ممارسة مهنة الأجداد.

ولا بد من القول: إن توسع آفاق المعرفة ونمو الذات والوعي الكبير - نتيجة ما تميزت به هذه المرحلة - لعب دوراً بالغ الأهمية في رفد المجتمع بخبرات وكفاءات عالية، كان لها إسهامها الفعال في التطوير والبناء الذي ننعم به في وقتنا الحاضر، مع التأكيد على أن ما وصلنا إليه من نهضة شاملة ماثلة للعيان هو ثمرة من ثمار الأجيال المتعاقبة على مر العصور.

ج- أزهار العائلة

أحببت أن أفرد الكلام عن وضع الأنثى في العائلة؛ لأنه كان يختلف في وضعها الحقيقي من عائلة إلى أخرى، ولكن يمكن القول إن وضعها بشكل عام كان مقبولاً للغاية وبمنزلة جيدة ترقى إلى مستوى أبناء الأسرة الذكور.

وأقول هنا: إنه من خلال معاشتي وضع إخوتي الإناث في العائلة أتبين أنها كانت تتمتع بجميع المزايا دون انتقاص، وإن كانت هناك أسر متأخرة تتمسك بالعادات والتقاليد البالية، وحرمتها من بعض حقوقها، ولكن من المؤكد أنها لم تحرم في شتى العقود الزمنية من نعمة التعليم والتزود بالمعرفة. ولا اعتبارات خاصة بكل أسرة حسب الظروف المعيشية في بعض الأحياء كانت تقتصر دراستها على مرحلة التعليم الابتدائي، في حين إن استكمال الدراسة الإعدادية والثانوية كان في حدود ضيقة جداً.

لذلك كان التوجه في أكثر الأحيان إلى تعلم فن الخياطة والتطريز، وممارسة الفنون الجميلة، حيث استمر هذا الوضع لفترة محدودة جداً فتحت بعدها الأبواب المغلقة على مصراعيها، ودخلت المجالات المختلفة في ميادين العلم والمعرفة، واحتلت مكانة مرموقة عن جدارة بشواهد حية.

ومن قبيل الحقيقة المؤكدة لمشاركة الأنثى في حياة العائلة، كانت في كثير من الأحيان محدودة جداً؛ لأن عش الزوجية ينتظرها لدى الباب بشكل مبكر، وسيكتب لها التوفيق والنجاح لما اكتسبت من خبرة ودراية بالأمور.



التصميم والإرادة

شاءت الظروف أن أتلقى مرحلة التعليم الابتدائي في مدرسة نموذجية كانت مركزاً تربوياً يرتاده طلاب دار المعلمين لحضور حصص تربوية، يلقيها أساتذة أخصائون، على خبرة عالية في مجال التدريس؛ للاقتداء بهم مستقبلاً في نهج الأسلوب الصحيح.

وبهدف توفير أكبر عدد ممكن من ذوي الخبرة والكفاءة، اعتمد في الصفين الرابع والخامس توزيع المواد المقررة من قراءة وحساب وتاريخ وعلوم وفنون، على مجموعة من المدرسين الاختصاصيين، كحصص أسبوعية في أيام محددة، وكان يملأ الفراغ في مجموع الحصص حتى الحد المقرر خريجو الجامعة من الاختصاصيين بهذه المواد حتى سنحت فرص تعيينهم أصالة في سلك التعليم.

وتصادف أنه في المواد الأدبية والحساب والتاريخ والعلوم والفنون الجميلة، تولى هذه المهمة مجموعة بقيت أسماءهم خالدة في ذاكرتي، وكان لهم أسلوب محبب استهوى أفئدة التلاميذ، فحملوا لهم أجمل الذكرى والانطباع الحسن.

مرت الأيام وتمكن هؤلاء من متابعة أعلى درجات التخصص (الدكتوراة)، وعادوا إلى الوطن محمّلين بدرجات علمية؛ خوّلتهم أن يكونوا من هيئة التدريس الجامعية، وكان أكثرهم ممن شق طريقه في طريق العلم والمعرفة معتمداً على ما حملته نفسه من آمنيات.

وقد أشاروا إلى ذلك في سيرتهم الذاتية بمنتهى الجرأة التي تقوّي الثقة في النفوس، وأشاروا بكل جرأة دون خوف أو وجل بأن سلوكهم الميدان الذي وصلوا إليه لم يكن ملبياً رغبة من أرادوا لهم اختيار ميدان للعمل، ولكن التصميم والإرادة يفعلان المستحيل.

أحببت أن أستشهد بما أوردته أعلاه بأمثلة حية لأولئك الذين اعتمدوا على الذات، وتسلحوا بالصبر لتذليل الصعاب، وقوة الإرادة للوصول إلى الهدف المنشود، ولست بحاجة إلى ذكر الأسماء فهي غنية عن التعريف.

صور من الحياة

من خلال إجراء مقارنة بين أسلوب الحياة في الحقبة الماضية والحاضرة، نجد أنها تختلف في الشكل العام، ولكنها متماثلة في المضمون من حيث انصراف جميع أفراد المجتمع على اختلاف فئاتهم إلى ممارسة العمل في شتى المجالات، كل حسب اختصاصه، السلك الوظيفي، المصرفي، الطب، المحاماة، بيوت الخبرة.. وغيرها إضافة إلى أعمال المهن الحرة التجارية والصناعية وشركات الخدمات المتنوعة.

لذلك فإنه سيتم التحدث عن طبيعة العمل اليومي من حيث الشكل موزعة على فترات زمنية من الصباح حتى المساء.

تحضيرات الصباح

يبدأ الاستعداد للعمل اليومي باكراً قبل فترة وجيزة من صلاة الفجر، حيث يظهر النشاط الأولي باستيقاظ رب الأسرة وشريكته، ثم يعمد إلى أداء فريضة الصلاة في البيت أو المسجد، وتقوم الزوجة خلالها بتحضير وجبة الطعام الصباحي، ويغادر بعدها إلى مركز عمله، في حين يستيقظ الأبناء ويحضرون أنفسهم للذهاب إلى المدرسة مزوداً كلاً منهم بعروسة (سندويشة) يتناولها في الطريق.

أما في الحي نفسه؛ فتدب حركة الفعاليات المختلفة (صناعة الخبز، باعة الفول والحمص، محلات بيع مشتقات الحليب بأنواعها المختلفة) تليها بعد فترة شروق الشمس افتتاح محلات النشاطات الأخرى (البقاليات و باعة اللحوم والخضار والفواكه وغيرها) أما المحلات التجارية أو الصناعية فتبدأ بتأخر طفيف.

وهناك ظاهرة خاصة ببعض الأحياء دون سواها، وهي حضور باعة الخضار والفواكه والعنب الدوماني الأحمر مع باكورة الصباح على عربات تجرها الخيول.

تأمين التنقلات

أما بالنسبة لوسائط النقل؛ فإنه تبدأ عمليات سير الحافلات الكهربائية في الساعة السادسة صباحاً على جميع الخطوط، وتبدأ بعدها في التجوال سيارات التاكسي بعدد محدود جداً، ومن ثم عربات تجرها الخيول، بينما كان القسم الأعظم من سكان الأحياء يتخذون من الدراجات العادية واسطة لتنقلاتهم؛ توتخياً للسرعة.

وكان الترام (الحافلة الكهربائية) واسطة النقل العملية التي تربط شمال العاصمة بجنوبها وشرقها بغربها، حتى إن المقيم في بوابة الميدان يمكن أن يصل إلى ساحة خورشيد في المهاجرين بتبديل الخط مرة واحدة في ساحة المرجة، وكذلك الأمر بالنسبة للمقيم في الصالحية يتجه إلى القابون بتبديل الخط مرة واحدة في ساحة المرجة، ومن ساحة المرجة يمكن أن يأخذ الخط المتجه إلى الصالحية أو المهاجرين أو الميدان أو باب توما والقصاع، ويصل إلى نهايته دون حاجة إلى تبديل.

كما أنه سهل للمقيمين في دوما وحرستا وزملكا وعربين وجوبر، التوجه إلى دمشق دون أية مشقة، وبسهولة كاملة، دون توقف إلا في محطات الصعود أو النزول. ومن قبيل الألم فإن إزالته لم تكن في محلها، وحرمت أبناء دمشق في أحيائها القديمة والجديدة والغوطة الشرقية من نعمة كبيرة كانت قد سهلت عليهم التنقل دون أية مشقة أو عناء.

العين الساهرة

كان السهر على حفظ الأمن خلال الليل يقوم على نظام زال من الوجود، حيث كان يعهد بهذه المهمة إلى حراس ليليين يتبعون للجهات الأمنية، تبدأ مع غروب الشمس حتى شروقها في صباح اليوم التالي.

يقوم النظام على أساس تقسيم الحي إلى قطاعات، يكون لكل منها حارس يجوب أزقتها بلباسه الخاكي وقبعته الخضراء، ممسكاً بيده العصا، وفي يده الأخرى المصباح (البيل)، وتتدلى صفارته على صدره، ويتخذ من بيته الخشبي (الكولبة) مقراً للاستراحة بعد جولة يتفقد فيها المحلات، ويتأكد من عدم تعرضها للعبث أو السرقة، وإذا شاهد ما يثير الشك أو أي تحرك مشبوه يرسل عدة صفارات استغاثة، يهرول نحوه زملاؤه على عجل للمساعدة، ويمكن القول إنها كادت تكون معدومة لاستتباب الأمان.

ومما لا يمكن إنكاره أن وجود الرقابة الليلية لدور السكن أو المحلات كان عاملاً هاماً في زرع الاطمئنان في نفوس أهل الحي.

فجر الشروق

أمام تسارع رقعة المدينة كان لابد من إيجاد سبيل يخفف من حدة مركزية تدارك ما تحتاجه الأسرة من متطلبات أساسية وضرورية.

وبهدف تسهيل الأمور فقد تم إنشاء أسواق فرعية تضم فعاليات تجارية واقتصادية مجاورة لأحياء السكن الجديدة، تُغني عن تحمل مشقة الذهاب إلى أسواق وسط المدينة. وفعالاً فقد تحول شارع العابد والشهداء والصالحية إلى محلات تجارية بصورة مصغرة عن أسواق المدينة الرئيسية، وقد كانت البدايات متواضعة، ولكنها تطورت مع مرور الزمن، وأصبحت وريثاً شرعياً للأسواق الرئيسية، تتصف بالشمولية والذوق الرفيع.

ظاهرة التخلف

مع بداية التحلل والتخلص من العادات والتقاليد بوشر بافتتاح دور للسينما والمقاهي والمطاعم ومحلات بيع الوجبات السريعة والمرطبات، وأصبحت الشوارع التي تحيط بالحي ملاذاً لارتياحها من مختلف أنواع المواطنين.

وقد حدثتني جدتي عن واقعة في أواخر العقد الرابع بأنه قد افتتح في مطلع حي الصاحية صالة سينما أطلق عليها سينما "أمبير" لعرض الأفلام العربية، وهي مخصصة للعنصر النسائي، ومحرمّة أيضاً على الأطفال الذكور، وقد غصت صالاتها بعدد كبير من النسوة وفئة غير قليلة من المحجبات بالملايا والبرقع من سكان أحياء مجاورة.

ولما شاع الخبر قام في صباح اليوم التالي مجموعة من البلطجية المستأجرة من الرجعيين بإعلان سخطها على هذه الخطوة، في محاولة لهدم وتكسير السينما، ولكن تصدت لها قوى الأمن، وعمدت إلى تفريقهم تحت طائلة المسؤولية الجزائية، وكانت بداية مرحلة التخلص من الجهل.

ومن المؤسف حقاً أن تزول أمكنة بدايات التحرر من العادات البالية؛ لتبقى شاهداً حياً على ذهاب التخلف، وإنه لم يبق منها سوى سينما الأهرام (روكسي)، قهوة الهافانا (حولت فترة لمجموعة بيع الملابس الجاهزة وأعيد تصميمها وفتحها نتيجة الاحتجاج لكونها عريقة بتاريخها) قهوة الكمال الصيفي، والنادي العربي، وحتى القطة السوداء، ومطعم الواحة... وغيرها.

تأمين الاحتياجات

وما أن تدب الحركة والنشاط في الأحياء حتى تبدأ ظاهرة قلّما وجدت في أمكنة أخرى، حيث يتحول الحي إلى سوق متنقل من قبل الباعة الذين يجوبونه بعرباتهم أو على ظهر الحيوانات، محملين بمختلف متطلبات السكان من الحوائج، تبدأ أولاً بعرض أجود أصناف الخضار والفواكه، ثم تعقبها عرض مواد متنوعة الأصناف تدعو إليها الحاجة في حالات الطوارئ، أو من المستلزمات الثانوية التي يجب أن تكون في المخزون. وأذكر أنه في مرحلة الطفولة كان هناك باعة الشنطة والأقمشة ومواد التزيين وغيرها، فكانوا يرتادون الحي من وقت لآخر، وتشجيعاً لسوق بضائعهم كانوا يبيعونها تقسيطاً بفكر تجاري ثاقب منافس للسوق، وكانت تشد ربات البيوت؛ لأنها كانت بنوعية جيدة وأسعار مقبولة، لا ترقى أبداً إلى الجودة العالية التي تسبب إحجاماً عند شرائها لكونها ستكون مخصصة كملايس للبيت.

وفي الحقيقة فإن هذا الأسلوب كان في حدود ضيقة انتشر في أحياء التوسع العمراني في دمشق، وقد لاقى قبولاً واستحساناً للتسهيلات المادية في دفع قيمة المواد الشرائية، وقد زال دون أن يكتب له العمر المديد أمام مغريات البضائع الأخرى التي تباع في الأسواق.

التعاون الأسري

في مناسبات محددة كانت تبدو مظاهر التعاون في أبهى صورها، ويتمثل ذلك بأنه في اليوم المقرر للغسيل تمتد يد المساعدة إلى ربة البيت قريبات لها أو صداقة متينة حيث يحضرن ويوزع العمل بينهن أولاً لتخفيف المشقة والتعب، وثانياً لإنجازه بمنتهى السرعة؛ لتباشر بانتهائه إعداد الطعام ويكون مظهر البيت خلال العمل كخلية النحل، ينجز العمل في جو ملؤه الحب والسرور.

ولا بد أن نذكر حالة مماثلة لهذا الوضع تكون عند إعداد وجبة المحاشي والفتات وسلطات اللسانات ولحم رأس الغنم؛ لأن إعداد هذه الوجبة يتطلب مراعاة عنصرين هامين، الأول: منها النظافة، والثاني: هو المهارة في تهيئة المستلزمات الأساسية. وأنه رغم كون هذه الأكلة لذيدة إلى أبعد الحدود، إلا أنها كانت تتم في حدود ضيقة، ومازالت منتشرة في أحياء دمشق القديمة الغنية بمهارات لا حدود لها في طهي الطعام اللذيذ. وفي أيامنا هذه يقتصر إعداد هذه الوجبة في مدينة دمشق على ثلاثة أمكنة متخصصة بالتوارث في باب الجابية، والميدان (جزماتية)، والعمارة (عاصم).

عادات متوارثة

كانت وجبة الطعام الصباحية يوم الجمعة متميزة؛ لأنها كانت الوحيدة في الأسبوع التي تضم جميع أفراد الأسرة، يجمعهم الوثام والألفة والمحبة. يتم الإعداد بتحضير لوازمها في اليوم السابق لها، وكانت متماثلة في جميع الأحياء، تتنوع من أسبوع لآخر:

- أكلة الفول المدمس المزّين بالحمص والبندورة والبقدونس، ومغطى بالليمون والزيت البلدي.
- سلطة الحمص، تعلوها البندورة، ومغطاة بالليمون والزيت البلدي.
- المسبّحة بالليمون أو عصير الرمان الحامض بالزيت البلدي، أو باللحم والسنوبر، بالسمن البلدي.
- فتّات الحمص إما باللبن والطحينة، أو عجينة الحمص (البَدْوَة) مزينة الأولى بجبات الرمان الحامض، والثانية بالسنوبر ويفتح الشهية بها السمن البلدي.
- فتّة الكِشْكِه (أكلة ريفية انتشرت في المدينة مصنوعة من اللبن الرائب الحامض والبرغل) كالحساء مكوناتها: الزيت - قطع البصل اليابس - النعناع اليابس - الكشكشة) تغلى جيداً حتى الاستواء وتتناول بعد سكبها على قطع من الخبز. ويكون إلى جانبها نوع آخر من الكِشْكِه على غرار المسبّحة مكوناتها: خلطة الكشكشة بالماء الفاتر - قطع الجوز - قطع البصل اليابس - البقدونس) تغطى بالزيت البلدي عند وضعها بالصحون.
- والشيء الذي يتم الحرص على وجوده كمقبلات: (الفجل - البصل الأخضر - المخلل بأنواعه المختلفة) وزيادة في الشهية يكون الخبز مرقوقاً (تَوْرِي).

هدأة المساء

مع عودة التلاميذ من مدارسهم بعد انتهاء فترة الدوام الثانية بعد الظهر حتى المساء تبدأ مرحلة العد العكسي لانتهاء الأعمال اليومية على اختلافها، تبدأ بتوديعها أولاً من قبل العائلة، حيث يعبر الصغار عن فرحتهم باللعب المشترك وقيام التلاميذ الذكور من أبناء الحي باستعراض ما لديهم من أمور تستوجب التشاور، وخاصة في مادتي اللغة العربية والحساب والاستعانة مع بعضهم لحلها، ومع قرب ميل الشمس للغروب تدخل مرحلة الاختتام، حيث يباشر أصحاب الفعاليات التجارية في إغلاق محلاتهم، وعودة رجال الحي من أعمالهم، ويخيم الهدوء والسكون في الحي بعد أداء فريضة صلاة المغرب والعشاء، وابتشار ظلمة الليل تنعدم الحركة بنسبة كبيرة جداً، ويبقى الحي تحت رقابة الحراس الليليين خلال جولاتهم المستمرة طيلة الليل.

البدر الساطع

تختلف الصورة في مركز المدينة كلياً، حيث يدبّ فيها نشاط ليلي جديد، يفرض استمرار جميع الفعاليات من: مقاهي ومطاعم ودور سينما وأماكن اللهو (المحتشمة) في خدمة روادها، حيث مع دخول منتصف الليل يذهب تالؤ الأضواء بالانحسار تدريجياً حتى صباح اليوم التالي؛ لتدب الحركة من جديد على نفس المنوال السابق.

توضيح

وختاماً لا بد من القول إن التأقلم مع خطوات التحرر من العادات والتقاليد البالية كانت متسارعة، بدأت باكراً عقب الاستقلال، وتذوق طعم الحرية حيث تم اندثار مخلفات الجهل والتأخر، وبدء مرحلة النهوض التي لاقت قبولاً عارماً واستحساناً من قبل الجميع، ظهرت آثاره المدهشة على بعض أساليب الحياة السابقة من حيث تطورها نحو التحرر تدريجياً من طوق التأخر والجهل.

ما أشبه اليوم بالبارحة؟

لا يمكن للإنسان أن يكون بعيداً عن مجريات الأحداث التي تجري حوله، وتنعكس على نفسيته سلباً أو إيجاباً.

ومن الملاحظ أن ما تمر به منطقتنا من أوضاع مأساوية كان لها تأثير كبير في النفوس، وإدخال الحسرة والألم لما آلت إليه، وهذا بالضرورة يدعو إلى العودة للماضي البعيد؛ للوقوف على طبيعة الحياة التي كانت سائدة.

ولا أدري في الحقيقة كيف توارد إلى ذهني قول الشاعر العربي:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أباك يسأم

فأحببت أن أغوص بالتدقيق لمعرفة الأسباب؛ لأنه كان بعيداً كل البعد عما ينغص حياته، حيث كان شاعر عصره المتألق الذي كان ينعم بأجواء لم يشهدها غيره من الشعراء، فهو ينحدر من عائلة ينظم أكثر أفرادها الشعر، ولم يتعرض لقسوة الحياة أو شظف العيش أو الجفاء من المحبين في قبيلته التي كان بداراً مشعاً فيها، وموضع احترام الجميع.

عدت إلى أشعاره لألمس من خلالها الظروف الاجتماعية حوله؛ لأنها لسان حاله، فاستدللت أن حرب داحس والغبراء تركت في نفسه جرحاً بليغاً لم يندمل بمرور الزمن؛ لما خلفته من خراب ودمار وسفك دماء وتشريد، وأدخلت في النفوس البغضاء والكراهية.

قلت في نفسي ما أشبه الماضي بالحاضر وأيقنت أن الظروف القاسية هي نفسها التي نعيشها هذه الأيام -وما نجم عنها من ويلات أدمت القلوب، نتيجة الفتن والحروب- ليست جديدة.

ولكن شتان بين الوضعين الأول: ناجم عن التأخر، والثاني: مؤامرة دنيئة لبسط السيطرة والنفوذ والتبعية، وبالتالي نهب الثروات والخيرات.

وبكل دناءة رسم أصحاب النوايا السيئة الخطط الدموية لتكون؛ بلادنا مسرحاً للحروب والفتن وعدم الاستقرار.

وما نشاهده أمام ناظرينا، فما حل ببلادنا من تدمير للبنى التحتية ونهب الثروات وشل الاقتصاد وتشريد الشعب، يعطي البرهان القاطع على انعدام الضمير والإنسانية من القلوب.

إن ما أدهشني في الحقيقة هو تماثل النفس البشرية، سواء في العصور الغابرة أو العصر الحديث، حيث ينقلب الإنسان إذا حمي الوطيس إلى وحش كاسر لا يعرف الرحمة، همه التشفي والانتقام دون أي رادع.

إن الحياة تجارب وحبذا لو كان رائد الجميع في المجتمع الاستفادة من خبرات القدماء والاهتداء بها في تصرفاتهم، وقد أذهلتني قصائد الشاعر زهير بن أبي سلمى بما تضمنته من نصائح وحكم تصلح لكل زمان ومكان وللبشرية جمعاء.
ومن المفيد استعراض بعض ما قيل بهذا الشأن:

عن الحرب

وما هو عنها بالحديث المرجم	ما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وتضّر إذا ضرّئتموها فتضرم	متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتم	فتعركم عرك الرحي بثقالها
كأحمر عاد، ثم ترضع فتفطم	فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم

في الحياة

ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم	سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش
ولكنني عن علم ما في غد عم	وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
تته ومن تخطئ يُعمّر فيهم	رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

في العلاقات الإنسانية

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
وإن يرق أسباب السماء بسلم
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وخلاصة القول بأن الشاعر زهير شاعر أخلاقي واجتماعي، ارتقى في مثاليته إلى درجة جعلت منه أعظم شعراء عصره، وبرهن على أنه الشاعر الحكيم الذي خبر الحياة وما فيها من متناقضات، من خير وشر، وحرب وسلم، وحب وبغض، وعدالة وظلم.

فحول الشعراء العرب

ما دامت الصدفة لعبت دورها بالتذكير بأفراد من المجتمع امتلكوا مزية خلدتهم عبر العصور، وأثلجت في روعتها القلوب، لا بد من اتخاذ هذه الفرصة للتحدث عن الشاعر أبي فراس الحمداني، الذي يعتبر نموذجاً فريداً لما أتحفنا به من قصائد، تناولت جميع الفنون الشعرية التقليدية المعروفة، فبلغت درجة عالية من الروعة والرقي الجمالي.

ولعل أروع ما نظمه من قصائد تلك التي كانت خلال فترة أسره لدى الروم، وأطلق عليها اسم (الروميّات) حيث ظهرت فيها نفسيته المنكسرة المعبرة عن آلامه وجراحه وحنينه إلى أمه وأهله في (منبج).

ولأخذ فكرة واضحة عن أشعاره رأيت اختيار نماذج من شعره تناولت مواضيع شتى، تتنازعها عواطف الألم والحسرة، والعتب والافتخار والشكوى، وأظهرت في الوقت نفسه عزة النفس والشهامة والإباء والوفاء، تنطبق مجال الأكثرية المطلقة من أفراد المجتمع في أيامنا هذه، تدعونا أن نتمثل بما جاء بها من عبر تبعث الأمل في النفوس.

وفيما يلي النماذج المختارة:

مناجاة

أقول وقد ناحت بقربي حمامة	أيا جارتا هل تشعرين بحالي
معاذ الهوى ماذقت طارقة النوى	ولا خطرت منك الهموم بيالي
أيا جارتا، ما أنصف الدهر بيننا	تعالى أقاسمك الهموم تعالي
أيضحك مأسور وتبكي طليقة	ويسكت محزون، ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة	ولكن دمعي في الحوادث غال

ما أروع هذه المحاورة التي جاءت معبرة عما يختلج في نفسه، بأسلوب فريد من نوعه، جمع بين طرح الاستفسار والإجابة عنه.

مواساة

لولا العجوز بمنبج
ولكان لي عما سألت
لكن قضاء الله
يا أمّتا لا تحزني
يا أمّتا لا تيأسي
أوصيك بالصبر الجميل
ما خفت أسباب المنية
من الفدا نفس أبيه
والأحكام تنفذ في البرية
وثقي بفضل الله فيه
لله ألطف خفيه
فإنه خير الوصية
أدبيات أظهرت حينه إلى أمه وامثاله إلى إرادة رب العالمين والتماسه منها التدرع
بالصبر؛ لأنه ما بعد الضيق إلا الفرج القريب.

الشكوى

مصابي جليل والعزاء جميل
وأسر أقاسيه وليل نجومه
تطول بي الساعات وهي قصيرة
تناساني الأصحاب إلا عصبية
ومن ذا الذي يبقى على العهد
أبيات بدت فيها نفسيته المنكسرة من قلة وفاء الأصحاب، وما تنطوي عليه النفس
البشرية الأتارة بالسوء، وفي الوقت نفسه يستدل منها العودة إلى الألفة والمحبة والوفاء ومقابلة
الإحسان بالإحسان.

الاعتزاز

ونحن أناس لا توسط بيننا
أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلا
سيذكرني قومي إذا جد جدّهم
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
وأكرم من فوق التراب ولا فخر
وفي الليلة الظلماء يفترق البدر

ما أبلغ هذا القول الذي ينطق بصراحة عن صفات كان يتحلى بها بكل صدق، وهي من مآثر أجدادنا العظام، وتدعوننا إلى التمثل بما لنحتل مكاننا اللائق تحت الشمس.

ثناء

ما دام الشيء بالشيء يذكر أردد ما قيل عن هذا الشاعر العربي الأصيل على لسان "ابن خلكان":

إن الشاعر أبا فراس الحمداني أبرز شعراء عصره، احتوى ديوان شعره نوعاً آخر لأساليب الشعر من النوع الوجداني الرقيق، تجاوز فيه تجربته الشخصية الأليمة التي ذقت مرارة الأسر؛ فكان شعره صرخة ضمّنها أعمق المشاعر الإنسانية وأنبأها، وأكثرها استثارة لتوق الحرية؛ فاستحق مرتبة الشاعر الخالد.

وحيث إنه كان إلى جانب موهبته الشعرية فارساً بطلاً أبلى بلاء لا مثيل له في المعارك التي خاضها مع الأعداء، كان لا بد لي من ذكر هذه الرواية الحقيقية عن شجاعته ورجولته، وذلك أنه حين تأخر ابن عمه سيف الدولة عن افتدائه من الأسر، نجا بنفسه ببطولة خارقة خيالية، حيث قام بركوب جواده وأهوى به من أعلى الحصن وهو على ظهره إلى نهر الفرات لينعم بنسيم الحرية والتحرر من الأسر.

رأي

أحببت أن أنتهز فرصة عرض موضوع نعيش أحداثه لأتكلّم عن أحد الرجال الأشاوس، الذي جمع المجد من جميع أطرافه، وهو أحد الأسماء الذين حفل بهم تراثنا العربي الخالد، الأمر الذي يدعوننا إلى إعلانهِ للبشرية جمعاء لأنه موضع فخر واعتزاز، من خلال زاوية قصيرة على الشاشة الصغيرة بعنوان "رجال من التاريخ العربي" لأنه إذا لم يتم ذلك من قبلنا؛ فليس هناك سوانا من الآخرين يقوم بذلك، وليس ذلك بجديد؛ حيث نسلك سبيل الذين لا يتركون فرصة إلا ويتحدثون عن الأمجاد ويتباهون بها.

صور من الماضي

تطرق سمع المرء خلال سني حياته أحداث أو أمور تبقى خالدة في ذاكرته، ولا سيما المؤلمة منها، وقد مرت علي في عقود مختلفة بعض منها، رأيت أن أذكرها لما فيها من غرابة لا يمكن تصورها أدخلت في نفوسنا الألم والحزن.

خلال الاحتفال بذكرى الجلاء في العقد الخامس بينما كانت أرتال الدبابات تسير أمام المشاهدين، لم يتمكن سائق إحداها من الانعطاف ليأخذ طريقه إلى جسر فيكتوريا، واستمر في سيره إلى الأمام واقتحم صفوف المشاهدين فذهب ضحية هذا الحادث ما يزيد عن ٥٠ فرداً من الرجال والنساء والأطفال، ودب الذعر في نفوس المشاهدين، وأخلوا الطريق الذي امتلأ بجثث الضحايا ودماء الأبرياء.

خلال قيام إحدى الفتيات باستعراض بملواني على الجبال المنصوبة في أحد سيركات العرض، قامت بالقفز بالهواء متجهة نحو ممسك الجبل المقابل، ولكن لم يسعفها الحظ بالوصول إليه، وسقطت على الأرض وفارقت الحياة وكانت درساً حمل أصحاب السيرك إلى نصب شباك لتحول دون تعرض البهلواني إلى الموت في حال السقوط.

خلال فصل الشتاء هطلت أمطار غزيرة دون انقطاع في إحدى ليالي شهر كانون الثاني، مما أدى إلى ارتفاع منسوب المياه في نهر بردى حتى الذروة، وتدفق باندفاع شديد في مجراه وشكل ضغطاً هائلاً في الأماكن التي تم تغطيتها، وأمام صعوبة تصريف المياه تشققت الأرض واندفع الماء بغزارة، مما سبب سيلاً عارماً امتد إلى جميع الأسواق المجاورة لساحة المرجة، وقد تبين من خلال دراسة الأسباب غير المتوقعة أن الأفتنية التي تغذي أحياء المدينة في شمالها وجنوبها قد أغلقت بجدر إسمنتية حالت دون تصريفها الفائض من المياه إلى المجاري الفرعية.

تعرض أحد الأبنية الصغيرة في شارع السنجدار إلى الانهيار، حيث سقط بطوابقه الثلاثة، وغار في الأرض ولم يبق منه سوى السقف الأخير الذي غطى أرضه، وقد أثار هذا

الحادث الدهشة والاستغراب، حيث إن البنائين اللذين يقع وسطهما لم يتعرضا لأي ضرر، في حين أنه اقتصر الأضرار نتيجة الحادث على موجودات البناء دون أي ضحايا، باعتباره وقع ليلاً لمكاتب تشغيلها فعاليات استشارية تعمل في النهار.

السيرك المتنقل: كانت من العادات السائدة في مجتمعنا قيام بعض أصحاب المواهب الخلاقة التي تسر المشاهد؛ بإجراء عرض حيّ لما يملكونه من أعمال في ساحات الأحياء، يتجمهر حولهم المشاهدون على شكل حلقة دائرية، يتخذون من وسطها مسرحاً لعرض الألعاب المتنوعة.

قبل بدء العرض يتولى أحد المشاركين بجمع ما يتبرع به الحاضرون من مال حسب سخاء كل منهم ثم تتوالى المشاهد:

يقوم مدرب أحد القردة (السعدان) بحمله على القيام ببعض التصرفات التي تم تدريبه عليها، من رقص على الإيقاع، أو إجراء بعض الألعاب البهلوانية، أو القفز بحركات متنوعة مدهشة، ومما يشجعه على ذلك هو مكافأته بإطعامه حبات الفستق، وينصرف الوضع على نحو مماثل من قبل أحد الأحصنة.

قيام أحد السحرة بألعاب تبرز مهارته، في مجالات تخرج عن المألوف بخدع سحرية بإخراج مجموعة من الشفرات من فمه، أو إدخال آلة حادة إلى جوفه، أو استخراج عدد من المحارم من أحد أكمامه، أو اللعب بالورق.

قيام أحد الرياضيين بإجراء استعراض بهلواني، يتخلله القفز على حصان خشبي بألعاب سويدية شيقة وغيرها.

قيام أحد الهواة باللعب بالنار بحركات متنوعة بواسطة المشاعل النارية، أو القفز على نار مشتعلة، أو عبور حلقة دائرية تنبعث منها ألسنة اللهب.. وغيرها.

قيام أحد المهرة بعرض الكرات الخشبية من حيث إجراء ألعاب متنوعة وأشكال هندسية، برمي عدة كرات بأن واحد علواً أو نزولاً، بحركات مدهشة؛ للحيلولة دون سقوطها

على الأرض، تدل على المهارة وحسن التدريب.
قيام مجموعة من المدربين بحركات فكاهية مضحكة على نغمات موسيقية بإيقاع
خاص، على نحو يماثل أداء الممثل الهزلي “بلياتشو” المشهور عالمياً.

أحببت أن أسرد هذا النوع من الأعمال التي كانت سائدة في عقود الثلاثينات
والأربعينات؛ لأعطي البرهان بأن أفراد المجتمع رغم الظروف القاسية التي تعرضوا لها، لم
يكونوا خاملين، بل واجهوا الحياة بإرادة صلبة، دفعتهم إلى ابتداع الوسيلة لكسب العيش
الشريف، ومحاولة إدخال البهجة إلى أنفسهم؛ لتخفيف ما يعانونه من هموم وآلام.



علامات متميزة

لم يتصور أحد أن يتم التحرر - بهذه السرعة المذهلة - من العادات والتقاليد البالية، ونفض غبار الجهل والتأخر، الذي كان مخيماً في أجواء المرحلة السابقة، التي عانت الولايات من آثار التخلف.

لقد كانت خطوات التطور تسير بوتيرة متسارعة نحو الأمام، متجاوزة بفهم عميق وجرأة لا حدود لها؛ للتخلص من آثار الماضي.

بدأت ظهور علائم الانفراج بالخروج من قمم العزلة، حيث اتسعت دائرة المعارف بين المواطنين بعد طول عزلة، وتوطدت الصداقات بين العائلات، وكثرت الزيارات المتبادلة، مبشرة بالتحلل التام من مخلفات العقود الماضية التي انعكست بآثارها السلبية على طبيعة الحياة.

وقد تمثل الأمر بادئ ذي بدء بتحرر المرأة من قيود الماضي، وانفتاح جميع الآفاق أمامها، وخروج الرجال من ثوب العزلة، وارتياح الأماكن التي تخفف من عناء العمل واتساع آفاق المعرفة بين أبناء الجيل.

لقد كان لكل مرفق جديد آثاره الهامة التي أثمرت إيجاباً في سلم الرقي؛ فافتتحت النوادي بمختلف الأنشطة الأدبية والعلمية والفنية والرياضية، والمقاهي ودور الثقافة، وصلات العرض السينمائي، والمسارح والمطاعم، وأماكن لتمضية السهرات وغيرها... حيث تم هذا التحول بخطى تدريجية متسارعة، دون أن تلقى أي معارضة، بل وجدت ترحاباً وقبولاً غير متوقع.

وكانت البدايات منذ مطلع العقد الخامس بخطوات جريئة وتفكير صائب حيث شمل التطور المجالات التالية:

- ١ - منح الحريات الشخصية للمواطنين على قدم المساواة.
- ٢ - إعلان شعار محو الأمية.
- ٣ - الإكثار من انتشار المعاهد والمدارس، وجعل مرحلة التعليم الابتدائية إلزامية ومجانية.

٤- فتح فروع جديدة في الجامعة، وجعل أبوابها مفتوحة أمام كل راغب، إذا توافرت لديه شروط القبول برسوم تكاد أن تكون رمزية.

٥- تشجيع المواطنين على إحداث الشركات الاقتصادية في جميع المجالات؛ للاستغناء عن الاستيراد.

٦- إبراز الصناعات التقليدية التي تفخر بها البلاد.

٧- الاهتمام بالزراعة وإيلائه أكبر اهتمام؛ لأن بلدنا زراعي.

هذا غيظ من فيض لأن النشاطات كانت أكبر من أن تحصى، واستطاعت سورية أن تتقدم بخطوات متسارعة في إنجاز البنية التحتية في جميع الأنشطة، واحتلت مركزاً هاماً بين الدول المتقدمة بفضل سواعد أبنائها البناءة.

ولم يكن في الحسبان إطلاقاً أن يتعرض بلدنا الحبيب إلى هجمة شرسة أممية لا تعرف الرحمة، وعرضته للخراب والدمار وسفك الدماء والتشرد، مما تسبب في توقف مسيرة النهضة، بل والعودة إلى الوراء، فهدمت جميع البنى التحتية التي كانت ثمرة الازدهار الباهر في جميع نواحي الحياة.

وأضرع إلى الله العلي القدير أن يصرف عنا هذه الغمة وتقوم الأيدي المعطاءة ببناء مرحلة جديدة، تبرهن على أن الصخرة الصلبة ستبقى صامدة أبد الدهر، وبارادتها الصلبة في الحياة سترفع رايات المجد في ظل جو من المحبة والألفة والوئام.

أجمل ما قرأت

أقوال وحكم وأشعار

ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه إن من أشقاه ربي كيف أنتم	إن حظي كدقيق فوق شوك نثروه صعب الأمر عليهم ثم قالوا اتركوه
جريمة لا تغتفر مسألة فيها نظر	قتل امرئ في غابة وقتل شعب آمن
وإن خالها تخفى على الناس تُعلم	ومهما تكن عند امرئ من خليقة
فتول أنت جميع أمرك	ما حك جلدك مثل ظفرك
لا تعاند من إذا قال فعل	جالس السلطان واخش بأسه
إن المناصب لا تدوم طويلاً	وأعز ما يبقى وداد دائم
فإن كنت في شك فأين الأول فإذا عزلت فإنها لا تعزل	إن المناصب لا تدوم لواحد فاصنع من الفعل الجميل فضائل
يميل مع النعماء حيث تميل وكل زمان بالكرام بخيل	أقلب طريقي لا أرى غير صاحب فكل خليل هكذا، غير منصف

حكمة بلغة

يقول المثل: "حصانك لسانك.. إن صننته صانك.. وان خنته خانك".
وهنا أدعو من كل قلبي أن يتمثل هذا المرء القول الحكيم الذي يدعو إلى الابتعاد عن لغو الكلام، ويتجنب كل ما من شأنه بث التفرقة بين الناس سواء أكان ذلك بشكل عفوي، أو بقصد؛ لأنه سرعان ما تنكشف سرائره؛ فيفقد مهابته ومكانته بين أفراد المجتمع، ويصبح منبوذاً يشار إليه بالبنان.

وصدق رسول الله ﷺ: (من حسن المرء تركه ما لا يعنيه).
ونصيحتي: إن حفظ اللسان أفضل فضيلة للإنسان.

من القلب

أيقنت بشكل قاطع أن ما تبثه وسائل الإعلام الإذاعية والتلفزيون ووسائل التواصل الاجتماعي، يلعب دوراً هاماً في تسليط الأضواء على معلومات قيمة عن المشاهير في العالم، والإنجاز الضخم الذي حققه كل منهم في أحد المجالات التي كان لها أثرها الفعال في الرقي بسلم الحضارة.

وما دفعني إلى هذا القول، هو التراجع المخيف الذي حصل فجأة في مضمار المطالعة و تثقيف الذات.

ولعل ذلك راجع إلى التبدل الجذري في طبيعة الحياة بين الماضي والحاضر، وغرق المواطن في بحر عارم، يناضل فيه من أجل تحقيق بناء الظروف المعيشية اللائقة التي بلغت في المرحلة الراهنة حدوداً تستوجب النضال المشروع، مما يجعله مُنهك القوى، يلتمس الراحة لتجديد النشاط.

وبالكاد أصبح جل الوقت الذي يقضيه في بيته يساعده لتفقد أمور الأسرة ورعاية شؤونها، وبالكاد يسمح له الوقت للسهر لمشاهدة البرامج التلفزيونية، التي يكرسها على تتبع

الأخبار حول مجريات الأحداث في وطنه والعالم أجمع.

وإن نظرة عابرة بين واقع الحياة في الماضي والحاضر، يجد اختلافاً كلياً، حيث كان فراغ الوقت الطويل في الماضي، يحمل المرء إلى قتله بالمطالعة المستمرة؛ للتزود بالعلوم وزيادة المعارف، في حين إن الحياة المعاصرة قد قضت على هذا الهامش بشكل جذري؛ لانشغاله وغرقه في هموم الحياة المعقدة.

كما وأنه بمقارنة بسيطة لحركة التأليف والترجمة، نجد أنها بلغت ذروتها في أواخر العقد الرابع، وطيلة العقد الخامس، أخذت بعدها بالتراجع العكسي لأسباب جوهرية تتصل بالتقدم الهائل في ميدان الإعلام الإذاعي والمرئي.

ومن قبيل المصارحة، أبين أن ما دفعني إلى التحدث عن هذا الواقع هو ما لمستته خلال مشاهدة أحد برامج المسابقات على الشاشة الصغيرة، عندما عجز بعض المتسابقين عن الإجابة عن أسئلة بمنتهى البساطة، ودفعاً لعدم تكرار ذلك مستقبلاً أقترح إجراء سير لمعلومات المتسابق بشكل يتم فيه التأكد من المستوى الأدبي والثقافي والعلمي والتاريخي والسياسي... الخ.

متألقون

من منطلق المشاركة في موضوع التذكير ببعض جهابذة العلم والمعرفة، سأذكر لمحات
عمن تألق منهم في مجالات “الطب - الإلكترونيات - الموسيقى - العلوم”.

أ- عالم الطب

لويس باستور

هو عالم أحياء وكيميائي لامع، ويعتبر أحد مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب،
بحث أسباب الأمراض وطرق الوقاية منها، واكتشف أن الجراثيم المحمولة جواً هي سبب
الأمراض.

يتمتع باستور بعبقريّة فذة، فقد توصل إلى اكتشاف أمصال للوقاية من أمراض خطيرة
كالتيفوئيد، وأخرى ضد مرض الكوليرا وداء الكلب، الذي جعل لهذه الاكتشافات الطبية
أثراً كبيراً في انخفاض معدل الوفيات.

كما أنه حقق اكتشافاً عظيماً في عالم الكيمياء، حول تناسق الجزيئات في المادة،
وعلاقته بانعكاس الضوء.

روبرت كوخ

من أشهر العلماء الذين كرسوا حياتهم للبحث العلمي وبذل جهوداً جبارة خاصة في
اكتشاف الميكروبات والجراثيم والأوبئة، وأثبت منذ حوالي مئة عام بأن الأمراض المعدية التي
تفتك بالشعوب، تنشأ من عضويات حية مجهرية، تسبب للإنسان عدداً من الأمراض
الفتاكة مثل: الدفتيريا والكوليرا والجمرة الخبيثة ومرض السل.

ب- عالم الإلكترونيات

توماس أديسون

برع في عالم الاختراعات؛ فاخترع عدداً من الأجهزة الإلكترونية، كان لها أثر كبير على البشرية في جميع أنحاء المعمورة، وله الفضل الأكبر في الاختراعات المتعددة، التي أسهمت في وسائل الاتصال الجماهيري في حقل الاتصالات على وجه الخصوص، شملت عدداً من الاختراعات الهامة؛ كمسجل الاقتراع الآلي، والبطارية الكهربائية للسيارة، والطاقة الكهربائية، وسجل الموسيقى والصور المتحركة، والتلغراف والفونوغراف والمصباح الكهربائي المتوهج، وجهاز أخذ الصور الشعاعية.

ويعتبر أديسون أول مخترع للمصباح الكهربائي، والمحرك الأساسي في تطوير البنية التحتية اللازمة للطاقة الكهربائية، وقدم أول نظام موحد لتوزيع الطاقة الكهربائية بنظام التيار المستمر.

ومن أقوال هذا المخترع العظيم في التاريخ التي عبّر عنها في معرض إظهار فرحته العارمة بالكهرباء: “سنجعل الكهرباء رخيصة جداً، بحيث يكون الأثرياء وحدهم من سيضيئون بالشموع.”

الكسندر غراهام بل

مخترع أمريكي بريطاني، أهدى العالم اختراعاً من أهم الاختراعات التي أفادت البشرية، وهو اختراع الهاتف.

أثار هذا الاختراع العظيم ضجة كبيرة على الصعيد الدولي؛ لأنه حقق حلم البشرية بالتواصل عن بعد.

باختراع الهاتف دخل العالم في مرحلة من أهم مراحل التقدم الحضاري، وكان له تأثير كبير في توفير الجهد وتسهيل التواصل بين البشر.

ويعتبر الهاتف أول جهاز يستخدم لنقل الصوت بشكل فوري بين مكانين متصلين

بخط هاتف، وفي كل مكان فيها يوجد هاتف.

وقد انتشر الهاتف في جميع أنحاء العالم وهياً للإنسان الراحة، ووفر الوقت لإنجاز المعاملات بسرعة مذهلة، وفتح مجالات كثيرة للرقى والحضارة. ولم يكتف هذا العالم العظيم باختراع الهاتف فقط، بل أهدى العالم كثيراً من الاختراعات في مجالات مختلفة لخدمة البشرية، تمثلت باختراع الفونوفون بالسترات المساعدة للتنفس - جهاز قياس السمع - جهاز تحديد الجبال الجليدية - اختراع المركبات الهوائية والطائرات المائية - أجهزة تعليم الكلام للصم - جهاز كشف المعادن في الجسم... وغيرها من الأبحاث الطبية.

وأمام عظمة هذا العالم واختراعاته فقد توقفت أجراس التلفون في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية دقيقة صمت تحية للرجل الذي شغله اهتمام التواصل بالهاتف.

ج - عالم الموسيقى

يوهان اسباسيان باخ

يعتبر من أهم عباقرة الموسيقى في التاريخ ومن أعظم العازفين الموهوبين على جميع الآلات الموسيقية وخاصة الكمان الذي تعلمه من والده.

كان ذا عبقرية فذة في التأليف الموسيقي وبرع في جميع أنواع الصيغ الموسيقية بإنتاج غزير متنوع، أبدع في مجال الموسيقى الكنسية، حيث كان يؤلف لكل مناسبة قطعة، ولكل قداس في يوم الأحد قطعة جديدة، يعزفها صحبة فرقته الموسيقية والكورال.

قدّم باخ صورة جديدة عن المايسترو، وكان يستدل بموسيقاه عن حالته النفسية، إما شعوره بالحزن أو الرضا أو الغضب؛ عبر تصاعد نواته.

وأشهر ما قاله قبل الموت: "تعال أيها الموت الحلو... تعال أيها الموت الرحيم... تعال أيها الموت مصدر الراحة الأبدية... تعال إليّ، إن حياتي تعبت من هموم الدنيا".

أمير البزق محمد عبدالكريم

من أكبر الفنانين السوريين، وأمهر عازفي العود والبزق، حتى لقب بأمير البزق، وأمام عبقريته وعلمه الموسيقي، وتجربته الفنية العريقة، تتضاءل تجارب الآخرين؛ لذا أصبح أكبر خبير في عالم المقامات، الدقيق الذي يعجز عن سير أغواره كبار الموسيقيين والمؤلف في ضروبه المختلفة وألوانه.

أصيب وهو في الرابعة عشرة من عمره إصابة بالغة في ظهره إثر حادث تصادم عنيف، فاحدودب ظهره، ولم ينجح الطب في شفائه منها.

اهتم بالعزف على البزق حتى غدا عازفاً لا يجارى، تنقل ما بين حمص وحلب ودمشق؛ فأذهلها بعزفه؛ فانحنت له صاغرة بعبقريته، وأطلقت عليه لقب “أمير البزق” ليغلب حتى على اسمه.

سافر إلى مصر فالتقى فيها بأهل الفن والأدب الذين انبهروا أمام مهارته في العزف على البزق والعود، وحتى قيل: إنه إذا عزف استكان المكان من ارتجالاته المبهرة، واعتري الإعجاب والذهول جميع الحاضرين.

نصحه أصدقاؤه بالسفر إلى أوروبا للمعالجة، ولعرض فنه على شعوبها؛ فزار ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وأقام فيها عدداً من الحفلات، أثار عزفه المبهر وراءه عاصفة قوية من الإعجاب.

عاد إلى دمشق؛ فزار في طريقه القدس، وساهم بفته في افتتاح إذاعتها، ثم شعر بالحنين إلى دمشق، وعاد إليها ليستأنف نشاطه في الإذاعة، وفي مجال تلحين الموسيقى، والتأليف الموسيقي في كل المقامات.

وأمام إنجازاته الموسيقية اعتبر كواحد من المجددين، لم يلجأ إليه إلا بعد حفظ التراث الذي نادى به لأنه كان يقول: “التجديد ينبع من التراث وكل تجديد لا يأتي من التراث مصيره إلى الزوال”.

رحل محمد عبدالكريم تاركاً تراثاً ضخماً من الروائع الموسيقية التي تشهد له بالنبوغ

والتجديد، وغاب عن الدنيا وغابت عنا معزوفاته المبهرة التي انبعثت من أنامله، وخلاصة القول: إن محمد عبدالكريم عبقرية موسيقية قلّ أن يوجد التاريخ بمثلهما.

د- عالم العلوم

ألبرت آينشتاين

وضع آينشتاين نظرية النسبية الخاصة التي تكلمت عن الزمان والمكان والكتلة والطاقة، وكانت اللبنة الأولى لفيزياء النظرية الحديثة.

كما كان أهم إنجازاته اكتشاف موجات الجاذبية التي لا يمكن مشاهدتها، ويستدل عليها من آثارها التي تظهر أكثر ما تظهر عندما تتحرك الأجرام الهائلة بقوة في الفضاء. وأمام عبقريته وإنجازاته الخارقة نال لقب: "أبو النسبية" وحاز على جائزة نوبل، ومن واقع الحال فإن معظم الأعمال التي أنجزها كانت معقدة إلى حدود لا تتسم بالبساطة على الإطلاق.

ومما قاله: "الخيال أهم من العلم؛ لأن العلم محدود، فيما يمتد الخيال ليشمل العالم".

ابن سينا

عالم وفيلسوف وطبيب وشاعر، ولقب بالشيخ الرئيس والمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، كما عرف بأمير الأطباء وأرسطو الإسلام، وكان سابقاً لعصره في مجالات فكرية عديدة، ولم يصرفه انشغاله بالعلم عن المشاركة في الحياة العامة، فقد تعايش مع مشكلات مجتمعه، وتفاعل مع ما يموج به من اتجاهات فكرية، وأسهم في بناء نهضة علمية وحضارة زاهية.

أجرى ابن سينا دراسات معمقة في الطب والعلوم والفلسفة، توصل فيها نتيجة أبحاثه إلى نتائج مذهلة أبحرت العقول، وقدم آراء جديدة في جميع المجالات العلمية المختلفة: "العلوم الفلكية - علم الأحياء - علم طبقات الأرض - الزلازل - السحب - النباتات الطبية"

وأبدى ملاحظات هامة في المجالات الطبية الدقيقة حول الاضطرابات العصبية، وأثر العوامل النفسية والعقلية كالخوف والحزن والقلق والفرح على الجسم، وحدد وظائفها ليصار إلى معرفة الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي".

أما أهم إنجازاته في المجال الطبي فكان: "فنون علم الجراحة - طرق إيقاف النزيف - التهاب السحايا - السكتة الدماغية - طرق العدوى"، وقام بإجراء عمليات جراحية دقيقة أهمها استئصال الأورام الخبيثة.

وقد اتهم بالإلحاد والزندقة، ورد عليها بقوله: "إيماني بالله لا يتزعزع، فلو كنت كافراً فليس هناك مسلم حقيقي واحد على وجه الأرض".

ابن رشد (الأندلس)

فيلسوف وطبيب وفقه وقاضي وفلكي وفيزيائي، وكان يتمتع بملكة عقلية باهرة، ومن أفكاره أنه يرى لا تعارض بين الدين والفلسفة، وآمن بسرمدية الكون، وأعطى تفسيرات حقيقية عنه، واكتشف ما لم يكتشفه الفلكيون الأوائل؛ بتقديم وصف للقمر، وعرض التفسيرات الأولية القريبة علمياً لأشكال البقع الشمسية، وأكد على اتفاهه مع العالم أفلاطون للفضائل الأساسية الأربعة وهي: "الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة".

برع ابن رشد في علم الطب وقدم أبحاثاً هامة في علم التشريح، وآلية الدورة الدموية عند الإنسان ووظيفة شبكية العين، وهو صاحب القول الشهير: "إنه من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً بالله تعالى".

كما كانت له إنجازات ضخمة في علم الفلك وعلم الحيوان والطبيعات، والمنطق وعلم النفس والفقه والفلسفة.

ومما كان يملكه من مواهب مذهلة ترك للإنسانية مآثر استفادت منها بلاد الغرب التي تنعم من أبحاثه القيمة بحضارة زاوية.

وأمام عبقرية هذا العالم ودوره الهام الذي قدمه خلال إنجازاته قال فيه جورج سايكون

أبو تاريخ العلوم ما يلي: "ترجع عظمة ابن رشد إلى الضجة الهائلة التي أحدثها في عقول الرجال لعدة قرون، تعد بمثابة مرحلة انتقالية بين الأساليب القديمة والحديثة".

البيروني

كان رحالة وفيلسوفاً وجغرافياً وبيولوجياً ورياضياً وصيدلياً ومؤرخاً، وصف بأنه من أعظم العقول التي عرفتھا الثقافة الإسلامية، وهو أول من قال بأن الأرض تدور حول محورها. خط البيروني كتباً تزيد عن المائة والعشرين وأول ما كتبه كان "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ثم نشر مؤلفاته الكبرى "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل" ومؤلفين آخرين هما "القانون المسعودي"، "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم" وأمام إنجازاته الضخمة في ميدان البحث والتأليف أطلق عليه المستشرقون تسمية "بطليموس العرب". ويعتبر ابن رشد أنه أول من أشار إلى الجاذبية، وبين بأن الأجسام تسقط على الأرض بسبب قوى الجذب المتمركزة فيها، وكان لهذه الأبحاث الهامة أثر هام فتح الآفاق لنيوتن بإعطائه معنى أكثر شمولية عن الجاذبية.

وإنه رغم اهتماماته بالعلوم التطبيقية، لم يغفل المجالات الأدبية؛ فتولى شرح ديوان أبي تمام، ومختار الأشعار والآثار.

وأهم كتبه في علم الفلسفة: "الاستيعاب في تسطيح الكرة - التعليل بإحالة الوهم في معاني التكلم - صناعة التنجيم - حقائق في معرفة الجواهر - الآثار الباقية عن القرون الخالية - الإرشاد في أحكام النجوم - الشمس الشافية".

وخلاصة القول: إن البيروني عالم موسوعي من طراز فريد، برز في جميع المجالات العلمية والطبيعية والفلسفية وكان درّة عصره في المعرفة.

مدن من العالم

تحمل كل مدينة في العالم طابعاً خاصاً يجعلها متميزة عن غيرها؛ ومن الصعوبة بمكان أن يكون هناك تشابه كلي بين جميع المدن، من ناحية: الثروة والعظمة، والفنون والتعليم، والفن المعماري والتراث الحضاري؛ لذلك فإنه يمكن من خلال التعرف عن بعض المدن إجراء مقارنة مع ما شاهده من مدن، وأخذ فكرة عن الجديد منها:

أ- مدينة لندن

هي مدينة الضباب عاصمة المملكة المتحدة تقع على نهر التايمز وهي أحد أهم مراكز أوروبا السياسية والاقتصادية والثقافية، ويوجد فيها عدد كبير من الجامعات والمعاهد والمتاحف والمسارح، كما تتخذ كثيراً من المنظمات الدولية والشركات العالمية مقراً لها. وتتميز مدينة لندن عن سواها بأن المرء يستطيع عمل أي شيء أو أن يحصل على أي خدمة يحتاجها من خلال البحث في دليل الهاتف التجاري. يزور لندن سنوياً أكثر من ١٥ مليون سائح، فهي أكبر مدينة سياحية في العالم، وهي من أكثر المدن تنوعاً بالثقافات المختلفة.

وتضم مدينة لندن عدداً كبيراً من الأماكن السياحية:

- ميدان بيكاديلي: مليء بالمسارح ودور العرض والمعارض والمتاحف والمطاعم، ومتحف صدق أو لا تصدق، والمتاجر بمعرضاتها المتنوعة.
- جسر البرج: تم بناؤه على نهر التايمز، وصمم بطريقة هندسية متقدمة بحيث يرفع الجسر ويسمح للسفن بالمرور من تحته، ويمكن للسائر على قدميه في ممشى الجسر أن يشاهد منظراً بانورامياً في غاية الروعة لمدينة لندن.
- السفينة الحربية: وهي مدمرة عملاقة أحييت للتقاعد، يمكن التجوال في أدوارها الخمسة، ورؤية جميع مرافقها من أسلحة وغرف قيادة، والمستشفى والمطبخ

وأماكن الاستراحة.

- الحي الارستقراطي: تتمركز فيه أكثر المعالم السياحية: ساعة بيع بن - عين لندن - الاكواريوم - معرض شريك - معرض الرعب.
- حديقة هايد بارك: أشهر حدائق العالم.
- ساحة الطرف الأغر: من أجمل وأكبر ساحات العالم، بنيت تخليداً لمعركة بحرية انتصرت فيه إنكلترا على فرنسا وإسبانيا في منطقة الطرف الأغر. ويوجد حول الساحة العديد من المقاهي الفخمة والمطاعم والمسارح ودور العرض.
- سيرك زيوس لندن: وهو من أروع السيركات في العالم.
- المتاحف: وهي أكبر من أن تعد: متحف العلوم ومتحف الشمع - متحف فكتوريا - متحف نماذج الشخصيات الكاريكاتورية.
- قصر باكينغهام: المقر السكني الرئيسي لملوك وملكات بريطانيا.
- حديقة الحيوان: تتميز عن غيرها من الحدائق بوجود عروض لبعض الحيوانات في أوقات معينة.

هذا غيض من فيض للأماكن التي يمكن للسائح أن يشاهدها خلال زيارته لهذه المدينة العريقة.

وأحب أن أذكر بأن لا يذهب عن البال القيام بجولات سياحية بالباص أو بالمرابك في نهر التايمز.

كانت هذه معلومات مختصرة وتشويقية عن أهم الأماكن التي قمت بزيارتها في لندن، وأترك الكلام عن بقية الأماكن كيلا أفسد متعة الاكتشاف الذاتي.

مدينة نيقوسيا

عاصمة جزيرة قبرص تقع على نهر نيدوس، وبعد الأحداث الدامية التي جرت في الجزيرة القبرصية خلال الستينات، تم تقسيم العاصمة إلى جزأين حين لجأ القبارصة الأتراك

إلى شمال الجزيرة، والقبارصة اليونانيين إلى شمالي وجنوبي الجزيرة يفصل بينهما جدار. نيقوسيا العاصمة الإدارية لمنطقة نيقوسيا، تضم مقر الحكومة وهي مدينة هامة اقتصادياً حيث تحتوي على العديد من المحلات التجارية والكثير من المطاعم ومراكز الترفيه، ومركزاً تجارياً، وتشتهر بصناعة الجلود والفخاريات والبلاستيك وغيرها من المنتجات، وتحتوي أيضاً مناجم النحاس المنتشرة في كل مكان. تملك نيقوسيا ساحلاً بحرياً يضم منتجعات ذات إطلالة مذهشة تبعث في النفس الراحة والاطمئنان وهدوء البال.

ج- مدينة مدريد

عاصمة مملكة إسبانيا وأصل تسميتها عربي “مجرى الجليد” تحول من ثم إلى مجريط، وتقع المدينة على ضفاف نهر ماتاناريس في وسط إسبانيا، وفيها مقر الحكومة الإسبانية والعائلة المالكة.

تعتبر مدريد من أهم مدن أوروبا إستراتيجياً وثقافياً واقتصادياً، ومركزاً مالياً كبيراً في شبه الجزيرة الإيبيرية.

يتواجد في المدينة البرلمان الإسباني والوزارات والمؤسسات والوكالات والمقرات الرئيسية للشركات العالمية، والجامعات والمعاهد العليا.

وهي أكبر المدن الأوروبية من حيث عدد السياح، وهي مقر المنظمة العالمية للسياحة الدولية، ويوجد فيها معرض السياحة

تمتلك مدريد بنية تحتية حديثة، وقد حافظت على طابع كثير من الأحياء والشوارع التاريخية، تشمل معالم المدينة الضخمة: “قصر مدريد الملكي - المسرح الملكي - دار الأوبرا - حديقة العصور الغابرة (بوين) - المكتبة الوطنية - متاحف الفنون - المتحف الوطني للتجارة”.

وقد شهدت العاصمة مدريد نهضة شاملة عارمة عزز موقفها الاقتصادي والثقافي والتعليمي والتكنولوجي على مستوى القارة الأوروبية.

د- الدار البيضاء (كازابلانكا)

هي أكبر مدينة في المغرب، تقع جنوب العاصمة المغربية (الرباط) على ساحل المحيط الأطلسي، وتعتبر العاصمة الاقتصادية والتجارية للمملكة، وقد حافظت على فنّها المعماري الممتزج بين القديم والحديث بمبانٍ شاهقة فخمة، مثل المركز التجاري بشركاته ومصارفه وبيوت المال، والفنادق الكبرى والحدائق العامة.

وفي الدار البيضاء تختلط المدن، حيث تحمل أجزاء من بغداد وأطرافاً من القدس، وقطعاً من القاهرة وملاصم، وحالات من دمشق إلى طابع غربي من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا. تشتهر مدينة الدار البيضاء بأنها تحتضن أكبر ميناء في المغرب، جعل منها مركزاً اقتصادياً هاماً.

وقد أعطيت المدينة مكانة روحية على الصعيد العالمي بعد تشييد بناء المعلم الكبير "مسجد الحسن الثاني" المتميز بضخامة حجم أبنيته وما يحتويه من معالم للفن المعماري المغربي الأصيل، وإلى جانبه بنيت المدرسة القرآنية للفقهاء والشريعة والحديث والتفسير والعلوم العصرية، من طبيعيات واجتماعيات ورياضيات ولغات حيّة. وتضم المدينة مواقع أثرية تاريخية قديمة تعود إلى عصور غابرة يقال عنها أنها شواهد على بداية استيطان الإنسان للمنطقة منذ حوالي مليون سنة.

هـ - مدينة أثينا

هي عاصمة اليونان وأكبر مدنها، تطل على البحر الأبيض المتوسط، وتعتبر مهد الحضارة الغربية والديمقراطية، وهي من أقدم المدن في العالم، ولا يزال تراث المدينة جلياً بفضل النُصب القديمة، والأمكنة الأثرية والمتاحف والأعمال الفنية، كما أنها إلى جانب تراثها التاريخي فهي مدينة حديثة عصرية، تضم المطاعم والمقاهي والمتاجر الفاخرة. واهتمت أثينا بفن المسرح وكان لها مسرحها في الهواء الطلق، الذي يواجه الأكروبولس وهو للآلهة فوق جبل.

تعد أثينا مركزاً اقتصادياً وتجارياً وثقافياً وسياحياً ومصرفياً، وذات نهضة عمرانية مزدهرة، ويوجد فيها عدد من الجامعات والكليات والمعاهد العليا.

وكما تقول الأسطورة الأولى فإن تسمية أثينا جاءت على اسم الآلهة أثينا، والأسطورة الثانية: إن أثينا خلقت شجرة الزيتون، وقدمتها للمدينة. والثالثة: تقول إن أثينا قدمت جياداً من زبد البحر.

وفي جميع الأحوال فإن مدينة أثينا مدينة عريقة ذات حضارة زاوية في التاريخ اليوناني.



طرائف

أمام هموم الحياة ومشاكلها لا بد للمرء أن يستمتع ويذهب عن نفسه الاكتئاب والملل، ويكون ذلك من خلال الضحك والمرح وخاصة نواذر الظرفاء.

أ- قصص جحا

تناول جحا طعام الغذاء عند أحد الأمراء، وبعد أن انتهى من التهام الطعام سأله الأمير:

- كيف وجدت طعامي يا جحا؟
- فأجابه جحا: رديماً يا مولاي؛ فاغتاظ الأمير وقال لحراسه:
- “قيئوه”. فقال جحا:
- ومن يضمن لي عشائي فضحك الأمير، وعفا عنه.

خرج جحا من المسجد فلم يجد حذاءه؛ فوقف يصرخ بأعلى صوته أمام الناس مهدداً:

- “أقسم بالله إن لم تحضروا لي حذائي سوف أفعل مثل ما فعل أبي”. فتجمع الناس حوله مندهشين وسألوه:
- “ماذا فعل أبوك”. فكرر قوله بعنف بشدة:
- “أحضروا لي حذائي وإلا سأفعل كما فعل أبي”. فخاف الناس منه وأحضروا له حذاءً جديداً؛ ثم سأله:
- “قل لنا يا جحا، ماذا فعل أبوك؟” قال: “ذهب إلى البيت حافياً”.

جلس جحا مع زوجته يتسامرون وطاب للزوجتين أن تخرجاه فسألته:

- من هي التي تحبها أكثر؟
- قال جحا: أنتما معاً حبيبتان إلى قلبي.
- قالتا: إنك لا تستطيع أن تضحك علينا، فها هي البركة أمامك، فأينا تختار لإغراقها؟

فحار جحا في أمره.. والتفت إلى زوجته الأولى قائلاً:
- أذكر أنك تتقنين فنّ السباحة منذ زمن يا عزيزتي!!.

ب- أشعب الطعام

اجتمع على أشعب يوماً غلمان من المدينة يعابثونه، وكان مزاحاً ظريفاً، وتجاوز الغلمان حدودهم بإيذائه، فأحب أن يصرفهم عنه فقال لهم: إن في دار بني فلاناً عرساً، فانطلقوا فهذا أنفع لكم واستمتعوا بشهية الطعام في الوليمة التي يقيمها، فلما مضوا فكر ملياً وقال في نفسه: عليّ صادق! فتبعهم نحو الموضع فلم يجد شيئاً، وظفر به الغلمان هناك فأذوه.

اشتهر أشعب بأنه طفيلي يجب الطعام ويتقصى أخبار الولايم ويحضرها، ويأكل منها بشراهة كبيرة، وذات يوم اصطحب معه ابنه لإحدى الولايم، وجلسا على مائدة واحدة، ولاحظ أشعب أن ابنه يكثر من شرب الماء وهو يأكل، فانتظر حتى خرجا وقال لابنه: لو جعلت مكان الماء الذي شربته طعاماً لكان خيراً لك فأجابه ابنه: إنك مخطئ يا أبي، إن شرب الماء يوسع مكاناً للطعام.. وهنا لطم أشعب ابنه وقال له: لماذا لم تخبرني بذلك قبل الآن؟ لقد ضيعت عليّ الكثير.

سئل أشعب ما بلغ من طمعك؟ قال:

- ما نظرت إلى اثنين في جنازة يتسامران إلا قدّرت أن الميت قد أوصى لي بشيء

من ماله!

- ما أدخل أحد يده في كفه إلا أظنه يعطيني شيئاً!
- بلغ حدود طمعي أني مررت برجل يحمل طبقاً من القش، فطلبت إليه أن يزيد فيه طبقاً عسى ولعل أن يهدي إليّ فيه شيء.
- أنه مر برجل يمزغ علكاً، فتبعه أكثر من ميل حتى علم أنه علكة.

ج- نواذر الجاحظ

- عرف الجاحظ بحبه للفكاهة والنوادر، وتأتي خبرته بطباع الناس وإلمامه بأخبارهم وأحاديثهم وجعلها مادة لمؤلفاته مثل البخلاء والحيوان وغيرها، وقد ضمّن في كتبه عدداً من الفكاهات والنوادر التي صادفها من أولئك الذين كان له لقاء معهم.
- ونذكر على سبيل المثال قصة الشيخ الخراساني الذي كان يأكل في بعض المواضع، إذ مر به رجل فسلم عليه، فرد الشيخ السلام. ثم قال:
 - هلم عافاك الله.
 - فتوجه الرجل نحوه، فلما رآه الشيخ مقبلاً.
 - قال له مكانك... فإن العجلة من عمل الشيطان.
 - فوقف الرجل وسأله الشيخ:
 - ماذا تريد؟
 - فأجابه: أريد أن أتغذى!
 - فرد عليه الشيخ: ولم ذاك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟
 - فرد عليه الرجل: أوليس قد دعوتني؟
 - قال الشيخ: ويحك لو ظننت أنك أحقق ما رددت عليك السلام، والأمر هنا أن أقول: "هلم. فتجيب أنت: هنيئاً، فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال، وقول بأكل؛ فهو ليس من الإنصاف بشيء".

- سأل الجاحظ وراقاً عن حاله فأجابه: بأن حالته سيئة ويرثي لها، وأن معيشتته سوداء قائمة، ولزمه الضجر والاكتئاب؛ فأسكتته الجاحظ وأجابه لقد عبرت ببلاء عن بلاء.
- جاء رجل إلى الجاحظ وقال له: أريد منك كتاب توصية لفلان! فكتب الجاحظ رسالة لصاحبه وختمها وأعطها للرجل. ومن قبيل الفضول فتح الرجل الرسالة فقرأها فإذا فيها:

"أرسل إليك هذا الكتاب من شخص لا أعرفه، فإذا ساعدته لن أشكرك، وإذا لم تساعدني لن أؤمك".

فغضب الرجل وعاد إلى الجاحظ حانقاً؛ فبادره بالقول:

- يبدو أنك قد قرأت الرسالة... هون عليك.. ما جاء في الرسالة إنما هو علامة لي إذا أردت العناية بشخص!
- فقال الرجل: لعنك الله.
- فسأله الجاحظ ما هذا؟ قال الرجل هذا علامة لي إذا أحببت أن أشكر شخصاً.

لقد أصبحنا في زمن افتقدنا للفكاهة معناها، وللمجالس قيمتها كان فيهما الزمن الجميل الذي لم تدنسه حضارة زائفة ولم يعتريه الكذب والنفاق، وبذلك افتقدنا في وقتنا الحاضر الفكاهة البريئة، وخسرنا عاملاً مهماً في الترفيه عن النفس وإدخال البهجة والسرور ونسيان هموم الحياة المضيئة.

شروق

لم تكن القفزة النوعية التي شهدتها جميع معالم الحياة في مدينة دمشق مفاجئة لأحد؛ لأن جميع الأجواء كانت مهياًة لتقبلها قبولاً حسناً؛ لأن مشاعر المواطنين على اختلاف أطيافهم كانت تتوق إلى اللحظة التي تنقلب فيها الصورة رأساً على عقب، وتدخل إلى مرحلة جديدة تحمل طابعاً متجدداً لجميع نواحي الحياة.

ومن المؤكد أنه كان للعفوية دور كبير في تبدل الأفكار، وخلق الشعور العام بضرورة التحلل التدريجي من طوق العادات والتقاليد البالية التي نقلت بالتوارث عبر الأجيال، تمثلت في مظاهر بسيطة، كان لها تأثير كبير في النفوس تجلت في:

- الزهات الأسبوعية للحدائق العامة خلقت جواً من التعارف بين سكان الأحياء، وتوطيد أواصر الصداقة السطحية التي تقتصر على تبادل الرأي حول أساليب الحياة والمعاناة التي يصادفونها.
- التسوق الذي كان يدعو إلى زيارة الأسواق المختلفة في الأحياء، والتعرف عن كنب على أسلوب حياة العيش المشترك.
- نمو أفق المعرفة والخبرة من خلال الزيارات الودية بين العائلات.
- التسابق بين الأحياء لاحتلال الموقع المتميز بين الأحياء الأخرى، من حيث إدخال تبدلات جذرية في أساليب التعامل.
- التحرر من التزمّت الأعمى، والسماح لأفراد العائلة بممارسة الهواية التي يتوقون إليها، مما يسمح بتبادل الأفكار وتحقيق التطلعات المستقبلية.
- دور التوجيه الديني والثقافي والاجتماعي؛ لخلق جو الألفة والمحبة، ونبذ فكرة التفرقة والتباعد والدعوة إلى التآخي.
- انتشار ظاهرة ارتداء الملابس العصرية وتبدل شكله جذرياً للقضاء على فكرة التمسك باللباس الشعبي التقليدي الخاص بكل حي.
- الدور الذي لعبته الجامعات والمعاهد والمدارس في خلق جيل متحرر من رواسب

الماضي، عن طريق نشر العلوم والمعرفة وتنمية الثقافة الذاتية.

● الدور الهام الذي حققه الترام (الحافلات الكهربائية) في إتاحة الفرصة من التنقل من حي إلى حي بمنتهى البساطة، الأمر الذي ساعد أفراد العائلة على مختلف فئاتهم من الاطلاع على طبيعة الحياة وحركة الأسواق وأسلوب التعامل، مما شجع على اقتباس كل مفيد ومتطور.

● كان معرض دمشق الدولي عام ١٩٥٤ شعلة مضيئة في تاريخ مدينة دمشق حيث مع بوادر انطلاق الفعاليات الاقتصادية والتجارية والفنية والثقافية وجميع الإجراءات الفعالة التي تضفي على المدينة رونقاً مبهراً، يجعلها قبلة للناظرين.

● وأول عمل قامت به الأحياء هو جعلها لؤلؤة متألئة تزهو بحلة زاهية من باكورة الصباح حتى ما بعد منتصف الليل وكان ذلك منصباً على قطاعات مدينة دمشق القديمة والحديثة، حيث تركز كل منها على ما تتميز به مما يدعو إلى الزهو والافتخار.

وفي الحقيقة إن الخطوات التنفيذية لإدخال التطور الجذري في جميع الأحياء في آن واحد، بدأت الخطى دون انتظار الدراسات لتنفيذ التصورات التي استقاهها أصحاب الفعاليات من الصورة المبهرة التي كانت في وسط المدينة التي لا تنام.

وكانت هذه الفكرة صائبة، وأتت أكلها فجاءت أوجه النشاطات المختلفة بالصورة المتميزة التي تتحلى بها ويدركها أهل الحي جيداً، عملاً بالمثل المأثور: “أهل مكة أدرى بشعابها”.

ومن المؤكد أن جميع الأحياء في المدينة قد تقيدت بهذا الشكل من حيث إظهار الأمكنة التي تشد الزائر إليها من: “مواقع أثرية - جوامع - كنائس - معاهد ثقافية - دور اللهو - المطاعم - المقاهي”، واختلقت في المضمون من حيث إظهار الأنشطة المتميزة التي تتصف بها.

بدأت بوادر التطور الفعلي بشكل كامل على نحو تدريجي، كان أولاً في شارعي

القصاص وباب توما في شرق المدينة، وساحة فكتوريا وشارع بور سعيد وشارع الصالحية والشهداء والجسر الأبيض، وثانياً من ساحة باب الجابية - شارع الدرويشية وحتى شارع السنجدار نحو الجنوب، ومن ثم ساحة باب مصلى حتى مدخل حي الميدان الجزماتية والبوابة، ومن الشوارع الفرعية المتصلة بتلك الشوارع كان التطور متكاملًا بشموله حي الشاغور وحي الأمين ومئذنة الشحم والعمارة والقيمرية والمهاجرين والصالحية، وقد التقت جميعها من حيث التخلص من التأخر والجهل وبالتالي التعاون معاً على زيادة أواصر التواصل الاجتماعي.

لقد تبارت الأحياء فيما بينها لتظهر في أبهى مظاهرها من الروعة والجمال وسبقتها الأحاديث بما ستقدمه من مفاجآت، خاصة لكل منها لتستقطب الزوار والمشاهدين تخرج عن إطار الخدمات والأطعمة التي كانت إلى حد ما متشابهة، وحصرها في مجالات أخرى تتميز بها دون سواها مما يجعلها محط الأنظار.

ولكن لوحظ أن معدل زيارات أهل الأحياء لبعضها للتعرف عن كئيب على جميع أنشطتها قد بلغ درجة عالية من الارتفاع، لم يكن لها مثيل في الماضي، حيث تناول أمكنة لم يكن من المتوقع أن تكون موضع الاهتمام، وظهر ذلك جلياً في ارتياد المقاهي والمطاعم، بنفس الوقت الذي كان يعتقد فيه الكثيرون بأن الأمر سيقصر على المسارح ودور السينما وأمكنة اللهو والتسلية، وقد انطبق على هذه الحالة المثل المأثور: "زقار الحي لا يطرب".

إن مقارنة بسيطة بين طبيعة الحياة بين الماضي وما آلت إليه بشكل مذهل، يتبادر إلى ذهنه أن عصاً سحرية لعبت دورها في التبدل الجذري لواقعها، حيث كانت عالماً مغلقاً، وانقلبت رأساً على عقب إلى عالم منفتح يسير بخطوات متسارعة نحو التطور والنمو في جميع المجالات، ولا سيما الاجتماعية منها والإنسانية، وقد انعكس هذا الوضع على نفسية المواطن، حيث تحرر من جميع القيود البالية، واتجه نحو الحرية التي ينعم من خلالها بالسعادة والهناء، ويقبل على الحياة بتفاؤل كبير نحو مستقبل مشرق.

وقبل أن أختتم هذا الموضوع لا بد من التطرق لظواهر عكست جلاء الكبت النفسي

الذي كانت تعاني منه جميع فئات المواطنين، تجلى ذلك أنه مع قرب غروب الشمس تدب الحركة والنشاط في الشوارع الرئيسية بالمواطنين وتراهم فرادى أو جماعات يسيرون مشياً على الأقدام، أحصرها فقط بالشارع الذي يمتد من الجسر الأبيض حتى ساحة الشهداء، على الأرصفة المحاذية لحافلات الترام، بخطيه الصاعد إلى الصاحية والمهاجرين، والنازل منهما إلى المرجة في وسط المدينة.

تبدو لك لأول وهلة الأنوار المتألقة من المحلات التجارية التي تزهو بمعرضاتها المتنوعة من جميع الأصناف والأنواع على نحو يخلق الرغبة لدى النساء بالشراء، وبمحلات أخرى لبيع السندويش بأنواعه المختلفة (مشتقات الحليب - الشاورما - الفلافل - اللحوم المبردة بأنواعها... الخ) حتى ساحة عرنوس، حيث تنتشر محلات متنوعة: الحمصاني (القول - المسبحة - الفتات بالزيت أو السمنة) البوظة بأنواعها: (الحليب أو المشكل) والكاتو على اختلافه، والمرطبات (عصير الفواكه) ومن هذا السوق المصغر يمكن للمرء أن يجد ضالته دون عناء.

تبدأ أرتال الزوار ذكوراً وإناثاً، كباراً وصغاراً، بالسير صعوداً أو نزولاً بعضهم للتسوق والبعض الآخر لممارسة رياضة المشي، وآخرون للراحة وللتخلص من عناء العمل اليومي، وفي جميع الأحوال يكون المشوار متنفساً من هموم الحياة.

وهناك فئة من المواطنين تأخذ الترام وسيلة لتمضية الوقت ركوباً في الصعود والنزول ويقتصر هدفها على الاستمتاع بالمشاهد الحلوة.

وفي نهاية الجولة في مدخل ساحة الشهداء، تبدأ الجموع بالتوزع ما بين ارتياد المسرح أو السينما أو المقاهي أو الأندية الثقافية والموسيقية والرياضية في حين من يمتلكه الجوع ينشد محلات بيع السندويش المشهورة بائع الشاورما "أبو العبد" وفطيرة العم بريمو (ماريا) أو ينشد الراحة في أحد المقاهي "الروضة - الفاروق - الرشيد".

وفي ضوء التبدل الجذري لطبيعة الحياة في مدينة دمشق على نحو متسارع يدعو إلى الدهشة أقول: سبحان مغير الأحوال، حيث إن تعطش أبنائها للتخلص من روااسب الماضي

جعل منها المدينة التي لا تنام.

إنه من الصعوبة بمكان أن يتم الحديث بتفصيل عن الوضع في جميع أحياء المدينة القديمة منها، والجديدة التي شيّدت نتيجة التوسع العمراني خلال العقدين الرابع والخامس. ولكن يمكن القول بأن التشابه الكبير في جميع الأحياء وبين ما جاء وصفه كان مماثلاً، أما بالنسبة لحي باب توما والقصاع كان طبق الأصل عما هو في حي الشهداء والجسر الأبيض.

أما الأحياء الأخرى في القيمرية والعمارة وباب الجابية والميدان والشاغور، ومئذنة الشحم والأمين؛ فكان لها روادها من المواطنين بعضهم لزيارة الأضرحة والمقامات ودور العبادة والبعض الآخر ليتلذذ بوجبة متميزة بأحد مطاعمها أو شراء الحلويات أو المرطبات التي تشتهر بها، وتبقى أسواقها تتلألأ بالأنوار إلى ما بعد منتصف الليل.

ولا بد هنا من التذكير أن مدينة دمشق كانت في جميع المراحل تنعم بالأمن والأمان والاستقرار، وأن المحنة التي تعاني منها سحابة صيف سوف تنقشع. وأدعو الله أن يصرفها ونستعيد ما تحمله من شمائل جعلتها مضرب الأمثال.

حياة فنانيين

عبداللطيف فتحي

فنان كبير متجدد ولد في دمشق، فهو ممثل ومؤلف ومخرج لن يخلفه الدهر، إنه ثاني فنان احترف الفن في سورية، بدأ نشاطه الفني صغيراً رغم معارضة أهله، شارك في أنشطة النوادي الفنية سراً، وفي منتصف الثلاثينات انتقل من الهواية إلى الاحتراف، وأخذ يعمل مع الفرق المسرحية.

اشتهر بأدوار كشكش بك، والبربري عثمان السفرجي، وعرف بفصوله الضاحكة اقتبسها من الفنان التركي أرطغرل بك.

برع عبداللطيف فتحي في تقديم المنولوج، وظهرت مواهبه في تصميم الرقصات وتلحين الأغاني.

أسس فرقة مسرحية باسمه واستطاع من خلالها أن يقدم مسرحياته باللهجة الشامية، ونشر تقليد إطلاق نداء "يا ساتر" قبل بدء كل عرض على خشبة المسرح، وظل يعرض مسرحياته الغنائية الاجتماعية الكوميديّة على مسرح النصر بدمشق قرب سوق الحميدية، وأهم مسرحياته: "أبو العز طبخ رز - ليلة بالنظارة - شبيه الملك - ممنوع الدين - صابر أفندي".

شارك في نشاطات المسرح الحر كممثل ومؤلف ومخرج، حيث قدم عروضاً مسرحية متكاملة بدلاً من سهرات المنوعات أهمها مسرحية "المقلوب - وصية المرحوم".

مع بدايات التلفزيون السوري كانت له مشاركات تركت بصمات لا تمحى مثل شخصية بدري أبو كلبشة في مسلسل صح النوم، أما شهرته الأوسع فقد نالها في مسلسلات: "حمام الهنا - مقالب غوار - الدولار...". أما المسلسل الذي كان له نقلة حقيقية ومفصلاً هاماً في مسيرته فهو مسلسل "انتقام الزباء" حيث قدم فيه براءة فريدة في شخصية وزير الملكة الذي جدد أنفه لأمر ما. ومن أفلامه "العالم سنة ٢٠٠٠ -

الخاطئون”.

عرف عبداللطيف فتحى بفنان الشعب الضاحك الساحر، صاحب الأنف الذي لا يخطئ، رسم هذا الفنان الكبير البسمة على الوجوه، ورحل بهدوء بعد أن أدى أدواراً مميزة إلى جانب عمالقة الفن السوري الفنانين دريد لحام ونهاد قلعي.

لقد رحل عبداللطيف فتحى وسيبقى علماً من أعلام عمالقة أهل الفن في ذاكرة الأيام.

محمد فهد كعيكاتي “أبو فهمي”

فنان ممثل سوري ولد بدمشق، بدأت مواهبه الفنية بالافتح في بداية الثلاثينات، بدأ حياته بوظيفة عامل فني في مؤسسة الكهرباء، واستلم أمانة مكتبتها وأشرف على النشاط الفني والاجتماعي فيها.

بدأت انطلاقة الفنيه عندما تأسس نادي الفرقة الموسيقية للتمثيل والموسيقى التي قدمت تمثيلات توجيهية في الإذاعة السورية، وقد ولدت شخصية “أبو فهمي”، من خلال مشاركاته في إحدى التمثيلات بموضوع الوعي الصحي، ثم تطورت بعدها في التمثيلات الإذاعية إلى شخصية “الثرثار”، تجسدت هذه الشخصية في ظهور التلفزيون إلى شخصية “القنباز والطربوش”.

عمل في مسرح الشوك، وقدم مونولوجات غنائية أهمها مونولوج “أبو فهمي غنينا غنية”.

توفي أبو فهمي إثر نوبة قلبية وهو يمثل دور القاضي في مسلسل “الوحش والمصباح”.

سعد الدين بقدونس

فنان ممثل سوري ولد بدمشق لقب بشيخ الفنانين السوريين، أسس فرقة مسرحية

حملت اسمه، واستمر بالعمل المسرحي ستين عاماً، أسس مع عدد من الفنانين حركة مسرحية ناهضة، ومن أهم أعماله التمثيلية: “جذور الحب - الحب الكبير - العطر الأخضر - الأيدي الناعمة - طيب رغم أنفه” ومن أفلامه: “نور الظلام - المخدوعون - السيدة - نجوم النهار - الليل - الانتقام - الابتسامة - امرأة لا تبيع الحب”، ومن مسلسلاته: “يوميات أبو صالح - يوميات مدير عام - خبز وملح - كان يا مكان”.

توفي وقد ترك بصمة في عالم الفن الكوميدي المسرحي، وستظل ذكراه ماثلة كلما ظهرت صورته من خلال ما تركه من تراث مسرحي.

طرائف

صادفتني خلال رحلاتي إلى بعض المدن الأوروبية مفاجآت عابرة لم يكن في الحسبان التفكير بها وهي ذات دلالة ومعزى تعبر عن روح المرح التي تتحلّى بها الشعوب أو سرعة البديهة أو الدعابة.

أبدأ بعدد منها صادفته في باريس:

بعد وصولي مطار باريس عثرت على عربة حمل حقيبة السفر فصادفتني امرأة التمسّت أن أسمح لها بوضع حقيبتها إلى جانب حقيبتى، وهكذا ما كان، فسألته هل لديك شيء يستوجب التصريح عنه؟ فأجابت بالنفي، فهممت بالمرور من مخرج الذين لا يخضعون للتفتيش الجمركي، وهنا اقترب مني عنصران وسألاني هل هذه الحقائب خاصتك فأشرت إلى حقائب السيدة التي طلبت المساعدة واستفسرا عما إذا كان هناك معرفة معها فرددت قطعاً لا، وهنا طلب أحدهما الحمال الذي بجانبه أن يحضر حقيبتها.

وبعد أن تأكد من صحة الواقعة حيث كانا يراقبان الصلاة قدّم إليّ النصيحة بأن لا أفع فريسة الظواهر البريئة؛ لأن ليس كل ما يلمع ذهباً، فشكرته ومضيت في طريقي وأنا

أقول في نفسي لن أعود لمثلها أبداً.

بينما كنا نتجول في صالات البيع في محلات لافاييت الباريزية الشهيرة، رأيت وصديقي إحدى عارضات البيع وهي ترتب باروكات الشعر المستعار؛ فسألته: هل هناك ما يلبي حاجة الذي أمامك - وكان أصلاً - فأجابت بكل تأكيد: نعم، وأحضرت باروكة بلون شعر يلائم بشرته ووضعتها على رأسه، وقالت له: انظر إلى نفسك في المرآة فقد عدت عشر سنوات إلى الوراء، وسوف يقتتلن الجميلات للفوز بك.

دخلنا إحدى المكتبات وطلب زميلي قرطاسية كاملة ودفتر للرسائل ومغلفات لها، ثم تذكر أنه بحاجة إلى زجاجة حبر أزرق لقلمه؛ فأعطته محبرة من ماركة "واترمان" فردها قائلاً: أريدها من ماركة حبر "باركر" فأجابه بأنهما متماثلان وليس بينهما أي فرق في الجودة أو النوع، فرد عليها: إنني معتاد على استعمال حبر الباركر، ولا يمكنني أبداً أن أغيرها، فأجابه بمكر: هل هي زوجتك حتى لا تستطيع تبديلها؟ كان الله بعونك.

في إحدى الصيدليات دخلت لشراء مجموعة من الأدوية لمكافحة الإنفلوانزا ونزلات البرد؛ فأخبرني زميلي أنه يعاني من احتقان في البلعوم وضعف بالمقاومة فطلبت إلى الصيدلانية أن تعطيه حبوباً من نوع الفوار وتحاميل كان قد وصفها لي طبيب في الأسبوع الفائت؛ فسألها زميلي عن التحاميل هل تؤخذ قبل أو بعد الأكل؛ فأجابه بقهقهة عالية: هذه تؤخذ في المؤخرة.

مواقف مشرفة

من خلال مطالعاتي المستمرة مرت عليّ حوادث مشرفة تدل على المواقف التي تنبع من القيم والأصالة، وقد توارد إلى ذاكرتي عدد منها:

عندما حرر القائد العربي صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس من احتلال الفرنج، احتار القادة وتساءلوا عن مصيرهم المجهول؛ فتطوع أحد القادة الكبار بالاجتماع مع البطل صلاح الدين والاستفسار منه عن نواياه، ولما سأله عما ينتظرهم من مصير توجه إليه صلاح الدين: ماذا تظن أنني فاعل بكم؟ قال قائد الإفرنج: سنقابل بنفس الهمجية الشرسة التي قابلنا بها العرب عند اقتحام القدس؛ بالقتل والذبح والسي ونهب الأموال وتشريد السكان دون أي رحمة.

ولما استل صلاح الدين سيفه ارتعد الإفرنجي خوفاً ظاناً أنه يريد قتله؛ فأجابه صلاح الدين بأعلى صوته: نحن قوم تأبى أخلاقنا وشيئنا الانتقام عند المقدرة، فأنتم أحرار وحسابكم عند الله.



وجه المندوب السامي الفرنسي إلى رئيس المجلس النيابي سعد الله الجابري عام ١٩٤٥ بطلب منه أن تقوم حامية البرلمان بتحية العلم الفرنسي عند إنزاله مساء عن دار الأركان الفرنسية المواجهة لمبنى المجلس النيابي؛ فرفض رئيس المجلس الإنذار، وبيّن له بأن السيادة الوطنية السورية تفرض علينا ألا يمسه أحد بسوء.

تلقى المندوب الفرنسي الرفض بجنون هستيري تجلّى بقصف البرلمان بالطائرات والمدافع، واستشهدت حامية البرلمان دفاعاً عنه وانضمت إلى كوكبة الشهداء.

وبهذا الموقف المشرف كرس السوريون معالم سامية أبرزها أن الوطن هو الأعلى والأعلى في كل المواقف.

طلب المندوب السامي البريطاني إلى الزعيم المصري سعد زغلول أن ينحني إجلالاً واحتراماً إلى ملك بريطانيا عندما يقابله، خلال ترأسه الوفد المصري في المباحثات، للمطالبة بالاستقلال وتحرير مصر من الاحتلال الغاشم. ولما قابل سعد زغلول الملك مد يده مصافحاً نداءً لند، ولم يمثل لطلب المندوب البريطاني؛ فتوجه إليه مستفسراً عن السبب فأجابه سعد: لقد حاولت ولكنني لم أستطع، حيث شعرت بقوة عشرين مليوناً من المصريين تشدني إلى الخلف، وبذلك أعطى أروع مثل في العزة والكرامة.

كان نابليون بونابرت يستعين بعدد من الجواسيس لتقصي أخبار خصومه في الحروب، وجنّد لهذه الغاية في إحدى معاركه مع النمسا أحد المسؤولين الكبار في حكومة النمسا، وبعد انتصاره وخلال حفلة الانتصار تقدم المسؤول ومد يده لمصافحة نابليون الذي تنحى عنه ذلك، وأجابه باستهزاء واحتقار "أن اليد الشريفة لا تصافح الخونة".



قصة حقيقية

تعرض أحد أطباء جراحة الجملة العصبية إلى أزمة نفسية حادة نتيجة حادثتين مأساويتين، الأولى: فقدان ابنه الوحيد بحادث سيارة أليم، والثانية: قيام زوجته بالانتحار حزناً على ولدها.

وبسبب حالة الاكتئاب الشديد والألم النفسي توقف عن ممارسة مهنة الطب التي برع فيها وأصبح من أمهر الجراحين العصبيين في عالمه الخاص.

وتحسباً من تفاقم حالته النفسية وتدهورها، عمد أخوه -رئيس البلدية في المدينة التي يقطن فيها- إلى نقله لأحد المصحات النفسية للمعالجة وإخراجه من عالم الحزن الألم.

وكان في فترات الراحة النفسية التي تبدو فيها بارقة الأمل والتفاؤل للتخلص من المعاناة يتردد من وقت إلى آخر إلى منزله ويتفقد عيادته ليتأكد من جاهزيتها لإعادة ممارسة مهنة الطب.

ومن مفارقات القدر وأنه خلال إحدى الزيارات تعرضت شابة إلى حادث سير سبب لها نزيفاً حاداً في الدماغ دفع والدها إلى نقلها إلى عيادة هذا الطبيب ومستوصفه الجراحي مستدلاً باللوحات الإعلانية التي أرشدته إلى مكانها، باعتباره أنسب للمعالجة الفورية.

عاینها الطبيب وحدد حالتها الصحية بأنها حرجة وتحتاج إلى عملية جراحية عاجلة دون أي تأخير وأبدى استعدادة لإجرائها مكانياً في العيادة خشية أن يؤدي نقلها إلى المستشفى الذي يبعد مئات الكيلومترات إلى مضاعفات تودي بحياتها.

أبدى الأب المسكين موافقته دون أن يدري بوضعه الصحي على أمل نجات ابنته. قام الطبيب وهو في أجهى حالاته النفسية بالاتصال مع فريقه الطبي لمساعدته في إجراء العملية وحضّر جميع مستلزماتها من المواد الطبية التي تتطلبها العملية.

وخلال فترة وجيزة قام الطبيب باتخاذ الإجراءات التنفيذية وتولى في الوقت نفسه بالإسعافات الضرورية الهامة.

أحيط أخوه رئيس البلدية علماً بذلك واتصل بمدير المستشفى الذي يرقد فيه الطبيب للاستشفاء، فأشار إليهم أن يتركوه يتصرف بحريته الكاملة، وأكد من خلال ما سمعه أنه في أحسن حالاته، وسيتمكن من إجراء العملية بنجاح لما يتمتع به من مهارة فائقة وطلب إليهم إقرار الواقع الذي هم فيه.

أجرى الطبيب العملية بعناية فائقة تكلفت بالنجاح، صرّح بعدها بأنه كان أمام حالة صعبة للغاية لولا العناية الإلهية التي وقفت إلى جانبه لما تمكن من تجاوزها خلال العملية وارتسمت على شفثيه ابتسامة الفرحة لإنقاذ الفتاة من براثن الموت.

بقي الطبيب ملازماً لها، يحيطها بعنايته الفائقة واهتماماته، دون أن تحدث أي مضاعفات.

وبعد فترة النقاهة- وتأكد الطبيب من تحسن حالتها الصحية وعدم وجود أية خطورة على حياتها- سمح لها بالعودة إلى منزلها سالمة غائمة.

قام والداها بتوديع الطبيب معربين عن شكرهم وامتنانهم لما قدمه لابنتهما من خدمة لا يعادلها شيء في الوجود وهي إنقاذ ابنتهم.

تقدمت الفتاة من الطبيب وعانقته والدموع تذرّف قائلة: إنك والدي الثاني الذي أدين له باستمرار حياتي.

انتشر الخبر في البلدة، فغمرها بسرور بالغ وأعربت عن ذلك بإرسال الورود والأزهار وإقامة حفل استقبال في البلدية إعراباً عن تقديرهم الكبير للعمل الذي قام به.

فما كان منه إلا أن اعتلى المنصة قائلاً لهم: إنني أعتز بكم يا عائلتي الكبيرة، وأنا في خدمتكم ما دمت حياً، وإن الامتحان القاسي الذي مررت به لن يشينني عن التفكير في أداء واجبي على أكمل وجه لكم ولكل محتاج، كما يمليه الواجب الإنساني.

عاد الطبيب إلى حياته العادية وتزوج ورزق بأبناء واحتل موقِعاً متميزاً في مجتمعه لما يتمتع به من إنسانية عارمة.

قصة حقيقية قرأتها في مجلة “المختار” في أوائل الخمسينات تواردت إلى ذاكرتي بعد

التراجع المخيف في تقديم الخدمات الإنسانية لارتباطها عند البعض بالمادة، وأشدد هنا بأن يتمثل جميع أرباب المهن بالمثل العليا، منطلقين بأن الحياة قصيرة وسعيد الحظ فيها من يجني ثمار زرعه بسمعة طيبة وراحة نفسية عارمة.

فاعل خير

حدثني صديق لي بأنه لاحظ على وجه العاملين لديه علائم الحزن والألم، فاستفسر منه عن السبب؛ فوجد أن وحيدته الذي يبلغ التاسعة من العمر تعرض لأزمة قلبية حادة كادت تؤدي بحياته، وظهر من خلال المعالجة الطبية أن أحد صمامات (دسامات) القلب ضيق، والآخر بحاجة إلى تبديل، وأن إمكانية شفائه بالعلاج مستحيلة. وبدافع إنساني بحث أشار إليه أن يصحبه لأحد الأخصائيين الجراحين بأمراض القلب لمعاينته، وتقرير حالته الصحية، وهكذا كان، واستفسر الأب عما يجب فعله؛ فأجيب بشكل قاطع أن العمل الجراحي بعملية قلب مفتوح هو السبيل لاستبدال الصمامين، وأن نفقات العملية بمحدود ٢٥٠ ألف ليرة سورية، وأنه ريثما تتم الموافقة على إجرائها يجب أن يتناول الأدوية الوقائية والإسعافية عند اللزوم، وحدّد له منتصف الأسبوع التالي للمراجعة والبت بالموضوع.

وفي الموعد المحدد، بينما كان الأب ينتظر ومعه ابنه، جلس إلى جانبه رجل أشيب وقور يحمل حقيبة جلدية، وسأله عن الحيرة التي هو فيها؛ فأعلمه بواقع الأمر، ولا يدري ما سيفعله؛ لأنه لا يملك ثمن قوت عياله، فكيف له تأمين مثل هذا المبلغ، وأنه سيترك أمره إلى الله، وبه يستعين، ثم انهمرت الدموع من عينيه.

تنحى الرجل جانباً وتظاهر أنه يتفقد شيئاً ما في الحقيبة، ودخل الأب وابنه ومعهم الرجل الغامض الذي أمسك بيد الطبيب وتحدث معه بصوت خافت، ثم أعطاه كيساً واستأذنه بالانصراف شاكراً له جهوده القيمة، وتم ذلك بكل غموض.

عاد الطبيب وقال للأب: على بركة الله سيكون موعد إجراء العملية بعد غد وكل

شيء على ما يرام، وأعلمه بأن جميع النفقات قد دفعت من قبل الرجل.
اندهش الأب لهذا الموقف الإنساني الكبير، ولم يعرف أحد من هو الرجل المجهول
الذي كان فاعل خير، وبالعناية الإلهية تم شفاء الطفل.

جشع مادي

تم الاتفاق مع أحد الأطباء الإخصائيين في عمليات القلب المفتوح على مبلغ محدد
تم تسديد جزء منه بحدود الثلاثين، على أن يدفع باقي المبلغ يوم إجراء العملية.
استفسر الطبيب عما إذا كان قد تم تسديد المبلغ المتبقي، فأجيب أنه سيكون جاهزاً
قبل الانتهاء من العملية.

وخلال العمل الجراحي تعرض المريض إلى مضاعفات غير متوقعة أدت إلى وفاته ولم
يتكلم العمل بالنجاح.

اتصل الطبيب بالمحاسب الذي أكد له دفع جميع النفقات، عندها خرج الطبيب
وطمأن أهل المريض بأن العملية قد نجحت وحالته جيدة، وهو بالإنعاش ومضى في طريقه
خارج المستشفى.

استفسر أهل المريض عن وضعه الصحي؛ فقليل لهم العوض بسلامتكم، ووقفوا على
الحقيقة المؤلمة حيث تقدموا بشكوى بحق الطبيب وتدنيسه شرف المهنة، وأمام الحقيقة
الواضحة هرب الطبيب خارج البلاد خشية العقاب بعد أن دنس سمعته بالتراب.

ثقافة

لقد تميز عقد الخمسينات بحركة أدبية مزدهرة في انتشار وسائل المعرفة، تميزت بصدور عدد كبير من الصحف المحلية والمجلات الأدبية الأسبوعية أو الشهرية (العربي - المختار - المعرفة...)، والمؤلفات الحديثة للأدباء الناشئين، كتب الترجمة (للأدباء العرب والأجانب) والمجلات الفنية المختلفة (أخبار أهل الفن) فكان المواطن يختار ما يشاء منها للمطالعة والثقافة، أو لقتل وقت الفراغ في شيء مفيد.

كما لعبت الإذاعة دوراً كبيراً في ميدان التثقيف الذاتي من خلال برامج إذاعية متنوعة.

إن هذه الوسائل - وإن لم ترق إلى المستوى الذي بلغت فيه حداً يبهر العقول-، فقد كان لها دورها الفعال كخطوة أولى من خطوات الألف ميل.

وإن ما يدعو إلى الدهشة حقاً هو زيادة حركة التأليف والترجمة، فقد بلغت ذروتها في مصر ولبنان وسورية والعراق والكويت، وبدرجة أدنى في البلدان الأخرى.

وقد لاقت ترحاباً وشوقاً زائداً لدى بعض المواطنين، وكى لا يكون بيعها حصراً في المكتبات في حدود ضيقة انتشرت ظاهرة جديدة ببيعها على العربات المتنقلة التي كانت تقف على أرصفة الشوارع.

وأضيف بأن محلات بيع المؤلفات في المسكية الواقعة في مدخل الجامع الأموي الكبير كانت موثلاً لكل من يرغب اقتناء أي مؤلف قديم أو حديث.

ومن الأسباب الجوهرية التي كانت وراء التوجه إلى المطالعة هي رخص الأسعار التي كانت تباع بها المؤلفات، وبالتالي التخلص من العادات السائدة وقتها في تمضية الوقت الضائع في لعب الطاولة أو الورق أو الشطرنج).

ولكن من المؤلم حقاً أنها لم تتسارع في خطوات إلى الأمام، بل تراجعت إلى الخلف بسبب التقدم العلمي الهائل في ميدان نشر المعرفة عبر الوسائل الإلكترونية أولاً، وارتفاع التكلفة في ميدان التأليف والنشر.

كما ألمني جداً أنه من خلال الاستطلاعات التي تقوم بها بعض الجهات المتخصصة في إحصاء نسبة القراءة في العالم، لاحظت وللأسف الشديد أن معدل وقت القراءة في العالم العربي لا يتعدى مقدار (٦) ساعات شهرياً.

إننا نعيش في زمن اختلفت فيه الموازين فإنه رغم التقدم الثقافي والعلمي المذهل في العالم أجمع، نقرأ في بعض الكتب ونسمع من خلال البرامج الإذاعية، أو نشاهد صوراً عبر الشاشة الصغيرة عن حوادث وتصرفات يندى لها الجبين. قرأت في حينه ثلاث حوادث أعتقد جازماً أنها قد طرقت سمع كثير من القراء، وأكتفي بسرد الواقعة كما وردت في وسائل الإعلام المختلفة.

العنصرية

تأتي هذه الحادثة استمراراً في ممارسة العنصرية تجاه مختلفي لون البشرة، وتتلخص القصة بأن أحد الآباء السود أبلغ رجال الأمن عن موضوع اختفاء ابنته في ظل ظروف غامضة.

وقبل مباشرة التحقيق عمدت الشرطة إلى التأكد من سلوك الأب وحُلِّو سجله الذاتي من أي شائبة إجرامية.

أجرت أجهزة الأمن التحقيقات المعمقة، فتناولت أخلاق الفتاة في المدرسة وتصرفاتها في الحي وابتعادها كلياً عن كل شائبة.

وفي الوقت نفسه أجرت دراسة تفصيلية عن حياة الأسرة، وطبيعة عمل الأب، وعلاقاته مع زملائه في العمل، وكانت صفحة سجله بيضاء ناصعة.

لم تتمكن الأجهزة الأمنية رغم الجهود التي بذلتها من التوصل إلى أي نتيجة إيجابية، ومن قبيل المصادفة وأنه خلال تنظيف أحد المجاري عثر على جثة فتاة متعفنة أكلتها الجرذان والديدان، وبالفحص الطبي تبين أنها الفتاة موضوعة البحث، ماتت خنقاً بعد تشويه جسدها، وقد اعتدي عليها جنسياً من قبل مجموعة غير معروفة.

أخذ التحقيق منحى آخر بالتحول فيه نحو زملائها في المدرسة، وقد صح الأمر، وتبين أنه كان يصابها العداة اثنان من البيض - تأصلت العنصرية في نفوسهما - صلت حداً جعلتهم يقدمون على خنقها والاعتداء عليها والتمثيل بجثتها بأبشع صور الهمجية، وانعدام الضمير والإنسانية.

العبودية

ما زالت العبودية مجازة قانوناً في بعض البلدان المتخلفة، حيث تعتمد العائلات الثرية إلى استعباد المحتاجين وتسخيرهم وأبنائهم لخدمتها؛ حتى يأتي فرج الله بعثق المستعبد لهم. طفلان من أبناء أحد المستعبدين ضاق بهم الأمر من سوء المعاملة والتعذيب؛ ففرا من منزل مستعبدهما، وتمكنا بمساعدة إحدى الجمعيات الإنسانية في البلد من إقامة دعوى جزائية بحقه بتهمة الاستعباد والتعذيب والحرمان من التعليم، فحكمت عليه المحكمة بالسجن لتعذيب الطفلين وحرمانهما من التزود بالعلم والمعرفة، وفرضت عليه غرامة مالية. استأنف المستعبد الحكم فأطلقت المحكمة سراحه بالكفالة المادية، فما كان من مجموعة حقوق الأقليات الدولية في أفريقيا بالنيابة عن الطفلين أن أقامت دعوى على المستعبد يجرم الإيذاء والاعتداء الجسدي والنفسي، وصدر الحكم بتحريرهما وإعطائهما الحق الشخصي في تقرير مصيرهما من قبلهما بالذات؛ لتأكد المحكمة من قدرتهما على ذلك. وقد اعترفا للمحكمة أنه خلال مسيرة خدمتهما في منزل السيد كانا يتابعان بجهد شخصي تعلم القراءة والكتابة، وحررا نفسيهما من الأمية بسرية تامة عن سيدهم، وأصبحا من خلال التواصل الاجتماعي مع أقرانها في الحي وتشجيعهما من التفاؤل والتطلع بأمل لمستقبل أفضل.

وخلال مؤتمر صحفي عقب المحاكمة أعلننا رغبتنا لمدوبي الصحف والأبناء والإذاعة بأن يكون الأول قاضياً والثاني مرشداً اجتماعياً لنشر الرأفة والرحمة في القلوب لعزمهما لمتابعة التعليم حتى مراحلها النهائية.

تجارة البشر

استقلت امرأة مع طفليها ابنة عمرها ست سنوات، وطفل عمره ثلاث سنوات من مدينة بإحدى الدول الأوروبية متجهة إلى موطنها الأصلي في بلد آخر. جلست مع طفليها بإحدى المقصورات، وكان يجلس فيها امرأة ورجلان، وقبل وصول القطار إلى الموقف النهائي التمسست أم الطفلين من المرأة أن ترعى أمر ولديها خلال ذهابها إلى دورة المياه.

ولما عادت إلى المقصورة لم تجد أحداً ووجدتها خالية، فامتلكها ذعر مخيف وصرخت بأعلى صوتها أنه قد سرق أطفالها، وانهمرت الدموع من عينيها بغزارة؛ فطلب إليها رجال أمن القطار أن تتذرع بالصبر، وسيقومون بما يمليه عليهم الواجب للعثور على ولديها. تم الاتصال بجهاز اللاسلكي بمديرية أمن المحطة في الموقف النهائي التي أعطت الأوامر بإغلاق أبواب القطار وحصر خروج الركاب من مخرج واحد.

لدى وصول القطار إلى المحطة كان محاصراً بقوى الأمن التي قامت منذ تبلغها الخبر بمراقبة مسيره بطائرة مروحية للتأكد من عدم نزول أحد. طلب إلى الركاب بالنزول وكانت الأم صحبة رجال الأمن تتفرس بالوجوه للتعرف على الخاطفين، بينما صعدت قوات أخرى لتجري تفتيشاً دقيقاً في جميع مقصورات القطار الأخيرة.

وخلال عملية التدقيق وجدت المرأة ووقف خلفها أحد الخاطفين مصوباً مسدساً على رأسها، واشترطوا بأنها ستكون بأمان إذا سمح لهم بالذهاب أحراراً، وعندما يصبحان بأمان من قبضة رجال الأمن يرشدوهم إلى المكان الذي حجز فيه الطفلان، ويطلقان سراح المرأة، وأنذروهم بأنه في حال رفض مطلبهم؛ فس يقتلون المرأة، ولن يتمكن الأمن من العثور على الطفلين وسيكون مصيرهما الموت المؤكد.

وجد الأمن أن أهون الشرين هو الاستجابة إلى مطلبهما، ومن خلال خبرتهم وجدوا أنه من خلال رصد تحركاتهما بجهاز تتبع يمكن الاهتداء إلى المكان الذي سيتوجهان إليه،

وكانوا قد وضعوا أجهزة التتبع على حقائبهما، وكان لهما ما أرادا.
ولكن رجال الأمن لم يقطعوا الأمل في العثور على الطفلين وخلال التفتيش الدقيق سمعت ركلات في أمكنة حفظ الحقائب، وبذلك تم الاهتداء إليهما وأخرجوا سالمين، وسلما إلى والدتهما التي عادت إليها الحياة من جديد.
ومن قبيل عجائب القدر أنه خلال سفرهما إلى خارج المدينة تعرضت سيارة نقلهما إلى عطب في دواليب السيارة، وحال دون إمكانية متابعتها للسير ونزلا من السيارة لمراقبة السائق في تبديل الدولاب بأخر ولكنه لم يعثر على آلة رفع السيارة، وبانتظار وصول سيارة لاستعارته طلبت المرأة السماح لها بقضاء الحاجة في الغابة التي تجاور الطريق.
وبما أن رجال الأمن والشرطة كانوا يتبعون خطى السيارة ويراقبونها جواً من إحدى طائرات الهيلوكوبتر فقد حددوا مكانهما، فقام رجال المكافحة بمحاصرتهما وإلقاء القبض عليهما.
ونتيجة التحقيق تبين أنهما من أعضاء عصابة تقوم بخطف الأطفال الصغار وترسلهم إلى عائلات في مدن أخرى للتبني.



يبدو أن العقول الجهنمية لدى بعض أفراد المجتمع قد تحطت الحدود على نحو انقلب فيه الإنسان إلى وحش بشري، تجرد من عواطفه الإنسانية، وأصبح قوى الشر التي تختلج في نفسه دون أن يفكر إطلاقاً، مما يسببه من ألم وحرز للآخرين.

حقائق

كان القضاء السوري منارة يحتذى به في الخبرة والنزاهة، يقوم عليه جهابذة أهل القانون من ذوي الاختصاص العالي من أرقى الجامعات في العالم. وكان القضاة في درجات المحاكم المختلفة ينشدون إحقاق الحق، فكانت العدالة تجري في عروقهم.

وما ذكرته هو حقيقة واقعة تبرهن على صحتها مجموعات الأحكام القضائية ومجلدات الآراء والفتاوى ونشرات تفسير الأحكام القضائية التي كانت تصدر دورياً. وقد ساعد على ذلك وجود هيئة في وزارة العدل أطلق عليها اسم “إدارة التشريع” تتولى مهمة إعداد هذه المراجع الهامة.

كما وأنه لنقابة المحامين دور كبير في هذا المجال بنشر مجلة دورية باسم “مجلة القانون” تتضمن من المعلومات بما يغذي النفس. لذلك والحالة هذه كان ينبغي على كل راغب في ممارسة مهنة المحاماة أن يكون على المستوى في تحمل المسؤولية لأن الامتحان صعب.

ممارسة عملية

عمدتُ بعد أن أوكلت إليّ مهمة الإشراف على القطاع القانوني في الجهة التي كنت أعمل لديها، بإجراء دراسات معمقة للتطبيقات العملية لجميع المعلومات النظرية التي تلقيتها في كلية الحقوق؛ لأنه كان ينقصها مجال التطبيق العملي الصحيح لها. ولا أخفي سراً إذا قلت إنني بدأت من الصفر وتدرجت في توسيع آفاق معرفتي وخبرتي بهذا الميدان.

وبحمد الله وفضله فإنني نجحت بهذه المهمة، وفزت بالنجاح في الدعوى القضائية الأولى التي أقيمت على المؤسسة بصدور الحكم لصالحها، وكان ذلك عاملاً مشجعاً على متابعة الجهود من قبل جميع العاملين بهذا الحقل الهام.

ومن المؤلم حقاً أن الجهة التي نالت الشكر والامتنان هي من خارج الجهة التي أعمل فيها، ولم يخطر ببال أحد معرفة الجندي المجهول وفريقه الذي كان لهم الدور المتميز بذلك. وإحفاقاً للحق قام رئيس إدارة قضايا الدولة بزيارة لمدير المؤسسة، أعرب له عن شكره لتعاون المؤسسة في المجال القانوني، حيث إنها تولي عملية الدفاع عن حقوقها عناية فائقة، وجميع مذكرات دفعها القانونية مستكملة للشروط، مما يسهل إلى حد كبير عمل الإدارة. وكان مدير المؤسسة صادقاً مع نفسه إذ قال: سأستدعي من يجب أن يشكر، فأنا فني تركت المجال القانوني لأرباب الاختصاص وإنني أثني على كلامك وأشكره معك من كل قلبي.

فطنة

في إطار التعاون بين إدارات الاتصالات يتم التشاور فيما بينها في كثير من الأمور الفنية والقضائية التي تكون متماثلة إلى حد تقريبي للاستفادة من الخبرات. تعرضت إحدى الإدارات المجاورة لسورية إلى خلاف مع جهة متعاقدة، -ولوجود علاقة تعاون وثيقة مع إدارتنا- طلبت التشاور معاً لوضع أطر معالجة الموضوع مستفيدة من خبرتها في إحدى المسائل الخلافية المماثلة.

ونتيجة تبادل الرأي وفي ضوء المعطيات التي تم طرحها تم الاتفاق على أن يتم تأليف لجنة فنية حقوقية تتولى دراسة الموضوع من مختلف جوانبه، وإعداد مذكرة الدفع القانونية مع مؤيداتها، وتم تسليم إدارتنا جميع أولويات الموضوع لإجراء دراسة أولية تكون منطلقاً لعمل اللجنة المشتركة.

طلب إليّ رأس السلطة أن أتولى إعداد مذكرة الدعوى مدعومة بالمؤيدات العقدية والقانونية.

باشرت العمل وكان يلاحقني باستمرار لإنجاز المهمة بأسرع وقت ممكن؛ لأنه يخشى الدعوة إلى الاجتماع في موعد قريب مفاجئ.

أعددتها وسلمتها إليه لدراستها وإبداء ما لديه من ملاحظات، ففوجئت بخبر من أحد المرؤوسين بأن المرجع الوصائي الأعلى على إدارتنا قد سمى الوفد المشارك واقترح أن يكون مستشاره الممثل القانوني في اللجنة. وقد تسبب هذا الأمر لي بصدمة ومفاجأة غير متوقعة، فتوجهت فوراً إلى مكتب رأس السلطة وطلبت إليه أن يعيد إليّ المذكرة التي أعددتها لأنني رأيت من المفيد إدخال بعض التعديلات عليها بمؤيدات جديدة قاطعة.

وبعد أن استلمتها أخذ يلح عليّ بإنجازها لأن الوقت يداهمنا، ولكني لم أمتثل فما كان منه إلا أن استفسر عن الأمر، فأجبتة ألا يتعب نفسه لأنني مزقتها وأودعتها سلة المهملات؛ فثار غضبه، وبرودة أعصاب اقترحت عليه -أن يتولى الوفد القانوني الذي تم تسميته- القيام بهذه المهمة؛ لأنني لا أسمح أن يذهب تعبي هباء، وهذه هي استقالتي، فأريد

أن أتحرق من الوظيفة وأمارس مهنة المحاماة وخرجت إلى مكتبتي وغادرت الإدارة.
وفي صباح اليوم التالي استدعاني إلى مكتبه وفاجأني بقوله: إن ردة الفعل عندك
سريعة وقوية يجب ألا تتسرع بالأمر، وسلمني كتاباً من المرجع الوصائي الأعلى بأن أكون
الممثل القانوني في اللجنة المشتركة.
وحمداً لله فإننا وفقنا في المهمة وصدر الحكم القضائي لصالح الإدارة الشقيقة.



شواهد وعيون

إن طبيعة عمل المحامي تشابه إلى حد قريب عمل الطبيب من حيث الشكل فيسعى كلاهما إلى تشخيص الداء ووصف العلاج اللازم.

يبدأ المحامي بدراسة موضوع الدعوى، ويحدد أبعادها المختلفة، ويهيئ الدفع والمذكرات مع التركيز الهام على موضوع التكييف القانوني في ضوء المؤيدات القاطعة. وإنه من قبيل توضيح الأمور فإنني لمست من خلال معالجة الأمور القضائية على اختلافها، بأن أسلوب الخصم يعتمد على المراوغة ومحاوله جعل كفة الميزان راجحة لمصلحته بحجة واهية تفتقر إلى المؤيد القانوني.

وعلى سبيل المثال لا الحصر أبين:

١- عندما يرغب أحد المتعاقدين التحلل من تنفيذ الالتزام يلجأ إلى التمسك باستحالته بسبب القوة القاهرة أو الحوادث المفاجئة وسواها، وفي الحقيقة تكون ذريعة واهية لتكون منفذاً للخروج من الوفاء بالتزامه دون أي تعويض عادل.

٢- خلال فترة الضمان لا يتحمل المتعهد أي مسؤولية عن الأضرار الناشئة عن التشغيل التجريبي، بينما يكون مسؤولاً عن الأعطال الكبيرة المفاجئة لعيوب في الصنع أو التركيب، وهنا يحاول التنصل وإلقاء المسؤولية على الجهة المشغلة ليتفادى عملية الإصلاح وتبديل القطع مجاناً.

٣- حين يشعر المتعهد بأنه لن يتمكن من توريد مواد التعهد في الأوقات المحددة عقدياً، يبدأ عملية المراوغة بتوجيه كتاب للإدارة لتحديد الأمكنة التي ستوضع بها المواد قبل البدء بالتركيب ويتعمد الحصول على مستند من الإدارة بطلب التريث بعض الوقت لتجهيزها، وبذلك يتمكن من إعفائه من غرامات التأخير.

٤- استغلال المراسلات المتبادلة حول تنفيذ العقد مستنداً لدعم مطالبه غير المشروعة؛ لذلك فإنه يجب والحالة هذه إعدادها بعيدة عن الارتجال والاجتهاد، وأن تكون مؤيدة بالأحكام العقدية والقانونية.

لذلك أمام هذا الخداع المتعمد لتضليل القضاء ينبغي إيلاء الدعاوى المدنية كل دقة وعناية.

أما بالنسبة للدعاوى أمام المحاكم الجزائية والصلح والعمالية التي تتصل بشؤون العاملين وغيرها، فإنها ليست من التعقيد بمستوى الدعاوى الأخرى.

جاءتني جارتنا وهي زميلة جامعية بزيارة في منزلي وأخبرتني أنها سوف تصبح عما قريب في الشارع؛ لأن المؤجر سيحصل على حكم قضائي بالإخلاء وانهمرت الدموع من عينيها.

استفسرت منها عن الموضوع، وأعلمتني بأن المحامي قد أخبرها بذلك لئلا يكون وقع الخبر عليها أليماً، وأنه لم يصدر ما يؤيد ذلك حتى تاريخه.

طلبت إليها أن تزودني بصورة عن أوليات الدعوى القضائية ضدها ووعدها بأنني سأتولى دراستها وإذا ما عثرت على ثغرة قانونية يمكن النفاذ منها فسأقوم بإعداد المذكرة المناسبة.

وعند مطالعة المستندات وجدت إمكانية الدفع ببطان أسباب حكم الإخلاء الذي ذهبت إليه المحكمة، حيث إن المستأجر يسمح للمؤجر - بإحدى مواد العقد - بإشغال غرفة في الدار لتكون مستودعاً لأغراضه الشخصية طيلة حياته، لا يمكن انتقاله للمالك الجديد باعتباره حكماً خاصاً باتفاق الطرفين، فأعددت المذكرة، وبينت أن حكم المادة العقدية التي سوف يستند إليها للإخلاء لا تدعم السبب الجوهرى، وهو تبديل أوصاف العقار المستأجر، ولا يمكن الاستناد إليها، وهي لصالح المستأجر للأسباب التالية:

- ١- شمولية التأجير للدار بأكملها عقدياً.
- ٢- سماح الأشغال مرهون بموافقة المستأجر.
- ٣- كون المدة الزمنية للإشغال تنتهي بوفاة المالك الأصلي المؤجر لأن المنفعة شخصية خاصة به دون سواه.
- ٤- عدم وجود أي حكم عقدي يخرج الغرفة من شمولية تأجير الدار برمتها.

٥- إن قيام المستأجر بإصلاح الغرفة ليس تديلاً لأوصافها.
٦- الاستناد إلى هذه المادة العقدية في غير محله القانوني، ولا تحمل أية دليل على تبديل الأوصاف؛ لأنها اقتصر على أعمال الترميم والتدعيم.
وسلمتها إلى المستأجرة وطلبت إليها أن تتولى بنفسها باعتبارها الجهة المدعي عليها بتقديم المذكرة الجوابية قبل بدء المحاكمة، وأن تحضر الجلسات بدون انقطاع.
جاءت بعد مدة والابتسامه على شفيتها، وشكرتني بجرارة، وأعلمتني بأن المحامي استفسر منها عن الجهة التي أعدت المذكرة الجوابية، وطلبت إليّ أن أسامحها لأنها ادعت أنها من تولي إعدادها.



وخلاصة القول: إن المرء يشعر بفرحة عارمة لا تعادلها أي فرحة في الوجود عندما يجني حصاد غرسه، وتكون عنصراً مشجعاً له لتقديم المزيد.

مروءة

توخيت أن أتحدث عن قصة حقيقية جرت معي بالذات، واستدللت منها أنه نظرة التأثر التي تتسرب إلى النفوس لن يجد طريقه إلى التراجع في جو يغلب عليه الشر على فعل الخير، ولكن الدنيا ما زالت بألف خير وصدق، من قال إنه لو خلّيت خربت. ويتلخص الموضوع في أنني قد تبّلت بمذكرة دعوى بحق أحد أبنائي الذكور حول ارتكابه مخالفة قانونية بعدم إخراج سيارة سياحية أجنبية قدم فيها برّاً إلى دمشق من بلد عربي.

اعتزني صدمة قاسية، ودون أي إبطاء اتصلت بأحد مكاتب التخليص الجمركي، ومن هنا كانت البداية حيث قدّم عدداً من الاحتمالات تقطّع أواصر القلب، تبدأ بالحبس والغرامة وتسديد أضعاف مضاعفة لقيمة السيارة، إضافة إلى دفع الرسوم الجمركية وغيرها. وختم كلامه بأنه على استعداد لتولي المهمة على أن يتم سلفة مالية نقدية خمساً وعشرين ألف ليرة سورية وكان ذلك عام ١٩٩٨ وهو مبلغ لا يستهان به أبداً. أحبته ببرودة أعصاب هوّن عليك، لقد تسرعت بالحكم، ويا حبذا لو وقفت على حقيقة الموضوع أولاً لدى المرجع المختص في الجمارك، ومن ثم أصدرت الرأي بالموضوع على ضوء الواقع.

اتصلت بأحد أصدقائي الذين يعملون في سلك الجمارك علّه يرشدني إلى الجهة التي تولت طلب تحريك الدعوى للوقوف على الأسباب الحقيقية في ضوء الملف، فرد عليّ بأنه كان يتمنى ذلك، ولكن الموضوع من اختصاص جمارك درعا. اتصلت هاتفياً بزميل سابق في العمل وزودته بجميع التوضيحات التي استخلصتها من مذكرة الدعوى، فأجابني في اليوم التالي: بأنه حصل على المعلومات الأولية بمساعدة مكتب محاماة الذي أبدى استعداده للدفاع على أن يدفع له سلفة نقدية عشرة آلاف ليرة سورية على الحساب.

هنا تذكرت قول سيدنا الإمام الشافعي طيب الله ثراه: “وما حك جلدك مثل ظفرك

فتول أنت جميع أمرك” وأدركت في الوقت نفسه بأن مقياس هذه الأمور في نظر الآخرين أصبح المادة أولاً وآخرأ.

ذهبت إلى درعا -ولن أطيل هذا الشرح- وفوجئت بأن الحال من بعضه، ولم ألق أي إيجابية ممن راجعته، حتى هداني الله إلى رجل فاضل أرشدني وهون عليّ الأمر، واتصل بأحد زملائه في إدارة الجمارك وحدد لي أسلوب معالجة الموضوع.

توجهت من فوري إلى الجهة المختصة في الجمارك، وقصدت المدير دون سواه وكانت سيدة فاضلة استقبلتني وصديقي بأدب جم، وقبل أن تقوم بأي عمل استفسرت مني عما أكون بالنسبة للمدعي عليه، وأن القطاع الذي ترأسه هو الجهة المختصة، فقدمت لها جميع المعلومات التفصيلية ومؤيداتها، فأجابتنني بأنها ستتولى مساعدتي لأنني في سني الكبيرة تحملت عناء التعب ومشقة السفر، فأجبتها بأن الموضوع يخص فلذة كبدي، ومن واجبي مساعدته في غربته، وأؤكد لك بأن الدعوى في غير محلها القانوني، وقدمت إليها مستنديين هامين الأول صورة عن صفحة من جواز سفر ولدي وعليها خاتم الخروج وتاريخه، مع إشارة إلى أن مغادرته مع السيارة، والثاني إيصال رسم خروج السيارة، والأمر المحير حقاً أنه لم أجد من يساعدني بإسقاط الدعوى، فأجابتنني أنني في المكان المناسب.

طلبت إليّ أن أستريح في مكتبها؛ على أن يتولى صديقي تهيئة البيانات التي يجب تقديمها، وتسهيلاً للأمر أرشدته إلى مكتب قبالة الدائرة يتولى إعداد إضبارة متابعة في ضوء المستجدات، وركزت على أن يكون الطلب بصيغة قانونية معينة.

أعلمني صديقي بأنه طلب إلى مكتب الحمامة تهيئة الإضبارة لإسقاط الدعوى، فاعتزته الدهشة وقال: إن هذا الإجراء قد توقفت عن اللجوء إليه في الحالات المماثلة منذ استلامها مهمة إدارة القطاع منذ سنتين أو أكثر، واستفسر عما إذا كان هناك أي قرابة أو وساطة كبيرة فأجابه بالنفي.

في ضوء ما تم إعداده من مؤيدات للطلب، بدأت مرحلة العذاب الحقيقي كنا ننتقل من مكتب إلى مكتب في أمكنة متباعدة عن بعضها في المركز الرئيسي، قرب الحدود، وآخر

في وسط المدينة ومنتهاها، في مركز على الحدود السورية.
ولم نحفل بمشقة التنقل، ولكن المؤلم كان السلبية في المكاتب التي تمت مراجعتها، وقد
دُلت والله أعلم كيف تم ذلك.

وبعد عمل يومين شاقين أظهرت فيها السيدة الفاضلة -أكرمها الله- المروءة بأفضل
صورها، وكيلا تتكرر المأساة ثانية تولت بنفسها ترقين قيد الدعوى في ضوء الوقائع المستجدة
المؤيدة بالوثائق من السجلات الرسمية، وضمتها إلى أوليات الدعوى وتم الرجوع عن الادعاء.
إزاء الخدمة الكبيرة التي قدمتها مديرة القطاع القانوني وتحملها عبء المسؤولية كاملة،
أحببت أن أعرب لها بالشكر أولاً وبتقديم هدية رمزية، وهنا ثارت ثائرتها وقالت: إننا لا
تنتظر مكافأة أحد على تعبها سوى إرضاء رب العالمين، وإحقاق الحق، وطلبت إليّ أخذها
وتقديم الاعتذار وهكذا كان.

إن لساني يلهج بالثناء لهذه الفاضلة التي لا أنسى فضلها وحسن تقديرها للأمر،
وبكرمها ووفائها، وإدخالها البسمة على الشفاه.

وفي الوقت نفسه أرثي لأولئك الذين يقصرون في تنفيذ المهام الملقاة على عاتقهم،
ولو أدى كل فرد ما عليه من واجبات على أكمل وجه، لما حدثت المشاكل التي تكبّد
الآخرين ضرراً مادياً ومعنوياً.

ولا بد لي أيضاً من القول إن خدمة الملهوف طوق بيقى مديناً له طيلة حياته لما
يتركه من أثر كبير في نفسه.



هناك حوادث أخرى تأتي بمثابة رد جميل انطلاقاً من طوق خدمة دفعت عنهم اليأس
وانقطاع الأمل.

يتلخص الأمر هنا بحادثتين جاءتا في ظروف صعبة مرّت بي، وذكرني بقول المتنبي
حكمة بالغة في قالب شعري خالد:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
في أمسية ليل بهيم كان المطر ينهمر بغزارة شديدة، تعرضت إلى توقف مفاجئ بسبب
ثقب أحد الدواليب الخلفية للسيارة؛ فاعترتني صدمة عنيفة، واحترت في أمري؛ لأنه ليس
هناك من معين في شارع خال من المارة.

أمام الأمر الواقع خلعت السترة واتجهت نحو صندوق السيارة لأتولى بنفسى عملية
التبديل، وهي وإن كانت سهلة من حيث المبدأ، ولكنها مرهقة نفسياً وجسدياً بالنسبة لي.
وفجأة انتصب أمامي شاب طلب إليّ الابتعاد، وقام بهذه المهمة على أكمل وجه، تقدمت
إليه وسألته عما يجب عليّ فعله أمام هذه النخوة والخدمة الكبيرة؟ فبادرني بالقول: سأمحك
الله: إن السعادة التي أشعر بها الآن أسمى أن تقدر بثمان، حيث كنت في حيرة عن السبيل
لرد جميل طوقنتي به حين ساعدتني بخدمة لن أنساها، وهذه جزء بسيط مما غمرتني به سابقاً.



طرقت باب أحد أطباء الأسنان لمعالجة أحد الأضراس؛ فاستقبلني الطبيب بترحاب
زائد، وتولى باهتمام كبير وعناية فائقة إصلاح الوضع وقال لي: جئت في الوقت المناسب،
وأصبح الوضع على ما يرام.

شكرته من كل قلبي وأعربت له عن امتناني البالغ، وأخرجت محفظة النقود، فما كان
منه إلا أن أغلقها بيده وقال لي: "واصل ما في شي بستاهل".

وظل ضاغطاً على يدي فقلت له: ما الأمر دكتور؟ أجابني والابتسامة على شفثيه
لقد خدمتني خدمة لا تنسى في الماضي، وأتمنى من أعماقي أن يكون بمستوى ما سبق أن
قدمته لي.

ألححت عليه فأبى، فقدمت إليه مسبحة أحملها وقلت له أرجو أن تتقبلها كذكرى
بسيطة أحملها بعد عودتي من أداء العمرة منذ أسبوعين.

هذه نماذج عابرة من المروءة والوفاء تتسم بها النفس البشرية التي فرضت ظروف الحياة
الابتعاد عنها في المرحلة الراهنة، وأرجو أن تكون قسراً وليست غريزية.



وفاء

يصادف المرء في مسيرة حياته أوضاعاً تحمل في مضمونها ما يبهج النفس، وأخرى تبعث على الألم، وكم يكون الأمر صعباً إن كان في الغربية؛ فإنه سيكون عاملاً هاماً في تخفيف آلام الفراق والبعد عن الأحبة.

إضافة إلى ما سبق ذكره، توارد إلى ذاكرتي بعضاً منها من جديد في أمور مختلفة، تحمل في طياتها مآثرة تدل على الوفاء أو الوقوع في مطبات عفوية أو عن قصد.

عواطف صادقة

كنت أتمشى مع زميل لي في الشانزليزيه في باريس؛ فاستوقفني رجل قد تجاوز العقد السادس من العمر، وسألني ألسنت أنت لطفي؟ فأجبته: لا تكمل يا عم لقد عرفتك، وعادت بي الذكريات إلى عقدين ونيف، حين كنت تستقبلي في دارك العامرة في حيننا بدمشق بترحاب وحنان كبيرين، وسألته عن وضع ولديه: سمير ونبيل اللذين كانا صديقين حميمين.

دعانا إلى الجلوس في مطعم مجاور، واستفسر عن بلدنا الحبيب، وحال الأهل، وسألته عن وضع ولديه، فأجابني: بأن ابنه سمير يتولى إدارة أعماله بعد أن حصل على إجازة في الاقتصاد، وأن نبيل تغمدته الله برحمته حيث فارق الحياة إثر نوبة قلبية، وهذا ما دعاه وزوجته إلى مرافقة ولديه الأخيرين في دراستهما في السوربون.

قدمت إليه عزائي الشديد، وتمنيت للعائلة التوفيق والنجاح؛ فدعانا إلى الغداء فاعتذرنا، وقبل أن يستودعنا أعلمنا أنه سيغادر باريس لزيارة ابنته المتزوجة في فيينا، ودعانا إلى الغداء في منزله يوم الجمعة، وفي الموعد المحدد وتمشياً مع العادات السائدة في بلد الغربية، وجدنا من المناسب أن نحمل بيدنا شيئاً رمزياً إعراباً عن سرورنا بتلبية الدعوة. سألنا أرباب المعرفة عما يجب تقديمه، ووقع الاختيار على وردتين جميلتين.

ولما دخلنا منزله استقبلنا بضحكة عالية، وقال لسنا هنا في مجال تجريب بعضنا،
شكراً لكما على تحملكما هذا العناء.

بعد الانتهاء من طعام الغداء، ونحن نهم بالخروج فتح خزانة جانبية وطلب أن نختار
إما ربطة عنق (كرافة غالية الثمن) أو زجاجة عطر، ودعانا مجدداً إلى عشاء بأحد المطاعم
المجاورة لمنزله.

كم كان سرورنا كبيراً لما يظهره أبناء بلدنا من محبة وتقدير لبعضهم البعض في الغربية،
حيث يضربون أروع الأمثلة في النبل والوفاء.

تكريم

ابتعثت قبل التحاقى - بدورة التأهيل المسلكي في المدرسة العليا للاتصالات - بدورة
في معهد متخصص لتعليم اللغة الفرنسية، وخلال دراستي فيها كانت مدرسة اللغة والنحو
أستاذة في حدود السبعين من عمرها، وتتمتع بخبرة عالية في مجال التدريس، وقد أولتني عناية
خاصة، تمكنت بفضلها أن أحقق تقدماً ملموساً في مضمار التحدث باللغة الفرنسية.
في نهاية إحدى الحصص أبلغتنا بأن خدماتها قد انتهت وستحال إلى المعاش، وفي
اليوم التالي أقام المشاركون بدورة اللغة حفلة تكريم اتخذتها فرصة وقدمت إليها قطعة قماش
من البروكار السوري النفيس، وبعد يومين حضرت المعهد وأعلمتني أن عائلتها قد دهشت
لهذه الهدية القيمة، وأنها تدعوني إلى الغداء في منزلها، وعقب الانتهاء حضرت جلسة عائلية
ضمت ابنتها الأولى مديرة في مصرف، والأخرى مدرسة في معهد الفنون الجميلة، وبعد
استراحة قصيرة ودعتهم وقدمت لزوجها وكان طاعناً في السن هدية تناسبه، ومن وقتها
أصبحت صديق العائلة وعلى اتصال معهم بالمراسلة بعد عودتي إلى دمشق.
ما أجمل العرفان بالجميل مهما كانت قيمته فهو عنوان المحبة.

حماية

اتصل بي أحد زملائي وأوصاني خيراً بقريب له سيلتحق بدورة فنية في أمور الأشغال العامة وفق أحدث الطرق المتطورة، وأعلمني أنه في حوزته ٢٥,٠٠٠ ألف فرنك فرنسي، وخشي أن يصرفها هنا وهناك؛ لأنه ينبهر بالأشياء من أول نظرة.

اقترحت عليه في محاولة للتخفيف مما في حوزته من المبلغ الكبير أن يقوم بشراء هدايا لعائلته (أمه وزوجته وثلاثة فتيات)، والاستفادة من الرخص المعلن عنها ويذهب عنه هذا الحمل الثقيل، وكان لي ما أردت وقام بشراء هدايا قيمة.

وبعد فترة لا تتجاوز أياماً معدودة جاءني متجهماً الوجه مرتبكاً، وأعلمني بأنه قد أفلس نهائياً، وليس في حوزته أي مبلغ يساعده على تأمين متطلباته الأساسية حتى نهاية الشهر، فسألته عن السبب؟ فأعلمني أنه قد رافق أحد المشتركين في الدورة التي يتبعها وصارا بمضيان السهر ليلاً في ملهى ليلي وصرف -دون وعي بسخاء مذهل- ما يملكه لوقوعه في شباك إحدى فتيات الليل.

نصحته بأن السير بهذا الطريق سيؤدي به إلى الهاوية ويضر بسمعته من الناحية الأخلاقية، ومددت إليه يد المساعدة على أن يعود إلى جادة الصواب.

وأمام هذا الموقف المؤلم أنصح كل مغترب عن بلده أن يتوخى الحذر في اختيار الصحبة في عالم صاخب؛ لأن رفيق السوء يؤدي به إلى الهاوية.

خديفة

تنتشر في بعض البلدان عملية صرف العملة في السوق السوداء؛ للاستفادة من الفرق بين السعر الرسمي والسعر الراجح.

استوقف زميلي أحد تجار السوق السوداء، واستطاع إيقاعه بشباكه بسعر مغر، فما كان منهما إلا أن عقدا صفقة بألف دولار، وناولوه رزمة نقدية من العملة المحلية، بعد أن عدّها أمامه بالمقدار الذي تم عليه الاتفاق، ومضى كل منهما في طريقه.

عمد الزميل إلى إعادة إحصاء الكمية؛ فتبين له أنه وقع فريسة احتيال أذهلته حيث أن ما يزيد عن نصف المبلغ كان ورقاً مزوراً.

وأمام تزايد موضوع الاحتيال والتفنن في خداع الآخرين وإلقاءهم في شباكهم الغادرة يجب ألا يؤخذ المرء بالظواهر البراقة.

حقيقة

كنا مجموعة من المتدربين نمضي فترة استراحة على مقعد خشبي في حديقة تطل على ملعب للتنس، وفجأة اتجهت الأنظار إلى الملعب لمشاهدة الالعاب وهن بيدلن ثياهن بكل احتشام، المسافة كانت بحق بعيدة.

فاتجهت نحو أحدهم وكان خفيف الدم والظل، وقلت له: اتق الله يا هذا أنت صائم ومن آدابه أن يحفظ المرء نظره ولسانه.

فأجابني بسرعة يا صاحبي إن صفحة سجلنا مصفاة مليئة بالثقوب فهل يعيها ثقب جديد؟ إننا نعيش يومنا أعاننا الله على مقاومة الإغراء.

غدر

تعرف أحد أصدقائنا على أحد الأشخاص في مقهى اعتاد على تضيية فترة من الوقت، يحتسي فيه فنجاناً من القهوة، ويستمتع إلى معزوفات موسيقية كلاسيكية طلباً للراحة.

توطدت العلاقة بينهما إلى حد دعت الصديق إلى اصطحابه لمنزله لقضاء بعض الوقت في التسلية بلعبة الشطرنج.

اضطر الصديق أن يتركه في الصالة بمفرده بعض الوقت، وفي نهاية السهرة مضى في سبيله وفي صبيحة اليوم التالي تفقد صاحبي جيوبه فلم يجد دفتر الشيكات مع المبالغ النقدية الأخرى؛ فضرب كفاً بكف وأعلم من الجهات الأمنية أنه قد غادر المدينة إلى بلد مجاور وأصبح حسابه في المصرف صفراً.

وهنا يجب أن نذكر دوماً أنه ليس كل ما يلعب ذهباً، ويجب عدم الانخداع بالظواهر؛ لأنها في بعض الأحيان تكون خادعة.

خداع

انتشرت في عقد الثمانينات ظاهرة خطف الأطفال الصغار، وقد طرقت سمعي هاتان الحادثتان الغريبتان وهما أقرب للخيال منهما للواقع.

تتلخص الأولى بأن إحدى النسوة كانت تتبضع من مجمع استهلاكي، تجر أمامها عربة صغيرة لطفلتها الرضيعة، وبعد انتهاء عملية اختيار الاحتياجات تذكرت غرضاً سهت عنه؛ فأوقفت العربة جانب الصندوق، وعادت مسرعة لتداركه وتركت العربة مكونة إلى جانبه.

ولما عادت لم تجد العربة ومن فيها، فطار صواحبها، وأيقنت أنها قد خطفت فطلب إليها الهدوء ريثما يحضر رجال الأمن.

وفي هذه الأثناء قصدت الخاطفة تاجراً للمجوهرات، وطلبت خاتماً مرصعاً فاستأذنت الصائغ أن تعرضه على زوجها للحصول على موافقته الذي ينتظرها على ناصية الشارع بسيارته وتركت الطفلة لديه لثوانٍ.

طال الوقت ولم تعد، وأمام بكاء الطفلة خرج مع العربة ينظر هنا وهناك، وبهذه الأثناء مرت إحدى النسوة من زبائنه، واستفسر عن السبب فقالت له: إن طفلة مخطوفة من المجمع المجاور، والأمن يحقق بالموضوع؛ فاتجه فوصل وهم في طريقهم إلى المغادرة؛ فأسرعت الأم وتمسكت بابنتها، بينما ذهب الصائغ يضرب كفاً بكف بهذا المقلب الذي وقع فيه، لقد كان الغدر أقوى منه.



وقفت سيدة أمام بائع الذرة للشراء وعربة طفلها جانبها، وفي غمرة الانشغال باختيار عرنوس الذرة ذي الطعم اللذيذ، التفتت ولم تجد العربة؛ فلطمت على وجهها وصاحت بأعلى صوتها: خطفوا طفلي. فاقترب منها أحد الصبية وقال لها: لقد رأيت امرأة تجر عربة

مسرعة في هذا الزقاق، ويبدو عليها الخوف وقال للأم: اتبعيني بسرعة، وقد تمكن من اللحاق بها والتمسك بجلبائها حتى وصلت الأم، وبصراخها تجمع المارة؛ فحاولت الخاطفة الفرار ولكن تم منعها من ذلك، وسيق الجميع إلى المخفر، ونتيجة التحقيق تبين أنها امرأة عزباء وتمتحن عملية خطف الأطفال للمتاجرة وأحيلت إلى القضاء.

رأي

الحياة مليئة بالحوادث السارة والمحنة وأمام تعقيداتها في المرحلة الراهنة أصبح الأمر يستوجب الحذر، وأن يكون المعيار في اتخاذ الموقف المناسب مبنياً على العقل وليس العواطف.

شهادة حق

أحببت أن أنهي هذه الخواطر بكلمة أعبّر فيها عن العرفان بالجميل لهذا المستشرق والمؤرخ والعالم الذي أولى اهتماماً بالغاً بدراسة الحضارات على وجه العموم، والعربية الإسلامية خاصة، حيث اكتشف من زيارته الشخصية للحضارات العربية، تأثيرها على الحضارة الغربية، وجاهر بالقول: إن العرب مدّنوا أوروبا وليس العكس.

غوستاف لوبون

طبيب ومؤرخ فرنسي، كاتب في علم الآثار، وغني بالحضارة الشرقية، وهو أشهر فلاسفة الغرب، وأحد الذين امتدحوا الحضارة العربية والإسلامية، وأنه -خلاف مؤرخي أوروبا- اعتقد بوجود فضل هذه الحضارة على العالم الغربي.

ومن أشهر مؤلفاته وآثاره: حضارة العرب وحضارات الهند - الحضارة المصرية - حضارة العرب في الأندلس - سر تقدم الأمم - روح الاجتماع.

عرف بأنه أحد أشهر فلاسفة الغرب الذين أنصفوا الحضارة العربية، ولم ينهج نهج مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضلها على العالم الغربي، ورأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقد، وأن يبيده للعالم في صورته الحقيقية، وألف بهذا الخصوص كتاب "حضارة العرب" جامعاً لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، وبيّن بوضوح أسباب عظمتها وانحطاطها عرفاناً بفضلها على حضارة العالم الغربي.

امتاز لوبون بغزارة إنتاجه العلمي وأبرزها: "حضارة العرب - سيكولوجية الجماهير - القوانين النفسية لتطور الأمم".

ومن أقواله المأثورة: إن الشأن الأول في حياة الأمم لأخلاقها، وليس لنظمها السياسية ولا للأحوال الخارجية ولا للمصادفات.

كما تحدث عن موت الحضارات بقوله: "إذا أمعنا النظر في أسباب سقوط جميع الأمم بلا استثناء، وجدنا أقوى العوامل في انحلالها هو تغير مزاجها العقلي وصفاتها النفسية بسبب انحطاط أخلاقها". لذا فإنه يشدد على التركيز بالتعليم التجريبي الذي يصقل خبرة الفرد وينمي ذهنه.

مات غوستاف لوبون ولم تمت معه شهادته الخيرة بفضل الحضارة العربية، وما تركه من تراث ضخم بهذا الصدد يعطي الدليل الساطع ويدعوننا أن نذكر هذا الفيلسوف الكبير بالخير؛ لأنه برهن بما لا يقبل الشك عن نزعة العلمية المحايدة للحضارات العظيمة التي أثرت في البشرية.

نصيحة

قبل أن أنتقل الى مرحلة اختتام الكلام عما تناولته من شرح في مواضيع مختلفة، جاءت جامعة -إلى حد ما- ما في جعبي من ذكريات خاصة، أقول إنه كان بودي أن أتناول في شموليتها كل ما صادفته مما هو سار ومؤلم على السواء، ولكن ذلك مستحيل، ودعاني إلى صرف النظر عن الغوص في مستنقع يصعب الخروج منه إلا بمجلد ضخمة. لذلك رأيت أن أستعين بذكر بعض آيات الذكر العظيم يمكن من خلال التعمق في قراءتها من الوقوف على عنوان يستهدي به لمعرفة الحادث الذي مررت به، وأرجو من أعماقي المعذرة.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بَشِيرٌ غَفُورٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢] صدق الله العظيم. كلام الله عز وجل يغني عن الشرح؛ فالأخلاق العالية من شيم النفوس الأصيلة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوهَا فَمُتَصِيبُهُمْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦] صدق الله العظيم. وما أكثر هؤلاء في أيامنا هذه وقانا الله من شرهم وأقوالهم.

وقال سيدنا يوسف ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣] صدق الله العظيم. فيجب الابتعاد عن الزهو والتفاخر والادعاء بالمثالية لأن النفس البشرية أماراة بالسوء اللهم اجعلنا من أولئك المشمولين برحمتك. قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢]، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢]. ما أسمى هذه الدعوة التي

فيها خير البشرية جمعاء إذا كانوا جميعاً يداً واحدة في السراء والضراء.
قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الْقَلَم: ٤]. علينا أن نتمثل بخلق سيد
المرسلين؛ لأن التمثل بالكرام فلاح، وخاصة في وقت ذهبت فيه الأخلاق الصالحة أدراج
الرياح.

قال تعالى ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشُّعْرَاء: ١٨٣]. فيجب على البشر أن
يؤدوا الحقوق لأصحابها الشرعيين دون أي انتقاص، مهما كانت الحجج.



دردشة

لقد انتهيت من تبيان ما في جعبتي من أمور خاصة جامعة لذكريات شخصية تحمل في طياتها معارف مختلفة، قد تنال الرضا أو مدعاة للتساؤل عن الفائدة في ذكرها. أؤكد أن كل ما ورد في الذكريات على بساطته يحمل مدلولاً هاماً إن لم يشر إليه صراحة فإنه يستدل إليه من خلال الاستنتاج الشخصي.

أعترف أنني قد أفضت بهذه الخواطر بذكر حوادث عابرة متنوعة ليست من عالم الخيال، إنما هي حقائق واقعة، أكثرها كنت فيها شاهد عيان، والآخر عن طريق السمع ممن كانت ضحيتها، أما البقية الباقية فقد استقيته من المؤلف الذي تولى نشره، وهو بعيد عن الشك فيه.

أمام هذا التنوع المستفيض الذي بين يدي قرائي الأعزاء، أبين أنه لن يسبب أبداً الملل والضجر، بل سيكون حافزاً لمتابعة القراءة للوقوف على ما هو مفيد.

وإنني - كواحد ممن قرأ هذه الخواطر التي ذكرتها - أقول بصراحة تامة: لقد اندهشت بشكل منقطع النظير أمام إرادة وتصميم الطفلين الذين استعبدهما عديم الرحمة بحرمانهما من التعليم، حين قررا بعزم أن يتحررا من الأمية، وينعما بالقراءة والكتابة، ويستمررا في النضال لإتمام مرحلة التعليم، وتحقيقا الحلم الذي ينشدها بهذا السلاح المعطاء.

وفي الوقت نفسه تأثرت من أعماقي حينما سمعت من خلال وسائل الإعلام الصوتية أو عبر الشاشة الصغيرة، نتائج الدراسات التي تمت في ضوء استطلاعات الرأي، أن المدة الزمنية التي يتم تخصيصها للقراءة والمطالعة المستمرة في البلدان العربية كانت ست ساعات شهرياً، وهي ظاهرة لا تبشر بالخير، ولها انعكاساتها الخطرة، وأدعو الله أن يغرس في قلوب أبنائنا حب المطالعة والتزود بالعلوم والمعرفة لأنها غذاء الروح.

والله من وراء القصد

محمد لطفی الغنام

صور من الحياة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توضيح

لقد وُلد لدي الفراغ الذي أعاني منه الآن الرغبة باستجلاء ما يجيش في أعماق نفسي، من أمور وحوادث وقصص عابرة صادفتها في حياتي الماضية، تمثل صوراً حقيقية من الحياة، يلتمس منها المرء عبيراً بليغة، تدفع عنه كثيراً من معاناة الحياة، وتكون موضوعاً للكتابة من جديد.

وتمشياً مع النهج الذي سرت عليه باقتصار فحوى مذكراتي على كل ما هو حقيقي ويشكل موضوعي وشفاف؛ فسأتناول الآن ذكر ما رأيت فيه منارة أو شمعة مضيئة يتم الاهتداء بها في معالجة ما يمر على الانسان من حالات مماثلة تجنبه الوقوع في الخطأ. كما وأنه بهدف تقوية وقع الحدث في النفوس، وجدت أنه ليس ما يمنع من الرجوع إلى ما حفل به تاريخنا عبر العصور من أفعال وتصرفات جديدة أن يتم التذكير بها، والإشارة إليها ضمن هذه المجموعة.

كما وأنه لا بد من الإشارة إلى أن النتائج التي تم التوصل إليها من خلال سرد الحوادث كان بمنتهى الحكمة، وما عليه أخلاقنا الأصيلة، في محاولة قدر المستطاع لتلافي وتجنب الوقوع في أخطاء ذات آثار سلبية في حياة المجتمعات، وتخالف في الوقت نفسه لما جاءت به الأديان السماوية.

وإنه ليس من قبيل التباهي والزهو أن ما قمت بمعالجته من أمور وأفعال كان بمنتهى الحكمة والأخلاق النبيلة النابعة من واقع البيئة التي نعيشها، والتربية المنزلية؛ لتجنب الوقوع في الزلل والخطيئة، وامتثالاً بالدرجة الأولى لما جاءت به الأديان السماوية من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى تهذيب النفس والسلوك الحسن.

والله من وراء القصد

٢٠١٧/٠٢/٢٧

محمد لطفي الغنام

أمثلة من الماضي

أوردت كتب المطالعة في مراحل التعليم على اختلافه في الثلاثينات والأربعينات؛ على ذكر نصوص ومقطوعات أدبية تبرز مكارم الأخلاق الصادرة عن أولئك الذين كان شعارهم في الحياة التمسك بالقيم والمثل العليا قولاً وفعلاً، عن إيمان راسخ في قلوبهم. وقد توارد إلى ذهني بعض منها في مواضيع مختلفة تعني مدلولاتها عن الشرح وأبدؤها بدرر مختارة من تاريخنا التليد.

أ- قوة الإيمان

انتشرت في أيام الجاهلية عادات سيئة نمت عنها الشرائع السماوية، اقتصر القيام بها على ذوي الضمائر الضعيفة، ولما جاء الإسلام في ربوع الجزيرة العربية وأكد ولاية الأمر على النهي عن ارتكابها، ومن جملة الأعمال التي أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدم القيام بها ونهى عنها هو خلط الحليب بالماء. ومن عادة الخليفة أنه كان يمشي ليلاً لتفقد شؤون الرعية، وفي إحدى جولاته سمع امرأة تقول لابنتها:

- هل مذقت الحليب بالماء؟

- فقالت لها الابنة: لن أقوم بفعل نهي عنه عمر!

- فأجابتها الأم: إنك في موضع لا يراك عمر ولا منادي عمر!

- فردّت عليها الصبية بعصبية شديدة: والله ما كنت لأطيعه في الملاء وأعصيه في

الخفاء... أين الله.

فعمد الخليفة لاختيارها زوجة لابنه فأنجبت منه الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي كان من أعدل خلق الله.

ب- مواقف مشرفة

الخنساء إحدى النساء العظيمات اللواتي خلدهن التاريخ بما قدمن من تضحيات وما سجلن من مواقف مشرفة كان لها أكبر الأثر في انتشار رسالة الحق في ربوع عالمنا الحافل بالأعجاب.

لقد حملت الخنساء قلباً من قلوب الرجال الأشاوس، وتمتعت بصبر نادر لا مثيل له في تاريخ البشرية، وحملت من الحكمة ما جعلها في منزلة الحكماء البلغاء، ورزقها الله صدق الصبر، فضربت قدوة لا حدود لها بالرضا بقضاء الله، وغلبت في شعرها فحول الشعراء، ولعل أبلغ حديث لها كان مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سألها: "ما أفرح مآقي عينيك؟" قالت: "بكائي على بعض السادات من مضر" فرد عليها: "هم في النار يا خنساء" فنطقت حكمة بليغة: "كنت أبكي لهم من الثأر، والآن أبكي لهم من النار".

ومن أعظم المواقف التي سجلتها؛ صبرها على رحيل فلذات كبدها في ساحة الجهاد والكفاح لعزة الاسلام في معركة القادسية، وعندما بلغها نبأ استشهاد أولادها الأربعة واحداً تلو الآخر، رددت كلمات تعبر عن عمق إيمانها، ونطقت قولها المأثور: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم جميعاً في سبيل الله ونصرة دينه، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته".

فكتب الله لها في صفحة سجلها أجراً وثواباً مماثلاً لأجر من ضحى بروحه دفاعاً عن قدسية وطنه.

ج- حكمة بالغة

من القصص المتداولة أنه كان أحد باعة البالونات يفكر في طريقة لجلب زبائنه إلى الشراء؛ فاهتدى إلى أسلوب يجلب انتباه الناظر صغيراً كان أو كبيراً، وذلك بإطلاق بعض البالونات الملونة في الهواء.

تجمع الناس بشكل خاص حوله للشراء، وفجأة تقدم من البائع صبي أسمر البشرة، وبدأ بتأمل البالونات الطائرة في الهواء بنظرة حزينة بريئة، ووجه نظرة إلى البائع، في موقف عاطفي مؤثر، واليأس مرتسم على وجهه سائلاً بكلمات عبرت عنها نظراته قبل أن ينطقها لسانه: يا عمّاه لقد أطلقت بالونات من مختلف الألوان فهل سينطلق ما كان منها باللون الأسود ويرتفع إلى الأعلى.

تقدم البائع من الصبي ونظر إليه بإعجاب، وأجابه بلطف وحنان: إنه سيطير يا بني دون أي شك؛ فالذي يجعله يطير ليس اللون، بل ما في داخله هو الذي يجعله يرتفع إلى عنان السماء.

ما أروع هذا الموقف الإنساني الذي ينسجم مع طبيعة الإيمان بأن البشر سواسية في المجتمع، لا فرق بينهم، وأن المحرك نحو التفوق ونيل المراتب يتوقف على ما يملكه المرء من قدرات وإمكانات ذاتية، وإرادة وعزيمة متينة، ليس المال أو الشكل أو الحسب والنسب.

وقد جسّد الشعراء ذلك بأبيات خالدة لعل أروعها هذا القول:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل
قيمة الانسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه أم أقل

د- رحمة السماء

في طريق عودة ثلاثة رجال إلى المدينة بعد قيامهم بتفقد شؤون أعمالهم في الريف، تعرضوا إلى عاصفة جوية ماطرة، تمثلت بموجة غاضبة من الطبيعة، انهمر فيها المطر بغزارة، فشكّل سيولاً عارمة تسبب في منعهم من متابعة سيرهم مشياً على الأقدام، فأووا إلى إحدى المغارات في أسفل الجبل الملاصق للطريق للاحتماء، واتقاء ويلات العاصفة الهوجاء.

انحدرت السيول العارمة من أعلى الجبل وحرفت في طريقها الصخور والحجارة ومن سوء حظ هؤلاء أنه سقطت صخرة كبيرة أوصدت باب المغارة دون أن تترك أي منفذ للخروج منها.

ارتعد الرجال الثلاثة خوفاً وهلعاً، وشعروا في قرارة أنفسهم أن الموت سيطلمهم ما لم تشملهم عناية السماء بالرحمة والشفقة.

وبإيمان راسخ بقوله تعالى في محكم آياته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] اتجهوا إلى بارئهم بالدعاء ليمنّ عليهم بمخرج من هذا الامتحان القاسي.

بدأ كل منهم باستعراض ما قام به من أعمال حسنة يجزي الله عليها العطاء الكريم. قال الأول: "رباه لقد امتثلت لما أمرت به: ﴿وَصَيَّنَّا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وقمت بكل إيمان برعاية والدي والاهتمام بشؤونه دون كلل أو ملل، ونلت رضاه في الدنيا، وأنا لأجأ إليك الآن أن تخرجني من هذه المحنة التي أنا فيها"، واتجه نحو الصخرة فدفعها فتحرّكت وسبب فجوة في الجوانب.

وقال الثاني: "مولاي كنت في شبابي مغرماً بفتاة لم يكتب لي نصيب بالزواج منها، وابتعدت عن الإساءة إليها قولاً وفعلاً، وأنت علام الغيوب بالحسرة والألم الذي تولد لدي، ومع مرور الزمن قاست من ضنك العيش على نحو مؤلم، وأصبحت في حالة يرثى لها دفعتها إلى اللجوء إليّ لأمد لها يد المساعدة؛ لتأمين القوت لأبنائها، فعصمت نفسي ولم أنجرف وراء عواظفي الشهوانية، وقدمت لها العون الوفير، وما زالت على ذلك امتثالاً لأوامرك" واتجه نحو الصخرة فدفعها بشدة فانزاحت بعض الشيء.

وقال الثالث: "يا الله جاءني جار وطلب مساعدتي في رعاية عشر رؤوس من الغنم خلال سفرة قصيرة فاستلمت الأمانة بكل طيب خاطر، وتوليت الاهتمام بها مع قطيعي، ومررت فترة طويلة وانقطعت أخبار الجار دون أن نعلم عنه شيئاً، وخلال هذه المدة توالدت وتكاثرت وأصبحت قطعياً من الغنم يعد بالمشات، إضافة إلى ريع مادي تمثل بقيمة الصوف الذي جرّ منها، وفجأة دون سابق إنذار جاءني الجار، وقد علاه الشيب والكبر وأمارات الحاجة، وطلب إلي أن أعيد إليه ما ائتمني عليه، فمسكت يده وأدخلته زريبة المواشي وقلت له: ها هي أمامك فخذها بارك الله لك فيها، فاندھش لقولي وأعلمته بأن له مبلغاً سخياً

ثمن الصوف الذي تم تسويقه؛ فتلعثم ولم يستطع التعبير عما يجيش في نفسه وقال: هذا كثير ومنتهى الكرم، فلك النصف فأبت نفسي ذلك ورددت إليه الأمانة كاملة دون انتقاص استجابة لدعوتك بوجوب التحلي بالأمانة، فإن أحسنت الصنع ساعدني يا رب في دفع الصخرة نحو الأسفل" .. وكان الله بعونه فدفعها بقوة الإيمان فتدحرجت وخرجوا سالمين.

سبحانك ربي إنك لا تضيع أجر محسن وأسأل الله أن يلهمنا فعل الخيرات والاكتثار من الحسنات اللاتي يذهبن السيئات.

هـ- جود الكرام

سئل حاتم الطائي في سهرة ليلية عن أجود رجال العرب، فقال: إنهم والحمد لله كثير لا يمكن تعدادهم؛ فأجمع الحاضرون على أن حاتم الطائي هو أجود الكرام، وأبرز سجايه الأصيله إكرام الضيف، وذكروه بمقولة شعرية لأحد عباده:

أوقد فإن الليل ليل قر إن جلبت ضيفاً فأنت حر
فأجابه: إن إكرام الضيف متأصل في نفسي، ولكني دهشت مذهولاً بموقف لا أحلم به من غلام يتيم نزلت في داره، وكان له عشر رؤوس من الغنم، فعمد على ذبحها كلها لأتناول الدماغ الذي استطبتة عندما قلت له: طيب، والله لقد كان يخرج ويدبح رأساً رأساً ليقدم لي الدماغ دون علمي، ولما خرجت لمتابعة سفري وجدت حول بيته بركة من الدماء، فقلت له: لم فعلت ذلك؟ قال: سبحان الله تستطيب شيئاً أملكه، وأبخل عليك، إنها لسمعة سيئة لدى العرب.

وأمام سؤالهم: بماذا عوضت عليه؟ قال حاتم: بثلاثمائة من النوق الحمر، وخمسمائة من رؤوس الغنم، فأجيب بأنك أكرم منه، فرد قول البليغ: إنه أكرم مني؛ لأنه ضحى بكل ما يملك، وإنما أنا جُدت بقليل من كثير.

وصدق رسول كسرى حين قال عندما ذبح له فرسه التي هي من كرام الخيل وعزيرة علينا لإكرامه عباراته الخالدة: "والله لقد رأينا منك أكثر مما سمعناه".

و- ومن الحسد ما قتل

اتخذ الشاعر مالك بن فهم من أولاده حرساً له، حيث كان يحرسه كل ليلة واحد منهم، وكان يجب أصغر أولاده سليمة، ويخصه بالعناية والاهتمام والتدريب على الرماية. حسده إخوته وضمروا له شراً؛ فجاؤوا إلى أبيهم وأسروا إليه بأن سليمة لا ينفذ مهمته بالمناوبة على أكمل وجه، حيث إذا أقبل الليل في حراسته يبتعد عن الفرسان وينشد الراحة بعيداً عنهم بنوم عميق، فأحب أن يتأكد من ذلك؛ فأقبل خلال مناوبة سليمة متخفياً، فسمع الابن صهيل الخيل، فأخذ حذره وصب سهماً نحو مصدر الصوت فأصاب مقتلاً بأبيه، وقبل موته جزاء تلك الرمية أنشد هذه الأبيات:

فَيَا عَجِباً لِمَنْ رَبَّيْتَ طِفْلاً	أَلْقَمَهُ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ
أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ	فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نِظْمَ الْقَوَائِي	فَلَمَّا قَالَ قَافِيَهُ هِجَانِي
أُعَلِّمُهُ الْفُتُوَّةَ كُلَّ وَقْتٍ	فَلَمَّا طَرَّ شَارِبُهُ جَفَانِي
جَزَائِي لَا جَزَاهُ اللَّهُ خَيْراً	سَلِيمَةً إِنَّهُ شَرّاً جَزَانِي

ومن هذه الأبيات المشهورة التي يضرب بها المثل قول الشاعر:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ	فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
---------------------------------------	--------------------------------------

حكمة بالغة تتردد على الألسن حين يقابل الإحسان بالإساءة أو نكران الجميل بتجاهل المعروف.

لقد كان قتل سليمة لأبيه خطأ غير مقصود، ولكنه رغم الظروف المؤلمة التي أحاطت به دفعت الأب إلى قول حكم مأثورة أصبحت مضرب الأمثال.

حكم وأمثال

نستشهد كثيراً في حديثنا في معرض مناسبة ما أقوالاً تم ترادها على أفواه الناس عبر الأيام الغابرة، وأصبحت مضرب الأمثال، وعلى سبيل الذكر كأن نقول: من رابع المستحيالات؛ فمن أين أتى هذا القول؟ ومن خلال إجماع العرب أنه جاء من قول أحد الشعراء:

إن المستحيالات ثلاث الغول والعنقاء والخل الوفي
هذه حقيقة لا يمكن إنكارها؛ لأنه ما من شيء يأتي من العدم.
ومن قبيل الفائدة بزيادة العلم والمعرفة؛ سأتناول بعض هذه الأقوال والأمثال.

أ- معنى حرف "إن" المشددة

يرجع الموضوع إلى رواية طريفة تتلخص بهروب شخص اسمه علي بن منقذ من المدينة خشية بطش حاكمها به لخلاف بينهما، فأوعز الحاكم لكتابه أن يطمئن ابن منقذ برسالة يستدعيه فيها إلى الرجوع لبلده.

ولكن الكاتب شعر بأن الحاكم يضمّر شراً له؛ فكتب إليه رسالة عادية أورد فيها بالنهاية عبارة: إِنَّ شاء الله تعالى - بتشديد النون - فأدرك ابن منقذ المكيدة التي ينوي الحاكم الإقدام عليها من خلال تشديد حرف النون، متذكراً قول الله تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠].

رد ابن منقذ برسالة شكر معرباً فيها عن ثقته العمياء به، وختمها بعبارة: "إِنَّا الخادم المقر بالأنعام.. فطن الكاتب بأن ابن منقذ يذكره فيها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢ - ٢٣] ومن هنا صار استعمال "إن" المشددة دلالة على الشك وسوء النية وأقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ب- قصة مثل "وافق شن طبقه"

كان هناك رجل يدعى "شن" من دهاة العرب وعقلائهم، وأخذ عهداً على نفسه بأن يطوف البلاد حتى يعثر على امرأة ذكية مثله تكون شريكة حياته.

وبينما هو سائر في إحدى سفراته، صادف رجلاً في الطريق؛ فسأله عن وجهته؟
- فأجابه: بأنه متجه إلى القرية التي يقصدها "شن". واتفقا على السير معاً، وفي الطريق سأله شن:

- أتحملي أم أحملك؟

- فقال له الرجل: كم أنت جاهل؟ أتسألني؟ فكلانا راكب! وتابعا المسير، وقبل وصولهما القرية شاهد شن زرعاً قد تم حصده فسأل الرجل:

- أترى هذا الزرع أكل أم لا؟

- فأجابه الرجل: يا لك من جاهل ترى نباتاً حصد وتسألني عن مصيره والأمر بعلم الله!.

دخلا القرية، وفي الطريق لقياً جنازة، فسأل شن الرجل:

- أترى صاحب النعش حي أم ميت؟

- فرد عليه الرجل: لم أر في حياتي من هو أجهل منك! أتسأل عنها أميت صاحبها أم حي؟

فسكت شن وأراد مفارقتها؛ فأبى الرجل حتى يصحبه إلى منزله؛ فمضى معه وكان للرجل ابنة يقال لها "طبقه"، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه؛ فأخبرها عن مرافقته إياه بالسفر، وشكا إليها جهله وحدثها بما جرى. فأجابته ابنته إنه والله ليس بجاهل.

أما قوله: أتحملي أم أحملك؟ فأراد منها أن يتم الحديث بينكما خلال السفر.

وأما قوله: أترى الزرع أكل أم لا؟ فأراد هل تم بيعه وقبض أهله ثمنه أم لا.

وأما قوله في الجنازة؛ فهو هل ترك الميت خلفه يحيي بهم ذكره؟

اتجه الرجل إلى "شن" وتحدث معه ساعة من الزمن، وسأل شن عما إذا كان يرغب

تفسير ما تم السؤال عنه في الطريق، فأجابه عن ابنة له؛ فخطبها إليه فزوجه إياها وحملها إلى أهله، ولما رأوها أنها تشبهه أو تفوقه بالذكاء والدهاء قالوا هذا المثل: “وافق شن طبقة”.

ج- رواية المثل “وعند جهينة الخبر اليقين”

خرج رجل اسمه حصين ومعه رجل آخر يقال له الأخنس، وكان هذا قد ارتكب إثماً في قبيلته وفر هارباً، وفي الطريق سأله الحصين: من أنت؟ ثكلتك أمك!، فرد عليه: إنني أسألك من أنت؟ ثكلتك أمك! وبعد جدل قصير تعرّفا على بعضهما واستفسرا عن السبب لكل منهما وراء الهرب من قبيلتهما فالتقيا بالهدف من حيث خروج كل منهما للسلب والنهب؛ فتعاهدا على الاشتراك معاً شريطة أن يُقيا الأمر سراً بينهما، وفي الطريق لقيا رجلاً فسلباه فقال لهما: هل تردان إليّ بعض ما أخذتموه مني وأدلكما على مكان رجل قد قدم من عند الملوك بمغانم كثيرة وهو خلفي.

توجه الاثنان إلى الموضع الذي يستريح به الرجل فوجداه يجلس تحت ظل شجرة وأمامه طعام وشراب، وشاركاه في الطعام، وقد ضمرا معاً أن يتولى كل منهما بطعنه ويفتكا به ويسلباه ما بحوزته من أموال.

ذهب الأخنس لبعض شأنه بعيداً عن المجلس، ولما عاد وجد الرجل المسلوب غارقاً في دمائه، فسل سيفه وقال لصاحبه: أفتكت برجل قد أكرمنا بطعامه وشرابه واستأمننا من الغدر به؟ فأجابه: اقعد فلهدا وأمثاله قد خرجنا.

وبعد استراحة قصيرة سأل الحصين: هل أنت للطير زاجر؟ -ويقصد بهذا السؤال أن يرفع جهينه رأسه ويغرز السيف في عنقه- فقال له جهينة: ما المقصود؟ فأجابه ما تقول هذه العقاب الكاسرة؟ واستفسر عن مكانها، فقال له: ها هي ذا فرغ الحصين رأسه؛ فنخره جهينة وقتله وجمع ما حصل له من أموال ومتاع ورجع إلى قومه، وصادف امرأة تنشد الحصين فقال لها من أنت؟ فقالت أنا صخرة امرأة الحصين؛ فأجابها بأنه قد قتله، فردت عليه: ليس مثلك ما يجروّ على قول هذا لو لم يكن ميتاً، وقد دعاك ذلك إلى التبجح والبوح

به؛ فانصرف إلى قومه وأصلح أمرهم وأنشد قصيدة جاء فيها هذا البيت:
تساءل عن حصن كل ركب وعند جهينة الخير اليقين
وذهب ذلك القول مثلاً في معجم العرب يضرب به عند الضرورة.

د- قصة "سبق السيف العذل"

ما ذكرته الروايات العربية أن رجلاً اسمه ضبيه كان يملك قطيعاً من الإبل هربت في ليلة ليلاء وذهبت بعيداً؛ فأرسل ابنه واسمها سعد وسعيد ليبحثا عنه في الصحراء، كل من جهة؛ فوجدها سعد وعاد بها إلى أبيه، ولكن سعيد لم يعد، وطال الانتظار، وكان يلبس عندما ذهب ثياباً فاخرة؛ فصادفه رجل في الطريق وحيداً؛ فطلب إليه أن يعطيه الثياب، فرفض سعيد، فعمد الرجل إلى قتله وسلب الملابس قسراً، وإنه رغم تقصي الأب عن سبب غيابه لم يعرف عنه شيئاً، وطال الانتظار، وقدم موسم الحج الأكبر، ذهب ضبيه لأداء المناسك في مكة، وفي تجواله بسوق عكاظ رأى قاتل ابنه بنفس ثياب ابنه سعيد، فعرفها فأقبل نحوه وسأله عن مصدر هذه الثياب، فقص عليه بأنه حصل عليها من قتل غلام بالسيف، وهنا سأله ضبيه: أكان ذلك بسيفك هذا؟ فأجابه: نعم. فقال له ضبيه: إني لأجده سيفاً قوياً أرني إياه. فأعطاه الرجل السيف، فما كان من ضبيه إلا أن قال له: الحديث ذو شجون، ووجه إليه ضربة سيف قاتلة، فشاهده الناس وأخذوا يصيحون فيه: أفي الشهر الحرام ترتكب معصية؟ فأجاب: "سبق السيف العذل" وذهب مثلاً.

مرض الحب

نسمع كثيراً قول: "ومن الحب ما قتل" وينبغي ألا يظن أنه لهذه المقولة مناسبة أو قصة جرت في زمن من الأزمنة.

وكل ما في الأمر أن الأصمعي الشاعر الذي يعرفه الجميع قد أورد أنه بينما كان سائراً في البادية لفت نظره حجر كتب عليه هذا البيت:

أيام عشر العشاق بالله خبروا إذا حل عشق بالفتى كيف يضيع

فكتب تحته البيت الثاني:

يداري هواه ثم يكتم سره ويخشع في كل الأمور ويخضع
وفي اليوم التالي عاد فوجد أنه مكتوب تحته:

وكيف يداري والهوى قاتل الفتى في كل يوم قلبه يتقطع

فكتب تحته:

إذا لم يجد الفتى صبراً لكتمان سره فليس له شيء سوى الموت ينفع

وفي اليوم الثالث عاد فوجد شاباً ملقى قرب الحجر ميتاً، ومكتوب تحته هذا البيت:

سمعنا، أتعنا، ثم متنا، فبلغوا سلامي إلى من كان بالوصل يمنع

وبذلك انطلقت حكمة: "ومن الحب ما قتل" وأصبحت متداولة عن ضحايا

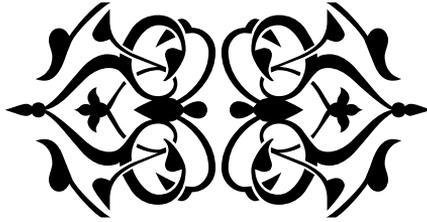
العشق والآخرين الذين يماثلونهم في الوضع، يذهبون ضحية حب عذري جامع، يدعو إلى القول بأن الحب جميل ولكنه قد يكون قاتلاً.

ومن المؤكد أنه قد ثبت صحة هذا القول بحادثة يذكرها أبناء بلدي، وهي قيام أحد

العشاق بإلقاء نفسه من أعلى صخرة المنشرة في الربوة بدمشق منتحراً، بعد أن كتب على

الصخرة عبارة: "أذكريني دائماً" وما أن سمعت العاشقة الخبر حتى انتحرت بالطريقة نفسها وقد كتبت على الصخرة نفسها: "لن أنساك". ويمكن أن تكون هذه الحادثة خير مثال على صحة المقولة التي تضع حداً لعذاب العشق.

وفي جميع الأحوال يجب التذكر دائماً بضرورة تحكيم العقل، وهو أمر واجب في الحالات المماثلة، ولكن ذلك من قبيل المستحيلات؛ لأن العاطفة المتأججة في النفوس الجامحة أقوى بكثير، وتؤدي إلى نتائج مأسوية تدمي القلوب.



قصص من الحياة

إن التحدث بقصص حقيقية من الحياة تفضي إلى بهجة في النفوس أو إلى حسرة وألم، ولكنها في النتيجة تخلق شعوراً لدى المرء إما أن يكون مؤيداً أو معارضاً حسب وقع الحدث عليه.

وإنه من قبيل ما صادفته من قصص كان لها تأثير خاص في نفسي، رأيت أن يطلع إطلاع الآخرين عليها؛ لأنه ليس هناك ما يمنع من التكلم عنها، ويؤخذ بشأنها الانطباع المقنع بحرية تامة، وسأتناول ذكرها تفصيلاً بموضوعية كما جرت وقائعها:

أ- إرادة الطموح

نبيل فتى في السادسة عشرة من عمره، وصل في تعليمه إلى مرحلة الدراسة الثانوية، ينحدر من عائلة متوسطة تتألف من أبوين وشابين وشابة، وكان الأب بائع صحف ومجلات وكتب أدبية، والأم ربة منزل تتقن فن التطريز للملابس الفولكلورية بالخيطان المذهبة، والشاب يعمل محاسباً في أحد المحلات التجارية بعد نيله شهادة المحاسبة من المعهد التجاري، والشابة معلمة في التعليم الابتدائي؛ لتخرجها من معهد المعلمات، راضية بدخلها الشهري الذي بالكاد يغطي جميع متطلبات الحياة.

أما الشاب الصغير فكان حلمه أن يحصل على شهادة الثانوية، ويفرح أسرته بالتخرج طبيياً؛ لأنه على ثقة بقدراته الشخصية في التفوق بدراسته ونيله الدرجات التي تؤهله لذلك، ولكن فاجأه القدر بإضاعة فرصة تحقيق الأمنية الغالية، حيث تعرض الأب إلى حادث أقعده عن العمل، وأضاع على الأسرة مصدر الدخل الأكبر الذي يمكنها من الاستمرار بالعيش بنفس المستوى.

أمام هذا الوضع الجديد أصبح الفتى الصغير في حيرة من أمره، إما أن يتابع مرحلة الدراسة وتعرض الأسرة إلى مشقة الحصول على المتطلبات الأساسية، أو الدخول في معترك

الحياة العملية؛ ليحقق مورداً إضافياً يكفل التوازن ضمن أدنى الحدود، فاختر طريق الكفاح المبكر.

أفصح للعائلة عن رغبته فقبولت بالرفض، ولكنه أصر على قراره وأعطاهها عهداً بأنه سيتابع دراسته بالتعليم الحر في أحد المعاهد.. وهذا ما كان.

رأى الفتى أن يزاول مهنة والده لاعتبارين اثنين أولهما: تمتعه باستقلاله كاملة بعيداً عن الأوامر والنواهي من رب العمل التبعية، وثانيهما: إمكانية المباشرة بالعمل دون حاجة إلى خبرة فنية أو عملية محددة.

مارس العمل بهمة ونشاط بنفس مكان عمل الأب، وقد لاقى كل ترحاب وعون من أصدقاء والده؛ لما يتصف به من أخلاق عالية، وابتسم له القدر بوفرة الزبائن أمام تنوع الخدمات التي قدمها لها، في مجال توفير مصادر الثقافة المختلفة، وبقي على هذه الحال عدة سنوات يتابع خلالها دراسته، ولكن لم يسعفه الحظ بنيل الشهادة.

ومن قبيل الصدف أسرَّ إليه أحد أقاربه الذي يجاور بمكان عمله برغبة تسليم المأجور؛ لعزمه العودة إلى موطنه الأصلي في شمال أفريقية، وكانت فرحة لا تعادلها فرحة، وبدون تردد أبدى رغبته بأن يكون المستفيد، مع موافقته على جميع الشروط التي يحددها، وكان القريب كريماً إلى أبعد الحدود بوعدته بكل صدق وأمانة بأن المحل له ويرتب أموره وقرن القول بالفعل بتسليمه المحل دون تأخير.

أشرقت بوادر الأمل بعد أن افتتح فيه مكتبة نموذجية، ضمَّنها من البضائع ما تجذب الزبائن، إضافة إلى مهنته الأساسية في بيع الصحف والمجلات، وزاد في أصنافها الكتب والمجلات العلمية والمؤلفات الدورية، وبما أنه المحل الوحيد في المنطقة؛ فقد نال الشهرة ووفرة في البيع؛ فكان عامل الجذب الأساسي هو دماثة أخلاقه وصدق تعامله.

لقد كان الفتى الشاب بقراره صائباً حيث وازن الأمور ووجد أنه أمام امتحان صعب، إما النجاح وإما الفشل، واستطاع أن يختار الطريق القويم الذي يساعده على بلوغ الهدف الذي ينشده وفق ما يرسمه القدر، فامتثل للأمر ورضخ للواقع بضرورة الاستمرار في تأمين

العيش الرغيد لأسرته وبالتالي إرساء قواعد بناء المستقبل الذي يليق به في ظروف حياة قاسية.

وفي الحقيقة إن الجو الذي عاش فيه من خلال مزاولته عمله الفعلي أتاح له اكتساب الخبرة والمعرفة واتساع الأفق.

تمثل أولاً في الوقوف على أسرار أساليب العمل المختلفة التي تسهم في زيادة المردود المادي، وكذلك بناء الذات في زيادة ثقافته الشخصية بالعلوم والمعارف المختلفة. مرت الأيام والسنون حيث وقفت الأسرة على قدميها، وتجاوزت مرحلة الحاجة والعوز، وتأهل أخوه وأنجب طفلاً وصبية، وتزوجت أخته ورزقت بتوأم اثنتين من الإناث. كما أنه لم ينس نصيبه من الدنيا بالزواج من صيدلانية أنجب منها شابين وشابة في منتهى التهذيب والذكاء، وقد وفر لأسرته الصغيرة كل أساليب الراحة والعيش الرغيد وحرية اختيار سلاح بناء الذات؛ فاختار الأول دراسة الطب البشري، والثاني الهندسة المعمارية، وامتثلت الابنة لرغبة والدتها بأن تكون وريثتها في ممارسة العمل بالصيدلية الخاصة بها. وما من شك إطلاقاً أن إرادة العزيمة والتصميم يفعلان المستحيل بعونه تعالى، وقد تحققت الشروط التي تساعد على تحقيق تلك الأمنيات.

أدخلت النتائج المثمرة في إعطاء الأب طموحاً جديداً ينسجم والواقع الفعلي، في مجتمع يسعى إلى التجديد والتطوير، حيث بدأ أولاً بالدخول في شراكة مع أحد جيرانه في السوق بتجارة الملابس الجاهزة في بدايتها المزدهرة، والثانية دخول معترك شراء البيوت القديمة الصالحة للبناء وبيعها، تطورت بعد فترة لتكون أرضية لمزاولة ابنه المهندس المتاجرة بالأبنية. وفي إحدى الأمسيات عادت به الذكريات إلى الماضي، وتحدث الوالد لأسرته عن واقع حياته السابقة وما صادفها من حلو ومر، وكفاح ونضال، وركز على ناحية هامة بالتذكير بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت : ٨] وإجابة جدهم حين رفع يديه إلى السماء مردداً قول الخالق: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩﴾

[التَّمَلُّ: ١٩] فانهمرت الدموع من الجميع شكراً للخالق الكريم.

وهنا توجه الأب نبيل بقوله: إنني قد أدت الأمانة على أكمل وجه، ولم يبق أمامنا سوى إتمام أخيكم البكر فترة تمرينه على الاختصاصات الطبية التي سيزاولها في المستوصف الخيري الذي تم إنشاؤه” وإن سروري ووالدتك لا يعادله سرور في الدنيا على الخلفة الصالحة، وتحقيق رغباتكم حيث شاهدنا بأم أعيننا مزاولتكم العمل في كل ميدان، في الطب والعمارة والصيدلة، وفقكم الله، ونحن بانتظار الفرحة الكبرى بزواجكم وخلفتكم الصالحة، فابتهل الأبناء إلى الله تعالى أن يحفظهما بحفظه ويسبغ عليهما ثوب الصحة والعافية.

ب- التعاون العائلي

نزع أبو محمد من قريته إلى المدينة طلباً لتوفير العيش اللائق لأسرته المؤلفة من زوجة وثلاثة فتيان وابنتيه، في ظروف أصبح فيها العثور على عمل دائم قرابة المستحيل، ولتجنب المعاناة التي صادفها شقيقه في توفير العلم لأبنائه.

وفي الغربية يلتئم شمل الأهل والأصدقاء، ويتكاتفون بمساعدة بعضهم بعضاً في حل مشاكلهم، ومن قبيل الصدفة غير المتوقعة عرض أحدهم على أبي أحمد أن يعمل حارساً ليلياً في شركة الزيوت الخاصة التي يعمل فيها بدلاً عنه؛ لأنه ينوي السفر إلى خارج البلاد. التحق الأب في عمله كحارس ليلي، في حين سجل أولاده في المدارس بوثائق النقل التي استحصل عليها من مدارس القرية.

تنفس أبو محمد الصعداء بالحصول على القدر الأكبر مما حمله إلى اختيار المدينة، وبقي عليه الجزء الصعب في توفير تكاليف المعيشة في الحدود الدنيا التي تقف فيها الأسرة على رجليها.

ومن خلال تبادل الأحاديث، طرقت سمع الزوجة من إحدى جاراتها بأنه يمكنها العمل في المنازل كمنظفة يومية صباحية (تلقب بعرف المدينة بـ "لقاية") في عدة بيوت بالأجر المتداول، كما كان الأب قد عزم على أن يكلف أبناءه بغسيل السيارات خارج أوقات

الدراسة، وقد استقر الرأي على اتباعها لتأمين مورد إضافي، حيث عمل الأب خلال راحته في الصباح في غسيل وتنظيف الدرج (سلام العمائر) ومداخل الأبنية، واختارت الأم ثلاثة أسر تعهدت بتقديم خدماتها الصباحية، وعمل الفتيان في غسيل السيارات لدى تاجرين. وسار الأمر على هذا المنوال حيث عاشت الأسرة براحة واطمئنان، ساعد على ضرب عصفورين في آن واحد: العمل وطلب العلم.

وكان باكورة الفرحة حصول الابن البكر على شهادة الدراسة الثانوية، وانتسابه إلى دار المعلمين الابتدائية وتخرجه منها، وتعيينه بوظيفة معلم في مدرسة بالريف. أما الابن الثاني أيمن فقد حصل بعده بعام على شهادة الثانوية، وانتسب إلى كلية الهندسة باختصاص إلكترون، وخلال دراسته انتسب إلى معهد خاص بالكمبيوتر لاكتساب الخبرة العملية، وتخرج ودخل معترك الحياة الوظيفية.

أما الابنة فقد انتسبت إلى معهد التمريض وتخرجت كأخصائية في مجال طبابة حالات الإسعاف الطارئة، وتجبير الكسور البسيطة، وتأهلت من أحد زملائها وأصبحت لها حياتها الخاصة.

أما الابن الأخير محمود فقد حصل على الشهادة الإعدادية، ولكن شغفه كان حب السيارات؛ فحصل على شهادة سوق عمومية، واشترى سيارة عامة، واستخدمها سيارة أجرة دون أن يأخذ بعين الاعتبار نصائح ذويه بمتابعة تحصيله وتحسين وضعه الثقافي الذي ينعكس على مصدر دخله، ويؤمن له ولأولاده المستقبل اللائق، وكانت عواطفه الهوجاء أقوى من النصح؛ فتزوج أرملة كان يعرفها في الماضي، وتكفل بالمصروف على ولديها وابتعد كلياً عن أهله.

وصدقت المقولة أن دوام الحال من المحال.. بأن تستمر حياة هذه العائلة بالراحة المطلقة، ولكن للأسف تعرضت الوالدة إلى السقوط عن السلم خلال أعمال التنظيف مما تسبب في تمزق غشاء الأذن، فاستدعى ذلك إجراء عملية جراحية تطلبت نفقات ناءت الأسرة بدخلها المتواضع عن حملها، ولكن رحمة السماء أتت في الوقت المناسب؛ فأبدت

الأيدي الخيرة السمحاء استعدادها بدفع نفقات العملية كاملة، وقد اشترط الطبيب الجراح أن تجري في مشفى حددها لهم، ليس بمقدورهم تسديد نفقاتها، ومن قبيل المساعدة تطوع فاعل خير باستحصال موافقة من المراجع الصحية بقبولها من أصل العُشر الصحي المخصص لذوي الدخل المحدود مجاناً، وأجريت العملية بنجاح، ولم تتحمل العائلة إلا الجزء اليسير من النفقات؛ لوقوف القلوب الرحيمة إلى جانبها في محتتها، وكد يد العون للمحتاج إليه.

وأما الأب وبعد سني خدمة طويلة استدعاه رب العمل وطلب إليه أن يتقدم بطلب المعاش المبكر، على أن يمنحه مكافأة خاصة خارج استحقاقاته من التأمينات الاجتماعية؛ لأن عمل الحراسة يستدعي الفتوة، وهكذا كان، واتخذها فرصة للعودة إلى قريته والاهتمام بأرضه الزراعية؛ فغرس فيها أشجار التفاح والكرز والكرمة، واستقر هادئ البال مرتاح الضمير في داره بالقرية وقد حقق ما تصبو إليه نفسه من أمنيات عادت عليه وعلى أبنائه بالسعادة والهناء.

ج- ظهور الحق

اعتاد أحد أصحاب البقالات -عند تأخره ليلاً في فصل الشتاء- أن ينام في محله؛ توخياً للحذر في قطع مسافة طويلة مشياً على الأقدام في ظلمة الليل الحالكة، وخاصة في الأيام شديدة البرودة.

وفي صبيحة أحد الأيام عثر عليه مفارقاً الحياة، وقامت أجهزة الأمن بالتحقيق، وتوصلت بعد كشف الطبيب الشرعي على الجثة خلوها من أي أثر جرمي، وأن الوفاة كانت بالتسمم من ثاني أكسيد الكربون من مدفأة الكاز التي انطفأت أثناء نومه، ونشرت الغاز السام القاتل الذي تجتمع في أجواء المحل دون أن يجد منفذاً للخروج منه وتحديد الهواء.

لم يقتنع ابن البقال بالسبب لدخول الشك في نفسه، بأن والده لا يملك في محله مدفأة على الكاز، ولم يسبق له في زيارته اليومية مشاهدتها، ولكن امتثل مرغماً على قبول ما توصلت إليه عناصر التحقيق بأنه ليس هناك عمل جرمي، وأن الوفاة كانت بسبب

التسمم بغاز الفحم، ولم تدخل القناعة في نفسه لما يتمتع بخبرة سابقة.
ركز اهتمامه البالغ حين استلامه شؤون البيع في المحل على تقصي الأسباب الحقيقية
من خلال أحاديث جانبية مع الجيران كبيرهم وصغيرهم، أو مراقبة تصرفات أو أفعال غير
عادية، ودخل في الوقت نفسه مع صداقات لأصحاب أبيه علّه يقف على سر خفي يؤدي
إلى كشف الحقيقة.

تبدى للابن من خلال تدقيق دفتر حساب الديون على الجيران -الذين يحصلون
على مشتريات تسدد قيمتها أسبوعياً أو شهرياً- أن مبلغاً كبيراً قد استحق على أحد
الجيران، ولم يجد إشارة تفيد بأنه قد تم تسديده؛ فعمد إلى مطالبة الجار الذي أفاده بأنه
بريء الذمة، وقد قام بتسديد جميع ما عليه من دين بتاريخ سابق للوفاء، وإذا لم يتم
ترقين القيد في الدفتر؛ فهو تقصير لا يد له فيه وأنه يمكن أن يكون ذلك سهواً.
وهنا "لعب الفأر في عبه" كما يقولون: كيف خلا هذا الحساب بالذات من قفله
بخطين وتدوين عبارة سدد الحساب بتاريخ دفع المبلغ، وكان ذلك أول الخيط الذي حملة
الابن لمعرفة حقيقة الأمر.

بدأ بالاتصال مع أصدقاء أبيه وخاصة المقربين منهم مستفسراً عن علاقته مع أفراد
العائلة المدينة؛ فأجيب بأنها عادية تماماً، إلا واحداً أسر إليه بأن والده المرحوم كان مغرمًا
بأخت الجار المدين، وأنه مفتون بجمالها ورشاقتها، وأنه وقع في شباك شيطانها، وحاول
التقرب منها، ويمكن أن تكون هي السبب في تراكم الدين الكبير، في حين إنه كان لا يتوانى
عن الامتناع عن بيع كل من يتأخر عن دفع المستحق، وأن استمراره في مخالفة عاداته تدعو
إلى الريبة.

وقال آخر بأنه لاحظ علائم السرور والانشراح تبدو على والده، حينما كانت تحضر
لشراء الاحتياجات المختلفة، وكانت بمكر وخديعة تجعله رهن مشيئتها ومدعناً للاستجابة
إلى طلباتها.

أجمعت الأكثرية من الأصدقاء بأنها قد أسرت قلبه ووقع في شباك حبهما، وجميعهم

نصحوه بالأبمضي وراء وهم يحسبه حباً، وهو من قبيل الضحك على اللحي، وأن ما تبدى له سراب وليس بماء، وطلبوا إليه بشكل قاطع أن يعود لرشده ويحكم عقله. ومن خلال ما أوحى إليه هؤلاء تكشفت الأمور، واقترن الشك باليقين، بأن وفاة أبيه المفاجئة جريمة قتل حيكت بإتقان.

وأول ما تبادر إلى ذهن الابن بأن والده قد تحرش بالفتاة وأقدم بتهور جنوبي على الاعتداء عليها ومحاوله "اغتصاب عنوة"، ولكنها تمكنت من التخلص بأعجوبة، وقصت ما حدث لأخيها؛ فاعتبرها طعنة بالغة في شرفه، وكانت ردة فعله أن دبّر موضوع جريمة موضوع القتل والتأثر لكرامة العائلة.

وبعد هذا الاستنتاج الذي وجدته الأقرب عقلياً لارتكاب الجريمة حصر اهتمامه لجمع الأدلة الجرمية.

أخذ يتحين الفرص، فكان له ما أراد حيث إن شقيق الفتاة قد عمد إلى إخراج ساعة جيب لمعرفة الوقت، فشاهده الابن فعرفها.. إنها الساعة التي ورثها المقتول عن أبيه ويعتز بها كثيراً، وكانت هذه الحالة الدليل الأول.

أما الدليل الثاني فكان من قبيل الصدفة أيضاً، حيث طلبت إليه الفتاة أن يساعدها في نقل الاحتياجات التي اشترتها إلى المنزل وعند خروجه من الصالون وجد بندقية صيد والده معلقة على الجدار وتحتها الخنجر الذي كان يحمله ليلاً؛ ليدافع عن نفسه إذا تعرض لاعتداء مفاجئ.

وفي ضوء ما تجمع لديه من أدلة توجه إلى أحد المحامين الجزائريين ووضع الأمر بين يديه لاتخاذ الإجراءات القانونية في ضوء الدلائل التي تبدت، بتوجيه الاتهام إلى الجار وإعادة التحقيق وتحريك الدعوى الجزائرية بحقه في حال ثبوت ارتكاب الجريمة.

وكان أول الأعمال طلب تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة للتأكد ما إذا كان تسمماً بغاز الفحم أم خنقاً وجاءت نتيجة التشريح بأنها خنقاً لانقطاع عملية التنفس بشكل مفتعل.

وفي ضوء ذلك سلّط المحامي إصبع الاتهام إلى جار المقتول، وقدم الأدلة التي تدعم ذلك وحصرها:

- ١- كون المدفأة والوسادة التي عثر عليها بملكيته.
- ٢- وجود ساعة الجيب العائدة للمقتول.
- ٣- وجود بندقية صيد المرخصة العائدة للقتيل في منزله ذات الرقم ... وماركة كذا... موديل

وترك للنيابة العامة تحديد دوافع الجريمة من خلال التحقيق مع المشتبه به، وأمام الحقائق التي أظهرها التحقيق واعتراف القاتل بارتكاب الجريمة تم تحريك الدعوى الجزائية بحقه، وصدر حكم المحكمة بحبسه سبع سنوات تم فيها تخفيف العقوبة لأسباب قدرتها تخفيفية قدرتها المحكمة من ملابسات القضية مع الأشغال الشاقة والحرامان من الحقوق المدنية.

وكانت فرصة الابن لا توصف لعدم ذهاب دم والده هدرًا، وحكم القضاء العادل الذي يضع حداً للجرائم التي تدمي القلوب وتسبب الحسرة والألم في النفوس.

د- القصاص

الدجل من الأساليب الرخيصة التي يلجأ إليها أصحاب النفوس الرخيصة، حتى بات في الآونة الأخيرة ظاهرة يتم فيها التفنن بالأسلوب الذي يستهوي الناس ويتجهون إليه. ومن المؤلم حقاً أن يُتخذ الدين وسيلة للابتزاز، وقد تمثل ذلك من قبل بعض الدعاة إلى الإصلاح والهداية بارتداء ثوب الرحمة والشفقة، لمد يد العون والمساعدة للمحتاجين باسم الدين الذي هم براء منه.

وقد انتشرت هذه الظاهرة، وأصبحت في وقت من الأوقات حديث المجتمع، ومما تم سماعه بهذا الصدد أن إحدى النسوة -التي تملك من المواهب ودرجة الثقافة الدينية التي تساعدها- قامت بالتمثيل بأخذ دور الإصلاح والتهديب والإرشاد إلى طريق الصواب،

ومحاربة مظاهر السوء والفساد والتوجه نحو فعل الخير قولاً وفعلاً.

ومن شدة ذكائها وقدرتها على جذب ذوي النفوس البريئة استهوت بحديثها الشيق وأمثلتها الحية قلوب عدد كبير من الرواد، وكان همّها بالدرجة الأولى اكتساب الثقة والقدرة على التحرك بالأسلوب الذي يتماشى وبلوغ الهدف، وكان لها ما أرادت في إحداث صندوق تعاوني ليكون عوناً لكل محتاج من متطلبات العيش أو الكساء أو الطبابة أو التعليم، إضافة إلى قبول الهبات من جميع أنواع الكساء أو الحاجات المنزلية الأخرى.

وبينت بأنها ستقوم بالتوزيع على أولئك الذين حددهم الله تعالى بقوله في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ [التَّوْبَةُ: ٦٠].

وسمّت ثلاثة من ربيباتها للتقصي عن المحتاجين والتوزيع عليهم بما فرضه الله رحمة بهم، وأنه لا يضيع أجر المحسنين، وأن الحسنات يذهبن السيئات.

وبهدف التشجيع على التبرع كانت تستشهد بأحاديث نبوية مؤثرة في النفوس، بحيث يكون وقعها إيجابياً في الاسهام بأية حملة لجمع مساعدة لمواجهة حالة إنسانية طارئة. وبذكائها الحاد نهجت أسلوب التنوع في مواضيع الدروس التي تتناولها في اجتماعاتها الأسبوعية، وركزت فيها على موضوع الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، بذكر أمثلة متداولة، وأن فعل الخير لا يضيع عند الله ولو كان بمثابة ذرة، وفي هذا السياق تستشهد بأنه قد عُفِر لعاهرة وأدخلت الجنة من خلال إنقاذ حياة كلب كاد أن يموت ظمأً، حين خلعت خمارها وربطت به حذائها وأخرجت ماء من بئر حتى ارتوى من العطش، في حين دخلت أخرى النار لأنها قامت بتعذيب قطة لا هي أطعمتها ولا سقتها، ولم تتركها تخرج من محبسها لتأكل من فتات الأرض حتى ماتت.

ومن قبيل الحقيقة أن ما قامت به الداعية كان ذا حدين تمثل بإدخال الثقافة الدينية، وبث روح الرحمة والتآخي من ناحية، ومن ناحية أخرى حمل السذج ممن تأثر إيجاباً للإسهام

في فعل الخير لاكتساب المغفرة بلجوهه إلى بيع مقتنيات ثمينة لديه للتبرع بقيمتها؛ حباً في زيادة الحسنات، وقد أدى تصرفها الطائش هذا إلى جر ويلات مؤلمة سببت الطلاق وخراب الأسرة.

وفي الحقيقة فإن هذا التصرف الذي قامت به الداعية كان في ظاهرة النصح والارشاد، وفي باطنه الاستفادة المادية بطريق مشروع مستفيدة مما خصه الشرع للعاملين على جمع الصدقات.

وليس في الأمر أي اعتراض إذا كان مقداره في الحدود المشروعة بعيداً عن الجشع والطمع لأن النفس أمانة بالسوء.

ظهرت علائم الغنى على مر السنين، فاشترت لزوجها سيارة خاصة، وتحسنت أحواله المادية، وتم شراء منزل لوحدها تأهل فيه، ولكن كان حساب الدنيا عسيراً، حيث تعرضت وزوجها وابنها وعائلته إلى حادث تدهور أودى بحياتهم.

وصدق رسول الله حيث سئل أو الحلال يذهب يا رسول الله قال: نعم والحرام يا رسول الله: " يذهب وأهله".

هـ- الأمانة

مجموعة من القصص الحقيقية من أرض الواقع:

تاجران امتلكا متجرراً لبيع المنتجات الزجاجية على اختلافها بمخصص متساوية، وجمعتهما الألفة والمحبة وصدق التعامل، ونشأت بينهما صداقة عائلية ضمت أفراد عائلة الأول، التي تتألف من زوجة وابن وحيد وثلاث فتيات، والثاني كانت عائلته تقتصر على الزوجة، لأنه لم يرزق بأبناء لسبب يعود إليه ورضي بحكم القدر. ازدهرت أعمالهما التجارية وأصبحا من سادة الباعة في مضمار المهنة، وقد أعطى الانسجام بين الشريكين انطباعاً كأخوات أخوان، وتمتع كل منهما بالحرية التامة بالتصرف في أمور المهنة، وما استتبعها من أعمال أخرى وكان رائدهما في الإدارة الثقة المطلقة، وكان من

قوتها أن حصل كل منهما من الآخر على وكالة عامة بالتصرف دون الرجوع إلى أحد.
عزم الشريك الثاني على القيام برحلة استجمام عائلية في بعض البلدان الأوروبية
ترفيهاً عن النفس، وكانت متعددة الزيارات بين المدن التي استهوتهما بجملها وروعتها،
وأدخلت في نفسيهما البهجة والسرور طبقاً لما أعربا في رسائلهم والبطاقات المصورة للعالم
الأثرية.

وفجأة وقع ما لم يكن في الحسبان، حيث تعرضا لحادث سير رهيب خلال تنقلهما
بين مدينتين أودى بحياتهما.

طالب الورثة الشرعيون بحقهم من ممتلكات مورثهم، فكان نصيبهم مقداراً لا يتناسب
إطلاقاً مع الثروة التي كان يملكها، وتكشف لهم ذلك من خلال مقارنتها بالمساعدات التي
كان يقدمها لهم في المناسبات بسخاء زائد.

وجرى خلاف حاد أدى إلى اللجوء إلى المحاكم فلم يثمر بسبب فقدانه الأدلة بين
أيديهم، ومهارة الشريك في إضفاء الصبغة القانونية بجميع القيود وعدم وجود ثغرة فيها.
فرضخ الورثة للأمر الواقع تاركين أمر المحاسبة للواحد القهار.

بحكم صلة الجوار بالسكن بين عائلتين نشأت صداقة حميمة بينهما، ارتقت
إلى مستوى عزز الانسجام إلى القول أنه ناجم عن صله قرابة بينهما. وقد
توطدت أواصر الألفة والمحبة حتى باتت الزيارات متواصلة يوماً دون انقطاع
غرست في نفوس العائلتين ثقة عمياء.

تتألف الأسرة الأولى من أب اتصف بمكارم الأخلاق وحسن المعشر وحب فعل
الخير، إلى جانبه ربة بيت نذرت نفسها لتأمين الطمأنينة والأمان، وخلق شعور المحبة بين
رب الأسرة وولديه الابن والابنه.

أما العائلة الثانية فكانت تضم امرأة متواضعة تعيش مأساة فقدان زوجها لانتقاله إلى
ديار الحق تحيط بها الأحزان مع ابنها الوحيد فلذة كبدها في الحياة، وشعرت بما صادفته من

العائلة المجاورة لها ملاذاً للتخفيف من آلامها، حيث وقفت إلى جانبها في مصابها الأليم، وصادفت منها كل عون ومساعدة في وحدتها بالعيش بعيدة عن أهلها وأقاربها المقيمين في بلدان أخرى.

تولى الجار الشاب رعاية شؤونها والعمل على خدمتها، معتبراً إياها بمثابة والدة له؛ لظهور علائم الشيخوخة رغم أنها لم تتجاوز الخامسة والخمسين من العمر.

وهي بالمقابل أودعته الثقة العمياء لسمو أخلاقه وتهذيبه وأمانته التي تجاوزت الحدود، وقد تبدى لها ذلك من خلال حادثة عفوية، أكدت لها صحة استنتاجها في تحليل شخصيته. ويتلخص الأمر بأنها أعطته رزمة مالية طالبة إليه إيداع قيمتها البالغة خمسين ألف ليرة في صندوق توفير البريد؛ فاستلمها دون القيام بعدها للتأكد من صحة مقدار المبلغ، وعند قيامه بإحصائه قبل الإيداع ظهر أنه خمسة وستون ألفاً، أي زيادة خمسة عشر ألفاً، أي ما يعادل رواتب سنة كاملة، مما يتقاضاه من وظيفته التي كان يشغلها في حينه؛ فعمد إلى إيداع المبلغ بكامله في حسابها، وعندما أراد تسليمها الدفتر سألها عن المقدار الذي أعطته إياها فحلفت يميناً مقدساً أنه خمسون ألف ليرة، فقال لها: هوني عليك إن المبلغ خمس وستون ألفاً، وقد أودعته بكامله، ويمكن التأكد بقراءته في إيصال الإيداع باسمك، فشكرته وأبدت عجزها عن رد الجميل، وعهدت إليه الاهتمام بأمورها المالية من الدخل الذي تجنيه من أرباح محل بيع القطع التبديلية للسيارات الذي ورثته عن زوجها، وتقوم بإدارته بنفسها، ولم تتأخر عن استخراج رأيه بكل كبيرة وصغيرة لخبرته واستقامته بمعالجة الأمور بصدق وأمانة.

عزمت مع إطالة الصيف أن تقوم وابنها في زيارة لأختها المقيمة في بلدة الألزاس في فرنسا على الحدود الألمانية، وتطلع على أحوالها عن كثب، بعد طول انقطاع دام عقدين من الزمن، وأصبحت في سن الشيخوخة.

وفي سهرة عائلية أعلمت جيرانها بذلك، وأسرت إلى الجار أن هناك أمراً يجيرها ولا تدري كيف تتصرف حياله؛ لأنه مصيري في حياة ابنها المستقبلية، فخيّرهما بالبوح به إليه إذا

وجدت ذلك مناسباً لتقديم النصيح السديد، فأعلمته أنها ورثت عن زوجها مبلغاً وفيراً من الليرات الذهبية في أسطوانات محكمة الإغلاق من ثلاثة أنواع: الإنجليزية، نابليون الفرنسية، والرشادية العثمانية، إضافة إلى مجوهراتها من الذهب والألماس، ولا تدري أين تحفظها من السرقة في فترة غيابها عن المنزل التي قد تطول حسب الظروف، وكانت صريحة في القول أنها لا تأمن سواه بالحفاظ عليها.

فأجابها بأن الحمل ثقيل جداً حتى إن الله في محكم كتابه قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب : ٧٢] وإنه من وجهة نظره فإن الأمر خطير ومسؤوليته كبيرة، وحبذا لو كان في المصارف صناديق لحفظ الودائع الثمينة يتم استئجارها لهذه الغاية؛ فأجابته أنها بكل صدق تتق به ثقة عمياء إلى أبعد الحدود وليس لها سواه في حفظ هذه الوديعة. تردد كثيراً في إعطاء الجواب، وأمام إلحاحها وتوسلها المستمر رضخ للأمر الواقع وقبل بذلك على أن يبقى الأمر سراً لا يدري به سواهما، والاتكال على الله.

سافرت والطمأنينة تغمرها، وطاب لها الجو بما لقيته من ترحاب وكرم، فغابت عن الوطن ثلاثة أشهر ونيف، وعادت محملة بذكريات حلوة.

وما أن التقى بها حتى ارتسمت علائم البهجة والسرور على وجهه، وقال لها لقد جاء الفرج وحمداً لله على سلامتك، وها هي وديعتك، وهي بنفس الحال الذي تم استلامها منك؛ فرفعت يديها إلى السماء بالدعاء له ولأسرته وأنجاله بالسعادة والتوفيق والنجاح، مذكرة بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن أجر من يرد الأمانات إلى أهلها لا يقل شأنًا.

انتشرت في الأوساط التجارية ظاهرة القيام بجمع مدخرات المواطنين واستثمارها في مجالات اقتصادية متنوعة لقاء أرباح سخية يتم توزيعها على المشاركين شهرياً.

٣

وكانت في ظاهرها خلق أجواء تساعد على زيادة القدرة المالية لذوي الدخل المحدود لمواجهة أعباء الحياة المتزايدة، ولكن مع مرور الأيام اتضح أنها تحمل في طياتها عمليات احتيال للاستيلاء - بطرق غير مشروعة - على الأموال التي تم جمعها بالإعلان عن الإفلاس أو الخسارة الفادحة للفشل في التسويق أو الكوارث المفتعلة، أو الأسباب القاهرة بعوامل مفتعلة، سببت ضياع حقوق المودعين، وملاحقة جامعي الأموال قضائياً، والحجز على ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة التي لا تغطي إطلاقاً التعويض المادي للمتضررين.

وهناك نوع آخر مماثل بالنتيجة حيث يقوم بعض مزاولي مهنة التجارة الإعلان عن رغبتهم بتوسيع مجالات الاستثمار بصفقات تجارية إضافية لأعمالهم الأساسية، بالمتاجرة بأعمال مضمونة الربح، باللجوء إلى إغراء ذويهم وأصدقائهم بالمشاركة ويجنون أرباحاً تخرج عن حدود المألوف.

وبهذا الصدد استطاع أحد هؤلاء بما يملكه من صفات خلقية عالية، وسمعة طيبة في التعامل؛ لأمانته ونزاهته، أن يجمع مبلغاً لا يستهان به من مجموعة لا تتجاوز أصابع اليد دعماً لملاءته المالية؛ لتمويل مشروع استيراد ضخّم لمواد يفتقر إليها السوق وسهولة الرواج الصناعي.

لم يدرك أحد الهدف الذي كان يرمي إليه من وراء جمع المال سوى ما أفصح به عن رغبتة في توسيع أعماله التجارية ذات المردود المالي الجيد.

ويهدف غرس الثقة في نفوس الذين أودعوا أموالهم لديه بسند أمانه وزع عليهم بعد مدة أرباحاً من عائدات أعمال تجارية قام بها خارج المشروع الذي ادعى أنه قد تعاقد مع إحدى الشركات الأجنبية لتصنيعه.

ومن وقت لآخر كان يُمني النفوس المتعطشة إلى الثروة ورغد العيش بأن عملية توريد المواد قد أصبحت في مراحلها النهائية.

وفجأة دون سوابق إنذار فوجئ المودعون بأن التاجر قد وقع عملية احتيال في حسابه الجاري بالقطع الأجنبي نتيجة تلاعب قام به أحد العاملين في المصرف، فتم سحب الرصيد

بكامله من خلال تزوير في وثائق عملية فتح الاعتماد المستندي للجهة التي ستتولى التصنيع، وأنه اتخذ الإجراءات القانونية لمطالبة المصرف بالتعويض، لأنه مسؤول عن أعمال تابعيه ومخالفاتهم.

طار صواب المودعين لما أعلن عجزه مادياً عن دفع سندات الأمانة التي بحوزتهم، فطلب إليهم التريث والتذرع بالصبر، وسيبذل جهده في توفير ما يعطي جزءاً يسيراً من مبالغ الإيداع.

ولم يلجأ المودعون إلى القضاء لأن جميع الاستشارات أجمعت على أنه سيتحجج بالخروج منتصراً بالادعاء على أنهم شركاء في الصفقة لقاء تقاضي نسبة من الربح؛ لأنه حسب العرف التجاري بتحمل الشركاء المسؤولية في حالة الربح أو الخسارة أو أي ضرر مادي مهما كانت نسبته، وأمام النصيحة لم يحركوا ساكناً منتظرين رحمة السماء.

وإتقاناً للتمثيلية التي أعد مضمونها مسبقاً بإتقان؛ أعلن للملأ بأنه كان ضحية مثلهم، وأنه انطلاقاً من حسن التعامل سيقوم بتسوية ودية بالتعويض عليهم في حدود ضيقة، واسترد منهم سندات الأمانة، وبذلك ضاعت حقوق المساهمين الذين لم يبق أمامهم سوى القول حسبنا الله ونعم الوكيل.

دخّل شخص إلى غرفة هاتف للعموم في أحد شوارع المدينة؛ فوجد على أرضها حقيبة يد من الجلد؛ فأجرى عدة اتصالات مطولة على أمل عودة صاحبها لاستردادها، ولكن لم يتحقق ظنه، فحملها وتوجه إلى محله، وهناك فتحها فوجد فيها مجموعة من الأوراق والمستندات والوثائق، ورزماً ثلاثة من المال بالعملة المحلية والدولارات والدنانير، ولم يعثر على ما يساعده على معرفة العنوان، ولكنه وجد بطاقة لمكتب عقاري دوّن عليها اسم أحد الأشخاص.

اتصل بالرقم المذكور وعرف بنفسه، وطلب إرشاده إلى عنوان الاسم المدون على البطاقة إذا كان معروفاً لديهم، فستل عن السبب، وتوخياً للحذر أفاد بأن هذا الشخص

قد اشترى مجموعة من الملابس الجاهزة، تم اجراء بعض التعديلات عليها وأصبحت جاهزة ليدعوه إلى استلامها؛ لتأخره في الحضور لحاجته إلى رصيد القيمة، فوصل إلى رقم الهاتف في الدار التي استأجرها.

اتصل به وأعلمه أنه بانتظاره في مخفر الشرطة المجاور لمحله ليسلمه الحقيبة فاقترح عليه ألا يتدخل الأمن بالموضوع، ولكنه أصر على أن يكون التسليم بضبط أصولي إبراء لذمته. وبعد أن تأكد رئيس المخفر من عائدتها إلى المدعي من خلال بيان محتوياتها تفصيلاً وصحة رقم المبالغ التي فيها نظم ضبطاً نظامياً، تم التأكيد فيه على اعترافه الصريح بجميع المحتوى دون أي انتقاص وبشكل قاطع لأي ادعاء.

عمد صاحب الحقيبة بهدف تكريم رجال الأمن والشخص الأمين بمبلغ زهيد لا يتناسب إطلاقاً مع حجم المبلغ الذي يحتويه.

فأجابه الشخص رده إلى جيبيك، إن فعل الخير لا يعادله شيء في الوجود، والثواب عند رب العالمين.

وفي الوقت نفسه اعتذر رئيس المخفر عن قبول أية هدية؛ لأن ما تم القيام به هو من المهام الأساسية لهم برد الأمانات إلى أصحابها.

وكم كان حرياً بهذا الانسان أن يكون حذواً لشخص آخر وقع في حالة مماثلة فقد نسي حقيبتة في سيارة تكسي كانت تقله، وعثرت عليها إحدى النسوة حين جلست على المقعد الخلفي؛ فأخبرت السائق، فتوجه من فوره إلى مخفر الشرطة مع السيدة لتكون شاهداً على الأمر وأنه أحضرها دون أن يلمسها.

استدعي صاحبها وأخذ أقواله وبعد التأكد من عائدتها له تم تسليمه إياها، وإعراباً عن شكره وامتنانه أخرج رزمة كاملة من المال تزيد عن عشرات الألوف، وطلب من رئيس المخفر توزيعها على أصحاب الفضل؛ فأعلمه رئيس المخفر أنها ستكون هدية منه لمستحقيها المرأة والسائق، وأن ما تم القيام به من رجال الأمر كان تلبية للواجب.

و- الجشع

تتأثر طبيعة النفس البشرية بعاملين أساسيين، الأول: التربية العائلية، والثاني: الواقع الاجتماعي؛ فيكون منها ما طبع على الشهامة وحب فعل الخير، وآخر يغلب عليه فيها الغدر والأضرار بالآخرين دون أي رادع.

وفي الحقيقة إن سلوكية المرء وتصرفاته مهما كانت تنطلق مما يملكه من مآثر حميدة متأصلة في أعماقه، ولكن للأسف الشديد هناك فئات من البشر ينقادون وراء عواطفهم والانسياق نحو تصرفات معاكسة تماماً لما كانوا يحملونه من مزايا خلقية كريمة.

بعد هذا التذكير بأمر منسية، سيتم التحدث عن قصة حقيقية كمثال حي، تتلخص بأن أحد الورثة قد عهد إلى أخيه بتوكيل أصولي، قبض جميع حصته من الإرث الذي آل إليه شرعاً من والده، وأعطاه الحق كاملاً للقيام بجميع الإجراءات نيابة عنه؛ لأنه مقيم في ديار الغربية، يمارس أعمالاً تجارية خاصة به.

وقد قاده فكره التجاري إلى الطلب من أخيه بأن يتولى استثمار حصته من الإرث في المجال التجاري الذي يحقق الدخل الوفير.

قام الأخ الوكيل بإجراء دراسة مستفيضة عن الأعمال التي تساعد على ذلك حسب الأنشطة الرائجة بشكل مضمون، وانصب على اختيار تجارة شراء أو بيع العقارات القديمة؛ لإشادة أبنية عليها في أمكنة التنظيم، أو المشاركة مع بعض تجار البناء في بعض المشاريع، وكانت أكثر تداولاً من غيرها في الأعمال وابتعادها عن الخسارة.

كانت نظرته باختيار هذا النوع من الأعمال في محلها، حيث كانت النتائج خلال الممارسة العملية مذهلة، عادت بأرباح تفوق حدود التصور، زادت حصته أضعافاً مضاعفة لطول فترة الاستثمار.

ولم يكن التوفيق والنجاح في العمل خافياً على أحد من أخويه الاثني الآخرين، ومن الأهل والأقرباء والأصدقاء، وظهرت بوادره من خلال تحسن الواقع المعيشي للوكيل القانوني بكل وضوح للعيان.

مرت السنون وعاد حنين المؤكّل للعودة إلى الوطن، وقدم مع عائلته محملاً بالأمل أن يستأنف عمله التجاري بما يملكه من قدرات مالية تساعد على ذلك، وكان أول عمل قام به هو تأمين مستلزمات الإقامة له ولبنيه بالشكل الذي يتناسب مع ملاءته المالية. وبعد انتهاء تأسيسات الإقامة الدائمة في أرض الوطن، باشر باستخراج رأي زواره المهنيين من أقارب وأصدقاء وأصحاب الفعاليات الاقتصادية حول مختلف أنواع الاستثمارات الرائجة؛ فتم الإجماع على أنه رغم الأوقات الصعبة التي مرت بها البلاد كانت مستمرة دون انقطاع، ولم تسفر عنها أية أوضاع مدمرة.

انتقل بعدها الى الاجتماع مع أخيه الوكيل طالباً إليه تقديم كشف حساب تفصيلي لوضعه المالي.

استهل حديثه بالشكر للعلي القدير الذي أعاد أخاه سالماً غانماً ليتولى بنفسه أخذ الحمل الثقيل الذي أرهق كاهله؛ مشقة ومسؤولية، وهو بغنى عن التكلم المستفيض، لأن لغة الأرقام تتكلم، وها هي مفاتيح المكتب، وقد احتوى من الوثائق والمستندات ودفاتر الحسابات الأصولية بما يساعد على ذلك.

ولكن الشيء الذي ركز التأكيد عليه أنه بعد مباشرة العمل بفترة وجيزة تعرضت الأعمال إلى وضع مأسوي لم يكن في الحسبان، أدى إلى مفاجآت مدمرة، حالت دون تنفيذ الخطط والبرامج الموضوعة للمشاريع المختلفة، وكان أهمها صعوبة تدارك المواد الأولية لها، ولاسيما المستلزمات الأساسية لوقف الاستيراد، لعدم توفر القطع الأجنبي بسبب صراعات دولية وإقليمية، والاضطرار إلى تداركها من السوق السوداء بأسعار تكاد تكون خيالية في بعض الأحيان، نتيجة الجشع من الباعة، وزيادة الطلب عليها خوفاً من فقدانها، ووقوع الخسارة المفاجئة، وقد نجم عنه تراجع كبير في ميادين الاستثمار من ناحية، وزيادة التكلفة للمشاريع القائمة، مما جعل حسابات "الحقل" لا تتفق مع حسابات "البيدر".

ذهل الوكيل مما سمعه، وذهب ظنه إلى أن نتائج الأعمال أصبحت صفراً، وأن مشاريعه المستقبلية وئدت في مهدها.

قام بما يملكه من قدرة عالية وخبرة عملية في مجال الاستثمار وميدان الربح والخسارة، واستنتج بشكل كبير جداً أن هناك اختلالاً كبيراً في الوضع المالي دون أي شك، ولاسيما أن جميع الدلائل تشير إلى عدم تعرض الأعمال إلى حالة خسارة واحدة، وظهر له أن مجموع الأرباح الصافية لا تتجاوز نسبة الـ ٣٥٪ من رأس المال، في حين إن الواقع الفعلي يجب أن يكون أضعافاً مضاعفة.

جمع إخوته الآخرين، وأخبرهم بالحقيقة المرة؛ فأبدوا دهشتهم واستغربوا هذا التصرف الشائن الذي تدحضه الدلائل الفعلية.

تم بحث الموضوع ونوقشت جميع جوانبه، ولم تسفر النتائج إلى أي تراجع في الموقف، شارحاً لهم عبء المهمة الثقيل، وما صادفه من مشقة ذهبت كلها مع الريح، وأكبر همه أنه كان لا يذهب المبلغ برمته مع الريح.

رئي بعد إجماع المستشارين أنه لم يبق سوى اللجوء إلى التحكيم علّه يعود إلى رشده. وخلال دراسة الموضوع من مختلف جوانبه، وكون جميع المستندات والوثائق مستوفيه جميع شرائطها القانونية، أعلن رئيس اللجنة أنه لم يبق سوى تطبيق القاعدة الفقهية: "البينة على المدعي واليمين على من أنكر" فأبدى استعدادة حلف اليمين، وهنا انبرى الوكيل له بمنعه عن حلف اليمين الذي تدل جميع الظواهر بأنها كاذبة، وذكره حقه برفض ما توصلت إليه اللجنة قائلاً: "أفوض أمري إلى الله مذكراً للجميع بقول الشاعر:

ويا رب نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحاب
وأمام سوء الأمانة التي تبدت للجميع بشكل قاطع، قوبل من قبل الإخوة بالمقاطعة وبالخصام من الأقرباء والأصدقاء، مما اضطره إلى شد الرحال والهجرة إلى بلاد الغربية.

ز - القناعة

انتقل امرؤ إلى رحمته تعالى، وخلف وراءه زوجة وشاباً في الثامنة عشرة من عمره في مرحلة الدراسة الثانوية، وفتاتين في مرحلة الدراسة الإعدادية، نذر نفسه بكل ما يستطيع

لتغطية جميع مستلزمات حياة العائلة المعيشية قدر الإمكان ضمن حدود تقبلوها شاكرين
لنعم الله عليهم، ونصيبيهم في هذه الحياة.

وفي هذا الوضع المأساوي الذي فقدت فيه الأسرة راعي شؤونها كان لا بد من إيجاد
المخرج الملائم لاستمرار طابع العيش الذي اعتادوا عليه، وكان في إعلان الشاب بكل إرادة
وتصميم بأنه سيكرس جميع طاقاته لتنفيذ هذه المهمة، باعتباره يتمتع بخبرة عمل أبيه من
خلال مساعدته أثناء العطل الدراسية.

استلم محل أبيه ومارس مهنة تنجيد المفروشات بأنواعها بكل نفس هنية، نابعة من
سلوكية واثقة، تواكبها الأمانة والشرف، وفي الوقت نفسه ملازمة الحنين إلى الدراسة التي
كانت كالدماء تجري في عروقه؛ فتابعها بإرادة وتصميم، وحصل على شهادة الثانوية بشكل
حر، ولكنها لم تصرفه عن مزاوله المهنة لأن راتب الوظيفة على أساسها يؤدي إلى تراجع
ملحوظ في الدخل، ينعكس على حياة الأسرة التي اعتادت عليها.

ومع مرور الأيام وسَّع مجال عمله ببيع الفراش والوسائد والطراريح الجاهزة، وشراء
المستعمل منها، وإعادة تصنيعه بشكل جيد وجميل، وبينما كان يعيد تأهيل إحدى
المفروشات من الصوف عثر فيها على رزمتين تحوي الأولى على كمية من الليرات الذهبية،
والثانية على مجوهرات ثمينة، فأصيب بذهول شديد وارتبك في أمره، ووجد نفسه أمام خيارين
اثنين إما الاحتفاظ بها وتكون عاملاً هاماً في تحسين مركزه المهني ووضع المعيشي، وفي ذلك
ارتكاب معصية يحاسب عليها أمام الله تعالى، أو سلوك الخيار الثاني بتسليمها إلى رجال
الأمن علّه يستطيع أن يردّها إلى مالكيها إذا كان هناك إخبار بفقدانها.

وقع في صراع نفسي كبير، فأتجه إلى خالقه تعالى لإرشاده إلى طريق الصواب، ومن
قبيل الصدفة الحارقة زاره أحد زملائه في الدراسة وهو يمارس مهنة المحاماة؛ فسأله عن
الأحكام المنظمة للموضوع، فزوده باستشارة تقضي بما تم الإجماع عليه شرعاً، أنه يجب
البحث عن صاحبها بالإعلان عن ذلك بوسائل الاعلام المتبعة لأوقات متعددة، لمدة سنة
كاملة فإذا حضر صاحبها استردها وإن لم يأت فإنها تصبح لمن عثر عليها وهذا حكم

اللقطة في شرع الله، وأكد له أنه في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: “أنه إذا وجد المرء في الطريق أو في ملكه دراهماً أو متاعاً آخر عليه أن يعرّفها سنة فإن لم تعرف فهي له” وبين له المحامي أنه من الصعوبة بمكان العثور في مثل هذه الظروف على صاحبها؛ لأنه يتوجب عليه بيان صفات اللقطة وإماراتها الخفية تفصيلاً تنفيذاً لقول رسول الله ﷺ: “أنه لا تحل ساقطة إلا للمعرف”.

ثم استدرك الحديث بأنه قد طرق سمعه عندما كان يصلح سيارته عند أحد الميكانيكيين بأن حماته قد سرق فراشها من السطح بينما كانت تعرضه للهواء والشمس، ويجوي ثروة قيمة، فإذا أحببت نذهب سوية إليه، وتصف صاحبة الفراش المحتوى بدقة، وبعد دخول القناعة الكاملة بملكيتها ترد إليها، فعمل بنصيحته.

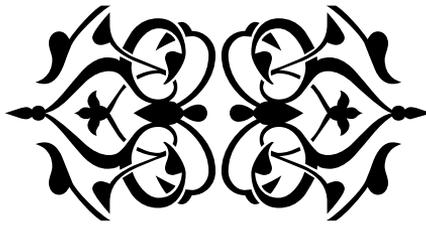
طلب إليها تحديد المحتوى جملة وتفصيلاً، وحددت معاملها بمنتهى الدقة والأوصاف الصحيحة، وظهرت صاحبة اللقطة المحفوظة في الفراش بيقين كامل من الجميع، وبما لا يقبل الشك والريبة.

ولما شاهدت اللقطة قد ردت إليها كاملة دون انتقاص، خاطبت المنجد قائلة: جزاك الله عني كل خير، فإنها كانت ثروة عمري الطويل في ممارسة مهنة التوليد كقابلة قانونية، وأنا عاجزة عن الشكر، فهي هي النقود بين يديك وخذ منها ما تشاء وأنا راضية ومن كل قلبي. وهنا أجابها بقوله صدق رسول الله ﷺ حين قال: “الحلال يذهب أما الحرام فيذهب وأهله”.

وهنا اقترح المحامي أن تحبه نصف ما قرره الشرع وكان ذلك. ونقدته ما يستحقه بكل نفس هنية.

خلاصة القول

يستدل مما أوردته بمجموعة القصص أنها قد تضمنت سلسلة من الأعمال المتناقضة:
"الخير والشر، الأمانة والغدر، القناعة والطموح، الاستقامة والتلاعب، الإرادة والحمول"
وهي لا تدعو إلى الغرابة؛ لأنها من طبيعة النفس البشرية منذ خلقها الله، دلّت عليها الأوامر
والنواهي السماوية، وما ورثته الأجيال من أقول رددتها ألسنة الناصحين، وما استشهد بها
الشعراء في قصائدهم عن الصفات البشرية الخاطئة.
وفي جميع الأحوال يجب ألا يتسرب اليأس في استحالة استئصال السيئة منها من
النفوس لأنه رغم وجودها في جميع العصور استمرت الحياة.



قادة من التاريخ

هناك قادة سطرّ التاريخ أسماءهم إلى الحد الذي يدعو الى تذكرهم بعد رحيلهم من الحياة، لما تركوه من بصمات خالدة في هذا العالم. ومهما كان الاختلاف أو الاتفاق معهم فإنه والحقيقة تؤكد على قدرات غير محدودة وذكاء خارق، ومن قبيل التعرف على مآثرهم الحميدة أو التذكير بهم وجدت من المفيد اختيار بعض المشاهير العرب والأجانب لأختتم ما افتتحته بنفحات مضيئة، ومن هؤلاء:

أ- القادة الأجانب

هانيبال

أحد قادة الإمبراطورية الرومانية، يتمتع بشخصية مذهلة، يرتعد خوفاً كل من يسمع باسمه، خشية وقوع مصيبة، وكان قائداً عبقرياً يتمتع بقدرات هائلة في وضع الخطط الحربية، يقال إنها تطبق حتى يومنا هذا، وتخليداً لذكراه وضع له تمثال من البرونز في كوبنهاغن بالدانمارك، والآخر في مدريد بإسبانيا، مع لمحة موجزة عن سيرته الذاتية.

الإسكندر المقدوني

هو أحد ملوك مقدونيا الإغريقي الذي لا يعرف التاريخ مثيلاً له في جميع الحروب التي قادها، ولم يخسر بها واحدة، وتمكن بانتصاراته تأسيس أعظم إمبراطوريات التاريخ، امتدت من بحر الأيوني غرباً حتى جبال هيمالايا شرقاً، وأصبحت أساليبه الحربية مواداً تدرس في المعاهد العسكرية.

نابليون بونابرت

كان امبراطوراً لفرنسا في القرن التاسع عشر، نال شهرة لا مثيل لها في كثرة الحروب

التي خاضها منتصراً في روسيا، ومعظم البلاد الأوروبية ومصر وفلسطين.

سون تزو

قائد صيني وخبير عسكري كبير، وفيلسوف عاش في عصر ما قبل الميلاد، وضع كتاباً بعنوان "الحرب" يعتبر أول كتاب عسكري في العالم ضمنه خلاصة تجاربه الخارقة في الحروب.

غيوركي جوكوف

يعتبر من أعظم القادة العسكريين في روسيا، خاض سلسلة من المعارك خلال الحرب العالمية الثانية، وخرج منها منتصراً، خلد اسمه في التاريخ، وتم منحه أرفع الأوسمة، وأصبح أعظم القادة العسكريين في القرن العشرين.

أرفين رومل

وباعتباره أمهر القادة العسكريين في حروب الصحراء أطلق عليه اسم "ثعلب الصحراء" واكتسب من خلال المعارك التي خاضها في الحرب العالمية الأولى أعلى مرتبة عسكرية "مارشال"، وما زالت كتبه التي وضعها في المواضيع العسكرية تدرّس حتى تاريخه في الكليات العسكرية؛ لما تضمنته من خطط حربية في غاية البراعة، تجلّت فيها عبقريته الفذة.

ب- القادة العرب

صلاح الدين الأيوبي

أبرز القادة العرب وكان رمزاً من رموز الفروسية والشجاعة، ضرب أروع الأمثلة في الحروب التي خاضها وحرر مدينة القدس من احتلال الفرنج لها خلال الحروب الصليبية،

واستعداد جميع الأراضي في فلسطين. وقد كانت معركة حطين أبرز المعارك على الإطلاق. ومن أخلاقه الرفيعة في التسامح والإنسانية والأعمال الحسنة أصبح أكثر الأشخاص تقديراً واحتراماً من قبل خصومه.

طارق بن زياد

يعتبر أحد أشهر القادة العسكريين في التاريخ، وأهمهم على الإطلاق، وكان إنساناً متواضعاً وفتياً لكل من وقف معه، ولم ينكث عهده أبداً. حقق هذا القائد إنجازات عسكرية واسعة، أهمها فتح بلاد الأندلس، وكان مقاتلاً شجاعاً، نسبت إليه قصص وصلت إلى حد الأساطير، منها حرقه الأسطول البحري الذي استخدمه للانتقال من شمال أفريقيا إلى إسبانيا حتى يحقّر جنوده للاستبسال في القتال، وتمنع عنهم التفكير بالانهزام أو الانسحاب، وقال خطبته الشهيرة: “أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم إلا الصدق والصبر” فاستبسل الجنود وفني الإسبان بعد معارك ضارية بهزيمة نكراء، وقد سمي المضيق البحري الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالأندلس باسم “مضيق جبل طارق” تخليداً لذكرى هذا القائد العظيم.

عقبة بن نافع

أحد القادة العظماء الذين نشروا العروبة والإسلام في المغرب العربي، ولد قبل وفاة الرسول الكريم ﷺ بسنة واحدة؛ لذلك فهو تابعي جليل، أدرك عدداً كبيراً من صحابة رسول الله ﷺ، تربطه صلة قرابة بعمرو بن العاص.

غزا عقبة أفريقية واختط القيروان وبنائها ومسجدها الكبير، وأصبح والياً عليها، ثم استأنف فتوحاته في زمن يزيد بن معاوية، واقترب من حدود المغرب الأقصى الشرقية، وقاتل جيش الروم، ودخل مدينة طنجة، وعزز فتوحاته بجيش كثيف، مما مكّنه من فتح حصون ومدن عديدة، وتابع انتصاراته حتى المغرب الأقصى، عازماً الوصول إلى المحيط الأطلسي،

وقال قولته المشهورة: "اللهم اشهد أنني قد بلغت الجهود، ولو لا هذا البحر لمضيت أقاتل في سبيلك حتى لا يعبد أحد من دونك" واستشهد مع كمين نصبته له جماعة من البربر، ودفن بمقبرة من تهوذة مع عدد من الصحابة بنيت عند أضرحتهم قرية سميت "سيدي عقبة"، وتذكر كتب التاريخ أنه كان قائداً شجاعاً، ووالياً حكيماً ومن الصالحين مستجاب الدعوة.

خالد بن الوليد

صحابي وقائد عسكري عظيم، لقبه رسول الله ﷺ "بسيف الله المسلول"، اشتهر بحسن خططه العسكرية وبراعته في قيادة الجيوش، وخاض غمار معارك ضارية في حروب الردة، وفتح الشام والعراق، وهو من قادة الجيوش القلائل الذين لم يهزموا أبداً في المعارك التي تزيد عن مائة مع الروم والفرس، وتعتبر أهم انتصاراته الحاسمة في معارك اليمامة و أليس والولجة واليرموك وفتح دمشق.

كان إيمان القائد خالد قوياً، نذر نفسه لنصرة الدين الحنيف، ولم يتأثر -لسمو أخلاقه- عندما عزله الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ من قيادة الجيش، وأصبح جندياً مقاتلاً إلى جانب الصحابي أبي عبيدة بن الجراح، وانتقل إلى حمص وعاش فيها أربع سنوات ودفن فيها بمسجد شيد باسمه، ومن حبه للجهاد قوله وهو على فراش الموت: "الرجال يموتون في المعارك وأنا أموت في فراشي كالبعير... أوقفوني... أوقفوني لا نامت أعين الجبناء" ومات وهو واقف على قدميه والرمح في يده.

لقد مات هذا البطل الشجاع على فراشه مردداً القول: "لقد شهدت مائة ألف زحف، ولا يوجد في موضع بجسدي إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم". ولم يترك إلا فرسه وسلاحه وقلنسوته التي فيها شعيرات من شعر النبي الكريم ﷺ.

امتحان صعب

أشرت في المقدمة إلى أنه سأقوم بذكر بعض الأمور والحوادث التي كنت محورها الأساسي، وليس ذلك من قبيل الزهو أو التباهي، إنما هي المفاجآت غير المتوقعة، تحمل المرء على القيام بها لاعتبارات مختلفة، تتبادر للذهن أهمها القول: كم هو مناع للخير؟. وفي الحقيقة إنه لو تم التفكير ملياً بما قد يترتب عليها من نتائج؛ لأحجم عن تنفيذها ضارباً عرض الحائط لأي تفسير مهما كان نوعه، دفعاً لعواقب هو في غنى عنها. وإن ما ذهبت إليه في هذا الرأي ليس القصد منه غرس الشك في النفوس، بل الدعوة إلى أن تكون القرارات مبنية على دراسة معمقة. وأبين هنا أهم ما في جعبتي منها:

جاء أحد أقاربي ليودعني قبل سفري إلى فرنسا لاتباع دورة مسلكية في المجال الإداري والمالي وأعلمني أن ابنه يتابع موضوع انتسابه إلى جامعة السوربون في باريس، وهي نفس المدينة التي ستكون فيها الدورة، وأفاد أنه أصبح في ضائقة مالية شديدة ويحتاج إلى مساعدة عاجلة؛ فخطر بباله أن يرسل إليه المبلغ المطلوب بحوالة مصرفية، وليس من سبيل لتسليمه إياها سوى أن أقوم بهذه المهمة. بعد وصولي إلى باريس اتصلت به هاتفياً فأفادني أنه في مدينة غرونوبل خارج مدينة باريس يتبع دورة باللغة الفرنسية، ولا يمكنه الانقطاع عن الدورة، واقترح إرسالها بالبريد العاجل، فأجبت أنه يرجئ سفره ليكون في العطلة الأسبوعية ويستلم الحوالة يداً بيد، وجاءني على موعد في أحد المقاهي، وكنت صحبة بعض الأصدقاء، وبعد واجب الضيافة طلبت إليه أن يكتب إيصلاً بخط يده ويوقع عليه مع شاهدين، على أن يدون ظهر الإيصال هويته تفصيلاً، تردد بادئ الأمر ثم أذعن للطلب.

عدت بعد ثلاثة أشهر، وحضر قربي مهنتاً؛ فسألته عن المرحلة التي وصل إليها موضوع استكمال دراسة ابنه العليا، فأجابني بأنه وللأسف الشديد عاد بخفي حنين؛

لأسباب لا حاجة لذكرها، فما كان مني إلا أن أحضرت إليه الايصال باستلامه المبلغ الذي أرسل إليه ليتأكد من تسليمه في الوقت المناسب.

٢
حضر الى مكتبي أحد أصدقائي وتربطني به صلة تكاد أن تكون أخوية وأفادني أن صهره زوج أخته يرغب بشراء أرض زراعية بمحيط مدينة دمشق ملاصقة للأرض التي يملكها، وهي حيوية بالنسبة إليه لأنه إذا بيعت لغيره تكون عائفاً في البناء أو البيع مستقبلاً، وأنه من الصعوبة بمكان أن يحصل عليها بالشراء المباشر من ابن عمه، لأنه لا يوافق مهما كانت الأحوال ببيعه إياها لخلاف عائلي لم تصلحه الأيام، بسبب اختلاف وجهات النظر وقت توزيع الميراث من الجد الأكبر للعائلة. واقتراح عليّ باعتبار أن مالکها قد أعلن عن بيعها أن أكون الشاري، ولن تلحق بي أية مشقة سوى حضور جلسة البيع التي سيتولى رئيس المكتب العقاري ترتيب الأمور على الوجه المطلوب.

تمت عملية الشراء، وتم تسجيل ملكية الأرض باسمي في الدوائر العقارية، وصدر صك التمليك الذي احتفظ به الشاري الحقيقي.

مضت مدة تزيد عن عام، ونسيت الموضوع جملة وتفصيلاً، وأعيد إلى ذاكرتي من قبل أحد زملائي في العمل، حيث سألتني عن نيتي في التصرف بالأرض التي أملكها؛ فأجبت أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل، وسألته عن السبب فأعلمني أنه يعمل خارج أوقات الدوام الرسمي في مكتب والده العقاري، وهناك راغب بشرائها بسعر مغر للغاية، وفجأة اتصل بي صديقي بأنه قد تم بيع الأرض وسيصبحني لإفراغ الأرض إلى الشاري، وأن الموضوع لن يأخذ من وقتي سوى بعض الدقائق، لقيام المختص بإنجازها، ولم يبق سوى الإقرار بالبيع وقبض القيمة.

بعد مدة جاء زميلي بالعمل معاتباً لعدم تجاوبي معه في بيعها، وحرمانه من عمولة لا تعوض لارتفاع القيمة عن الحدود المتوقعة، فما كان مني إلا الاعتذار إليه، وعتبت على

الذاكرة التي خانتني وقتها، وسردت له حقيقة الأمر تفصيلاً؛ فسألني أن أجيبه بصراحة عن مقدار المبلغ الذي خصني به المالك، ونسبتها قانوناً كبيرة تقلب وضعي المالي رأساً على عقب.

وكنت صادقاً حين أعلمته بأنها كانت هدية متواضعة لطفلي الذي رزقت به، وهي عربة أطفال، وقطعة ذهبية لآية قرآنية لا يتجاوز ثمنها الثلاثمائة ليرة.

وكردة فعل لدي عمدت إلى زيارته صحبة صديقي في داره لأشكره على هديته، وقدمت له هدية جهاز هاتف يدوي في منتهى الروعة لحداثته، وأن ثمنه بصدق يعادل ثلاثة أضعاف ما قدمه، وانتهى الأمر عند هذا الحد، دون أية إشارة إلى موضوع المتاجرة بالأرض، وبقيت حسرة في نفسي أنه لم يعرف قيمة الهدية التي قدمتها له حتى ولو كانت عبارة شكر.

دعيت إلى وليمة غداء أقامها صديقي إعراباً عن امتنانه وشكره للخدمة التي قدمتها لصهره، حضرها جميع أفراد عائلته وصهره، ولم يكن بعيداً عن قرابتهم سواي، لقد كانت وليمة زاخرة مجموعة من المأكولات الشرقية أعدت من قبل طهارة مهرة أقبل عليها المدعوون بشهية كبيرة.

وخلال جلسة تم فيها تبادل الأحاديث اقترب مني شقيق الصديق الحامي، وفاجأني بما لا أتوقعه إطلاقاً، وهو مساعدته في تقديم خدمة حيوية بالنسبة، إليه تتلخص بأن يعمد إلى نقل ملكية دار يملكها إلى اسمي ليتمكن من إخلائها من المستأجر، لما يعانيه من غبن فاحش في أجر العقار الذي لا يتناسب مع المساحة والموقع المتميز، نتيجة التخفيضات المتتالية التي لحقتها.

أجابني عن استفساري بأنها مؤجرة لموظف مع عائلة تضم أمماً وزوجة وأربعة أبناء، وليس له أي مورد إضافي سوى راتبه الذي يتقاضاه.

فسألته عما أجنبيه من وراء ذلك؛ فأعلمني بأنني سأعيد الحقوق الضائعة -دون وجه حق- إلى أصحابها، وسوف تكون خدمة لن ينساها.

فنظرت إليه نظرة تأمل بصمت برهة من الزمن في محاولة تجعله يدرك الخطورة التي سوف تسفر عنها في حالة ربح الدعوى، ونتائجها المأساوية على المستأجر، ومن المؤسف أنه لم يدرك ما هدفت إليه، فأجبت بصريح العبارة: إنني أرفض قطعاً هذا الطلب الذي لا ينسجم مع سلوكياتي التي أوّمن بها، ويجعلني أرتكب إثماً يحاسبني عليه ربي؛ لأنه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وإنني أمد يدي لفعل الخير دون مناقشة إطلاقاً، ولن أكون معول هدم في حياة أسرة وتعريضها إلى عالم مجهول لا يعرف ما يحملها لها من مآسي وآلام، ولا أرضى أبداً أن ترفع أيدي إلى السماء وتناشد الخالق الكريم أن يقتص من الظالم.

وختمت كلامي بتذكيره قول رسولنا الكريم ﷺ: "اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الخالق حجاب".

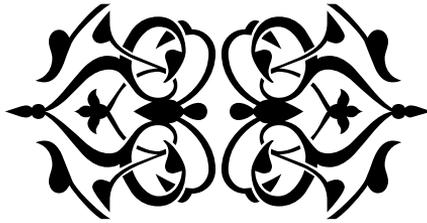
وكانت درساً جعله يطأطئ رأسه خجلاً من نفسه وأنانيته البشعة.

عهد إلي أحد أقاربي مهمة الإشراف على شؤون عمله التجاري في بيع مستلزمات البناء بموادها المختلفة، وسلمني رزمة من المفاتيح لمتجره، ومخزن المواد ومحلات البيع، وذلك خلال فترة غيابه خارج القطر لمدة لا تتجاوز الأسبوع؛ للوقوف عن كذب في موضوع متابعة تحصيل ولده الوحيد في التخصص العالي في الاقتصاد وإدارة الأعمال.

وبعد سفره دققت مجموعة المفاتيح فوجدت بينها مفتاحين أحدهما للصندوق الحديدي في مكتبه، والآخر لمستودع المواد المستوردة، فبادرت من فوري إلى استدعاء المحاسب والمسؤول عن عمليات البيع، وطلبت اليهما ختم الصندوق الحديدي وباب مكتب صاحب المتجر والمخزن بالشمع الأحمر بشكل أصولي واتخذت من مكتب المحاسب مكاناً لتواجدي.

ووجهت بالاستمرار بالعمل دون أي تبديل، مع مراعاة أن يتم حفظ الواردات في صندوق المحاسب القانوني، والبيع الإفرادي من مخزون موجودات محل العرض، وتحديد تاريخ

تسليم مواد الجملة بعد أسبوع من عملية الشراء.
وخلال الاتصالات الهاتفية المتبادلة معه أكدت عليه بأن حركة السوق تستوجب وجوده على رأس العمل لما يتمتع به من خبرة، مع تطمينه بأن الوضع على ما يرام.
ولما عاد اصطحبته إلى متجره وشاهد بأمر عينه الوضع؛ فاستغرب، فقلت له: أشكر لك ثقتك الغالية، وما قمت به تفادياً لوقوع ما لا تحمد عقباه.
فما كان منه إلا ضمّني إلى صدره معانقاً؛ إعراباً عن امتنانه، وكان هذا الحدث امتحاناً صعباً خرجت منه -والحمد لله- بسلام وراحة ضمير متناهية.



خلاصة القول

لقد كان لما سمعته من قصص وأحاديث عن حالات سوء الائتمان والغش والخداع والاحتيال التي تصدر من ذوي النفوس الوضيعة؛ ما جعلني أتوخي الحذر، لئلا أقع في أحد المطبات التي لا تحمد عقباهما، ولكن رغم ذلك كنت ضحية بعض التصرفات التي قمت بها دون دراسة العواقب بشكل مسبق اعتماداً على أسباب سأبينها عند ذكرها.

١ ذلك بسبب تقصير شخصي مبعثه الخجل، وكان المطب عندما كلّفت شفهيّاً وليس بمستند أصولي يحدد الحقوق والواجبات في موضوع إعداد أنظمة إدارية ومالية وتنظيمية؛ لقاء تعويض مادي جيد جداً، وبعد انتهاء العمل وتقديمه وإقراره من الجهة المختصة، فوجئت بالممانعة عن دفعه لأسباب أجهلها، وضاع حقي لعدم وجود المؤيد القانوني للمطالبة به قضائياً، وعزّيت نفسي بالقاعدة الفقهية التي تقول: "المقصر أولى بالخسارة" وتركت أمر محاربة من حرمني من حقي لرب العالمين.

٢ وهذه القصة بسبب اتخاذ الظواهر الخادعة، حيث كان اعتماد الثقة العمياء بأحد الأصدقاء المقربين الذي ينحدر من أسرة متدينة، تتحلى بالأخلاق الحميدة، والسمعة الطيبة، وقد اتصف بنفس السجايا؛ فعهدت إليه باستثمار مبلغ من المال آل إليّ إرثاً من والدي -يرحمها الله- وكان نصيبي ادعاؤه الإفلاس، وضاع حقي مع أمثالي من المشاركين الآخرين، وتركنا أمر الحساب للقاهر الجبار.

٣ بالاعتراف الصريح كان تصرفاً طائشاً عامله السرعة: حيث استدعيت أحد الأصدقاء من ذوي الخبرة والمعارف، وأوكلت إليه مهمة إجراء إصلاحات جوهرية في داري، ونقدته سلفة مالية لشراء مستلزماتها الأساسية كدفعة أولى، فذهب بها دون رجعة، واحتفظ بمبلغ وفير لنفسه، ووقفت مكتوف الأيدي لعدم معرفتي عنوانه، وقيامه بتبديل رقم هاتفه الخليوي، مفوضاً أمري إلى الله.

عفوية رد جميل

أستهل هذه الزاوية بما قاله شاعر عصره المتنبي:
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ما أروع هذه الحكمة البليغة التي تشجع على الإحسان وتقديم الجميل إلى الآخرين،
لما فيه من ثواب ومكرمة عند الخالق والبشر.
ولا بد من التذكير هنا بأن وقع رد الجميل في النفوس ذا تأثير كبير في ظروف ملحة،
وفي أجواء يكون فيها المستفيد لا حول له وقوة، حيث يظهر الوفاء بأبهى صورة.
وأضرب هنا أمثلة حية عن ذلك لحوادث جرت معي بالذات، بكل صدق وشفافية
كيلا يذهب الظن بأنها من نسج الخيال.

دعني الحاجة للحصول على صورة لوكالة قانونية، فقصدت دار الكاتب
بالعدل، فوجدت أمام نافذة الموظف المختص جمهرة من المواطنين، يتزاحمون
ويدفعون بعضهم بعضاً، دون الالتزام بالدور، فهالني الأمر، وخشيت أن تفوتني
فرصة تقديمها في الوقت المحدد، فما كان أمامي إلا اللجوء لالتماس العون، فتوجهت إلى
رئيس القسم؛ فاستقبلني بكل ترحاب، وقرع الجرس وكلف الأذن أن يقوم المختص بإنجازها
في أسرع وقت، وجلست أنتظر، وأحب ضيافتي فشكرته، وما هي إلا دقائق حتى وردت
الصورة مصدقة حسب الأصول، فرجوته -بالحاح- إعلامي بالتكلفة، فما كان منه إلا أن
أجاب: بأن ما قام به إنما هو جزء بسيط من خدمة قدمتها إليه حين كنت بالوظيفة، في
مرحلة كاد اليأس أن يقتله نفسياً فشكرته وانصرفت.

٢

في طريق عودتي من زيارة شقيقتي في عمان، قام مراقب الجمارك بتفتيش الحقيبة فوجد فيها ثلاث قطع من القماش، وبعض الهدايا، فسأل: ما هذا أهـي للتجارة؟ ودخلت معه في نقاش، فثار وغضب، وبيّن أنها تستوجب المصادرة لزيادتها عن الحدود المسموحة، فما كان من ضابط الجمارك -وكان خلفي- إلا أن تقدم وقال له بكل أدب -رغم كونه رئيسه-: لا مانع، اسمح له بإدخالها، ولكل قاعدة استثناء؛ فامثل لأمره، وأمسك الضابط بيدي وسار إلى جانبي قائلاً: ألم تعرفني؟ فاعتذرت بأن عتبه على الذاكرة التي خانتني؛ فأعلمني أنه كان أحد طلابي عندما كنت في سلك التعليم، وأشهد الله بأنني كنت وجدانياً في عملي، ومشجعاً على طلب العلم، وأستحق الشكر، وقلت له اسمح لي أن أقول بصراحة: إنك كنت بغاية الحكمة وحسن التصرف في معالجة الموضوع، وشكراً.

٣

وقفت بدوري في رتل من المواطنين أمام كوة المختص بدائرة الهجرة والجوازات انتظر ساعة الفرج التي قد تطول، وفجأة اقترب مني شخص وأمسك بيدي وأخرجني من الصف وعانقني، وطلب إليّ أن أتبعه، فدخل غرفة رئيس القسم وعرفني إليه، وأكد عليه أن يتولى بنفسه عملية تحديد الجواز، وفعلاً قام بالتنفيذ بمنتهى السرعة؛ فشكرته وهممت بالخروج، فقال الشخص موجهاً كلامه إلى رئيس القسم: اسمع يا بني إنني مدين لمن ساعدته بخدمة طوّقت بها عنقه، حيث كان عوناً كبيراً لي في إيجاد عمل وظيفي لأختك في ظروف حدثتكم عنها آنفاً، فأجبتني أنني لم أقم إلا بواجبي، وغادرت شاكرًا.

خاتمة

أكون بما قدمته آنفاً قد أتيت على جميع الأمور التي حددتها لتكون القصص والحوادث، وما أسفرت عنه من نتائج، بأمثلة حية يحتذى بها إن كانت ذات طابع يهدي إلى الطريق القويم، أو تجنبها دفعاً لارتكاب أي عمل أو تصرف يسيء إلى الآخرين.

وبهذا السياق يمكن -بعد استعراضها- استنتاج الأسباب والدوافع التي كانت فعلاً وراء حدوثها، إن كانت خيراً أو ارتكابها إن كانت مسيئة، وظهر بشكل جلي واضح أنها لم تكن وقفاً على عصر معين، وإنما هي منذ الأزل وحتى يومنا هذا.

وإنه رغم الأوامر والنواهي التي جاءت في الأديان السماوية التي تشجع على فعل الخير وتدعو إلى تجنب ارتكاب المنكر، فإنه وللأسف الشديد ما زالت تتكرر ونسمعها أو نشهدها من خلال وسائل الإعلام المسموعة أو المرئية التلفزيونية، مما يدعونا إلى التساؤل: هل بالإمكان الوصول إلى المجتمع المثالي؟ أم يبقى ذلك في عالم الأحلام.

كما أن أسلوب تنوع المواضيع التي وردت فيها سيسهم في زيادة المعلومات لأمر نادرة لم يبق تداولها سابقاً.

ختاماً أرجو من صميم قلبي أن أكون -في حدود إمكانياتي- قد حققت ما أخذته على عاتقي قدر المستطاع.

وأضرع إلى الله العلي القدير أن يغرس في نفوسنا القدرة على الكتابة؛ لأنها من اختصاص المهرة، ويشجعنا في الوقت نفسه على القراءة لأنها غذاء الروح.

والحمد لله رب العالمين

م ٢٠١٧/٢/٧

محمد لطفي الغنام

مذكرات الجزء الثاني



إهداء

باسم المروءة والوفاء..

أهدي هذه المذكرات إلى أولئك الذين سحّروا حياتهم لرعايتي والاهتمام بي.. وكان لهم فضل كبير في مسيرة الحياة.

أكرر هنا بأن يد الامتنان أقدمها لمن أسهم في مد يد العون إليّ؛ لتجاوز قسوة الظروف الاجتماعية التي عشتها في العقدين الثالث والرابع.. وبفضل من الله تمكنت من تجاوز جميع الصعاب والوقوف على قدمي بثبات.

ولكيلا يتطرق الشك بأنني أستثني أحداً.. فإهدائي من حيث الشمولية يتناول كل من له حق عليّ.

بهذه المذكرات نهجت أسلوباً استوحيته من مجلة المختار التي كنت أتابع قراءتها في الخمسينات؛ فكانت بلسماً شافياً، أغنت نفسي بالعلوم والمعارف الثقافية والأحوال الاجتماعية والتاريخية، حتى إنها كانت تتطرق إلى نشر قصص من واقع الحياة؛ فأرست في أعماقي حب المطالعة والتزود بالثقافة.

لقد أطلقت على هذه الومضات عنوان "مختارات من الحياة" لتنوع ما جاء فيها من مواضيع تدخل البهجة وتذهب الملل.

أختم إهدائي بأن أتوجه إلى أبناء وطني الكبير وأبنائي البررة، بأن يكونها يداً واحدة في السراء والضراء تسودهم روح المحبة والوئام، وأحب أن أذكرهم بقول أحد الحكماء:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً
وإذا انفردن تكسرت آحاداً
وختاماً أمل أن تكون هذه المختارات قد لبّت أمنية من يقرؤها، وتدخل إلى نفسه البهجة والسرور.

٢٥/٨/١٤٣٧هـ الموافق ١/٦/٢٠١٦م

بكل محبة ووفاء/ محمد لطفي الغنام

بسمه أمل

لا أخفيكم سرّاً أن ذكرياتي السابقة قد اقتصرت على مجموعة محددة مما يختلج في صدري؛ لأنني كنت في سباق مع الزمن، لذلك عمدت إلى استغلال هذه الفرصة الذهبية بتسليط الأضواء فيها على أبرز الأمور؛ لأتبعها بأخت لها، تتضمنها أرجى تبيانه كسباً للوقت، عملاً بنصيحة القول إن تقديم شيء أفضل من لا شيء.

لقد توخيت في مذكراتي الأم أن أضمنها من الأمور أكثر ما يغطي بعض الجوانب التي مررت بها، إضافة إلى التركيز على ناحية هامة، وهي التكلم بإيجاز عن أهم الأحداث التاريخية في المرحلة التي سبقتها قطعاً لكل تساؤل.

هذا.. وإن متتبع الأحداث المؤلمة التي يمر بها وطننا العربي الكبير، يلمس بشكل قاطع لا يقبل الشك بأنها ثمرة من ثمرات المؤامرات الدنيئة التي رسمها المستعمر الجديد خدمة لمصالحه، تدعونا إلى تسليط الضوء عليها للخروج منها بسلام. وأن الواقع الذي نعيشه اليوم يدمي القلب ويبعث على الحزن والأسى، لما آلت إليه الأمور، ويدفعنا إلى الابتهاال إلى الله العلي القدير أن يحقق الأمن والاستقرار في ربوع بلادنا الحبيبة والتألف والمودة فيما بينها. والله ولي التوفيق،،،

رؤى سابقة

رغبة في إحاطة من لم تتح له الظروف قراءة وأخذ فكرة عما جاء في المذكرات السابقة، أجد من المفيد أن أسرد من جديد ما يجيش في صدري من ذكريات، لم يكن من المستطاع أبداً الإحاطة بها دفعة واحدة في مهلة تسابق الزمن. لذلك أقدم باختصار ما جاء في المذكرات السابقة لإعطاء فكرة عن مختلف الأمور التي جاءت عليها.

أ- الحوادث التاريخية

- ١- لمحة تاريخية عن ملابسات المؤامرات والاتفاقيات المعادية للثورة العربية الكبرى.
- ٢- تنفيذ أحكام اتفاقية سايكس بيكو واقتسام الغنائم.
- ٣- الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان، وفرض الانتداب عليها.
- ٤- معركة ميسلون والتضحيات الجسام لوقف العدوان.
- ٥- ظهور المقاومة، ومقاومة المحتل للرجوع عن تقسيم البلاد.
- ٦- ملخص عن المخطط الاستعماري الجديد بتجزئة سورية إلى دويلات.
- ٧- قيام الثورات العارمة وإعلان الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش.
- ٨- الدور الذي لعبه رجال الوطن الأحرار في مجابهة المحتل، وحمله على تطبيق حكم دستوري شرعي بسيادة كاملة.
- ٩- نتائج الحرب العالمية الثانية بإعلان استقلال سورية وجلاء المحتل الغاشم عن أرض الوطن.

ب- المذكرات الشخصية

- ١- لمحة موجزة عن تاريخ العائلة التي أنتمي إليها، وشرح موجز عن أسلوب حياتها.

- ٢- فكرة عن طبيعة البيئة التي عشت فيها، والصلات الاجتماعية بين سكان الحي.
- ٣- صور من الماضي عن أسلوب الحياة في ظروف قاسية.
- ٤- شرح توضيحي لمراحل التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي والجامعي.
- ٥- ملامح حية عن الشهامة وسلوكية أفراد المجتمع التي تتسم بالبروءة والوفاء.
- ٦- مرحلة التكوين الذاتي في ميدان العمل الوظيفي في التعليم والاتصالات.
- ٧- أهمية الدورات التدريبية في تهيئة الكوادر المتخصصة.
- ٨- شرح تفصيلي لنوعية الأعمال الوظيفية التي قمت بها في المجالات المختلفة.
- ٩- نوادر وطرف وحوادث عابرة.
- ١٠- تقديم خلاصة عن تجاربي في الحياة العملية.

خاطرة

إن من يستعرض تاريخ وطننا العربي يجد أنه تعرض خلال القرون الماضية إلى عراق قاس مع الزمن، يخرج من ورطة قاتلة إلى ما هو أعتى منها. ومن قبيل التأكيد على أن ما شهده من أحداث ليست وليدة وقتها، وإنما كانت دفينة في قلوب يملؤها الحقد، انتظرت الفرصة السانحة لتتروى ظمأها الشديد وتحقق حلمها الذي نامت عليه طويلاً.

وحمداً لله فإن تلك الغمة التي مرت بها البلاد لم تدم طويلاً وقطف شعبها ثمار التضحيات، ونعمنا بما يجب أن تنعم به من رخاء، ولكن العاصفة كانت أقوى بكثير وهبت من جديد لتتال حربة عدد من بلاد العرب في شرقه وغربه، شماله وجنوبه، وذقت مرارة الاحتلال وبشاعته، ولكنها وقفت صامدة كالصخرة التي تتلاطمها الأمواج، حتى تكلفت معارك النضال بالفوز والنجاح، ولكن وللأسف الشديد لم يدم ذلك طويلاً؛ لأن ما كان يرسم في الخفاء أقوى وأعتى مما كانت تتصوره العقول.

وكيلاً يقف المرء مندھشاً أمام مجريات الأحداث، أصبح من الضروري أن يتم تسليط

الضوء على التسلسل التاريخي لها والظروف التي كانت وراءها. هذا وإن عودة سريعة إلى الوراء تظهر بوضوح الأطماع الاستعمارية منذ المعركة الثامن عشر والتاسع عشر، بدأ باحتلال جزئي للمغرب العربي من قبل فرنسا (المغرب، الجزائر، تونس) نهمتها من فم الدولة العثمانية التي كانت تحتل القسم الأعظم من وطننا الغالي، أعقبها احتلال إيطاليا (ليبيا) واستحوذت إنكلترا على أجزاء أخرى بحجة حماية طريق الهند. وما أن بزغت شمس الحرية ولاح في الأفق بوادر الاستقلال التام؛ لينعم وطننا في العيش الرغيد، حتى بادرت الدول الاستعمارية إلى الإعلان عن نواياها وما حاكته من مؤامرات بالخفاء إلى ترجمته قولاً وفعلاً، باحتلال أراضيه من أجل اقتناء هذه الجوهرة الثمينة. وللوقوف حجر عثرة أمام تقدم شعوبه؛ ليحتل مكانه اللائق تحت الشمس، إضافة إلى ناحية هامة برهنت الأيام على صحتها، وهي تجزئة الأوطان وبث روح الفرقة بين أبنائه. وخير مثال هو زرع الكيان الصهيوني في أرض فلسطين العربية، وكذلك التنازل عن بعض الأقاليم في شمال سورية وضمها إلى الأناضول في تركيا، وسلخ لواء إسكندرون، واعتباره أرضاً تركية؛ خلافاً للمواثيق والاتفاقات الدولية.

الأطماع الخفية

مما لا يقبل الجدل فإن الهجمة الشرسة قد آتت أكلها عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث إنها تمخضت بظهور عملاقين كبيرين في العالم، الأول: العالم الرأسمالي وتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية، والثاني: العالم الشيوعي الاشتراكي، ويتزعمه الاتحاد السوفياتي ما لبث أن احتدم الصراع بينهما حول اقتسام دول العالم الثالث؛ ليكون تابعاً مالياً لها في تنفيذ مخططاتها التي يراعي فيها بالدرجة الأولى مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ومن الطبيعي جداً أن يكون الوطن العربي الكبير المرمى الأول لها، واحتدت سبل المنافسة الضارية؛ لإخضاع أكبر عدد ممكن من دويلاته تحت سيطرتها بطرق ملتوية؛ لتدور في فلكها، اختلفت كلياً عن مفهوم الاحتلال المباشر والهيمنة على مقدراتها، واستغلت موضوع حاجتها الملحة للمساعدة الفعالة في جميع الميادين للتغلب على المشاكل والصعوبات التي اعترضتها للخروج من مخلفات الماضي (التأخر والتخلف) لمواكبة مسيرة الحضارة. ومما سهّل على تمرير المخططات التآمرية والأهداف، هو الواقع العربي، حيث تصرفت كل دولة عربية لمعالجة الوضع بمفردها بنهج يختلف من بلد لآخر، أو من خلال تكوين اتحادات أو تكتلات لم يكن لها أي بعد في التنمية والتطوير، وبقيت اسماً بلا مسمى، وانقسمت في علاقاتها مع تلك الدول بعضها نحو الغرب وأخرى نحو الشرق وكانت المعركة شرسة لم تلق في نتائجها رغبة مجموعات دول الطرفين، مما دفعها إلى وضع منهجية جديدة تقوم بالدرجة الأولى حول الاستمرار في تنفيذ مخططاتها، وبالتالي رسم السبل الهادفة إلى وضع حاجز فكري أمام تصاعد المذهب الاشتراكي.

لقد أفرز هذا التطور الهام في العلاقات الفعلية ظهور منظمة عالمية، انطلاقةً من معيار سياسي يتمحور حول قطبين يضم دول الشمال: "الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي والصين واليابان وكندا وأستراليا" ودول الجنوب: "دول متباينة في أفريقيا وبعض بلدان آسيا، ومجموعة البلدان العربية. وتتميز العلاقة بين هاتين المجموعتين بهيمنة دول الشمال

على دول الجنوب اقتصادياً وثقافياً.

وقد بُني تصنيف هذه الدول على أساس أن دول الشمال تتمتع بجميع مقومات الحياة الأساسية من حيث القوة الاقتصادية والثقافية، وقطع أشواط مبهرة في التطور والنمو والأمن الغذائي والظروف الصحية والفوارق الطبيعية.

في حين إن دول الجنوب بعضها مرتبط بالأديان السماوية الثلاثة، ومهد الحضارات، وبعضها يملك ثروات ضخمة من المواد الأولية للصناعة والنفط والغاز، ولكنها في الوقت نفسه تعاني من ويلات التأخر المرحلي من حيث الاقتصاد ونقص الانتاج الفلاحي والغذائي، وبنية سكانية مبنية على الازدواجية بين ما هو عصري وتقليدي.

ومن هذا المنطلق يتضح بشكل جلي أن العلاقات بين دول الشمال ودول الجنوب على المستوى الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي هي نتيجة مراحل تاريخية ذاتية مرتبطة بدول الجنوب.

ويهدف تمكين دول الشمال من تحقيق ما تصبوا إليه فإنها كانت ملزمة بتحديد أطر التعاون في مختلف الميادين على نحو تبدو فيه البراءة وسمو الأهداف والرغبة الصادقة في معالجة الداء بعيداً عن كل غاية.

وقد نجحت ووضعت يدها على مكامن ما تعانيه دول الجنوب من مشاكل وصعوبات، حصرتها بالمساعدات التالية:

- ضمان السلام والاستقرار واحترام حقوق الإنسان.
- التسامح الديني والثقافي وتحقيق الديمقراطية.
- معالجة قضايا المرأة والشباب والتربية والعمل الجماعي.
- معالجة الصراع العربي الإسرائيلي.
- معالجة النزوح السكاني من الريف إلى المدن، ووضع ضوابط للهجرة المشروعة.
- إنشاء مناطق للتجارة الحرة.
- تقديم المساعدات المالية.

وفي الحقيقة إن كل ما ظهر للعلن كان من قبيل إظهار النوايا الحسنة قولاً وليس فعلاً، واتجهت توجهات دول الشمال الحقيقية حول استعادة النفوذ والهيمنة وتبعية الدول لها.

وما نشهده هذه الأيام من أحداث دامية ما هو إلا ثمرة من ثمار الحقد والكراهية، يدعو إلى الوقوف بحزم أمام هذه الهجمة الشرسة التي تستهدف أمتنا وبقاءنا في الوجود.

رأي

أرجو المعذرة لأنني ذكرت هذه الخاطرة، فهي تمثل واقعنا الحالي وأسباب نشوء ما نعانيه من ويلات تدمي القلوب من أطراف تظهر المحبة والمودة، ولكنها في الحقيقة تحمل المعول الهدام في كياننا ووجودنا.

وفي الوقت نفسه عمدت إلى توسيع شمولية المذكرات بحيث سوف نتطرق إلى جوانب أخرى متنوعة في مواضيعها، لكل منها لون خاص به لشد القارئ، ودفعه إلى المتابعة، وصرف الملل عنه، وأطلقت عليها تجاوزاً عنوان "مختارات من الحياة، ذاتية، تاريخية، أدبية، نوادر وطرائف، نماذج من العلاقات البشرية.. الخ".
أمل من أعماقي أن تنال الرضا والقبول.

بدايات

ما إن أشرقت شمس الحرية على ربوع بلدي الحبيب سورية وما نعمت به شعوب وطننا العربي الكبير من عطاء كريم، من أكرم الأكرمين، حتى بدأت بوادر النهضة تظهر للعيان في مختلف مرافق الحياة، وبدأت الشعلة المضيئة التي انتقل حملها إلى الجبل الصاعد -المتسلح بالفكر والإيمان وعزة الأوطان- تبشر بغد مشرق يعيد لها مكانها اللائق تحت الشمس.

فحمداً لله وشكراً له لما نلمسه ونراه من أفضال أسبغها علينا نعم فيها بجودة كرمه، يحسدنا عليها القاصي والداني، وتحدثاً بنعم الله، أنها لا تقل شأنًا وبشكل قاطع لما هو في البلاد والتي تدعي التفوق وتتعالى عن الآخرين.

وما تمر به بعض البلدان في المرحلة الراهنة ما هو إلا سحابة صيف ستنجلي بإذن الله، وتزول هذه الغمة، وتبدأ مرحلة جديدة، مرحلة الأخوة والبناء وإعادة إصلاح ما قسى به الدهر علينا.

من هذا المنطلق سوف أتناول التركيز على ذكريات دفعتني ضيق الوقت إلى إرجائها إلى حين، على أن يتخللها ذكر بعض الأحداث الشيقة بما يسر القلوب، وتبرهن على عراقة شعبنا العظيم بشهادة الآخرين.

والآن أقول عدنا -والعود أحمد- للكلام على ما يجيش في أعماقي من ذكريات على نفس النسق السابق، من حيث تضمينها أموراً يستوجبها سياق الحديث، لتضفي جواً من البهجة والسرور.

بينت أنني قد عشت في حي تم بناؤه خارج سور مدينة دمشق، ضم أبنية حديثة من الحجارة وفق النسيج العمراني الجديد، ودور للسكن على غرار مدينة دمشق القديمة، موزعة على أحياء ضمت عائلات مالكة ومستأجرة، مع الأخذ بعين الاعتبار توفير الأسواق المحلية المختلفة التي تغني عن تحمل المشقة إلى الذهاب إلى مركز المدينة؛ لتأمين جميع المتطلبات الأساسية، إضافة إلى إنشاء ظاهرة الباعة الجائلين الذين يتنقلون من حي إلى حي بعرباتهم

ليبيع بضائعهم، منادين على وجودهم بالصياح بأعلى أصواتهم، لما يحملونه من حوائج الناس، وفي الحقيقة كانت سوقاً متنقلة بكل معنى الكلمة، خففت حملاً كبيراً على رب العائلة، حيث كانت ربة البيت تؤمن جميع متطلباتها باستثناء اللحم الذي كانت من مسؤوليات الرجل.

كما وأن تجمع النسوة حول الباعة المتجولين لم يغن إطلاقاً قد تبادل الأحاديث والقيام بزيارات قصيرة لشرب القهوة والدردشة.

أما الزيارات التي كان عليها المعول في أمسية كل يوم هو أن عدداً من النسوة يؤلفن مجموعة تقوم بتبادل الزيارات دورياً، تكون فيه الضيافة نوعاً من المأكولات الشرقية العريضة: (الكبة المقلية، الحراق اصبعو، أرز مجليب، البالوظة، الكاتوه، الكنافة...) مع تناول المشروب الساخن أو البادر حسب فصول السنة، وكن يتسامرن وهن يتسلين بالمسكرات، وكان من المتعارف عليه أن الاجتماع كان باسم (الاستقبال)، وكان له دور هام في توطيد أواصر الصداقة والمحبة بين أكثر عائلات الحي.

ومن قبيل أن الشيء بالشيء يذكر، فإن موقع الحي كان استراتيجياً، لا يقل شأنه عن وسط مدينة دمشق، حيث كانت الدور الجنوبية منه تقع على مرتفع أجمل حديقة في دمشق أطلق عليها اسم (المنشية) ملاذ المواطنين على اختلاف فئاتهم، ذكوراً وإناثاً للاستجمام والراحة والاستمتاع بمشاهدة تدفق مياه نهر بردى الخالد أمام ناظرهم.

وقد انعكس هذا الموقع الباهر على تصميم البيوت، فظهر الفن المعماري الدمشقي الأصيل الذي اشتهرت به دمشق، حيث كانت متناسقة بجمالها الأخاذ من بدايته في منحدر مدرسة التجهيز حتى نهايته عند قصر الضيافة، وقد شمله التحديث والتطوير، وأقيم على أرضه في يومنا هذا فندق الفصول الأربعة، وأسواقه الجميلة الحافلة بأحدث منتجات الأزياء والاعطور وأدوات الزينة لأشهر الماركات العالمية.

ولابد هنا من القول بأن المشرفين على تصميم الفندق وإنشائه أخذوا بعين الاعتبار الحفاظ على جامع تاريخي قديم بناه الأمير فروخ شاه، تم إبرازه لرواد المقاهي والاستراحات

على نحو جميل أخاذ.

أما من الناحية الشمالية فكانت -إلى جانب البيوت- بعض المحلات التجارية ومدرسة ابتدائية خاصة يجاورها مسجد الإسعاف الخيري للعبادة، وقبالته كنيسة متميزة بناقوسها المشيد بفن معماري رفيع، وإلى جوارها بناء مدرسة الفرنسييسكان الخاصة. أما من الناحية الشرقية من الحي فتقع مدرسة التجهيز الأولى، وقد شيدت على أرض واسعة بفن معماري عال المستوى من الحجارة المنقوشة البيضاء، تحيط بها حديقة غناء، وتزهو مداخلها بممرات تفصلها عند ساحاتها الداخلية حواجز حجرية بيضاء نصبت عليها أعمدة أقواس السقوف.

وقد روعى عند بنائها الحرص الشديد بأن تكون في منطقة من أجمل مناطق دمشق على ضفاف بردى، لتكون صرحاً علمياً يظهر للعالم بأن الشرق يبقى منارة للعلم والمعرفة والثقافة والنهضة؛ لإقامة ظاهرة اقتصادية هامة عليها، حيث شيد البناء في بقعة غنية بفن معماري يبهز الألباب، ما زال على جماله الفاتن حتى يومنا هذا.

ومن قبيل الصدف الخارقة انتشرت في تلك الحقبة من الزمن ظاهرة إقامة المعارض في بعض بلدان العالم، وأنه رغم الظروف القاسية التي كانت تعاني منها البلاد في عراقتها السياسي مع الغاشم للوصول إلى حكم ذاتي مستقل يبشر بالجلء التام عن أرض الوطن، رأت السلطة السياسية الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية لتقديم البرهان الساطع للعالم أجمع بما تملكه سورية من إمكانيات عالية في مختلف الصعد، وقررت إقامة معرض يظهر التطور والرقي في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ووقع اختيار المكان على بناء التجهيز لتوفر جميع المتطلبات فيه، وتحقق الحلم بمعرض دمشق عام ١٩٣٦م، اشتركت فيه بعض البلدان العربية: مصر، العراق، فلسطين، المغرب، وأخرى أجنبية: تركيا، والهند، وإيران، وقد افتتح المعرض، وكان آية في التنظيم والإبداع أبحرت فيه زواره التي وصلت دمشق من جميع أنحاء سورية والبلدان الشقيقة المجاورة، حيث كانت فترة استجمام لهم من هموم ومتاعب الحياة بالتجوال في باحاته الخارجية التي انتشرت فيها أحواض الزهور، وبرك المياه بنوافيرها

التي تعلقو في السماء، أو الجلوس في الحديقة التي أنشئت في جنوب مدخله الرئيسي للاستمتاع بمشاهدة جمال وروعة الطبيعة الغناء، وتدفق مياه نهر بردى الخالد ليأكلوا ويشربوا ما لذ وطاب من مأكولات ومشروبات من الباعة المتجولين.

وإذا ما تجولت في قاعات وصالات العرض التي هي داخل البناء وشاهدت المعروضات على اختلافها من مصنوعات نسيجية - وخصوصاً البروكار والصناعات اليدوية الموزاييك والتحف الشرقية والملابس الفولكلورية الخاصة بكل منطقة من البلاد، وصناعة الحصر والبسط والأرائك، ومعروضات المنتجات الزراعية على اختلافها - تراءى لك الشرق وما فيه من سحر وجمال أخاذ، ويبرهن بشكل قاطع على مهارة أبنائه في مجال الصناعة والزراعة، وأنه شعب أبيض أحر جدير بحياة كريمة، وقد تم التركيز بشكل خاص على الناحية الثقافية، حيث تم إبراز أهم المؤلفات في جميع الميادين العلمية والطبية والرياضيات والتاريخ، وشواهد من آثار الحضارات العربية.

ولعل ما أثار دهشة الزائرين على اختلافهم قاعة الوجيه الدمشقي حسين أيش التي عرض فيها جميع الحيوانات التي اصطادها من غابات أفريقيا وآسيا على اختلاف أنواعها الأهلية والمفترسة، والزواحف والطيور، وكانت بحق موضع إعجاب الزائرين، واقترحوا إنشاء متحف خاص بها باعتباره ثمرة مجهود فردي برهن أن التصميم والإدارة يفعل المستحيل.

ومن قبيل الوفاء للعلماء العرب العباقر؛ فقد تم تكريم عدد كبير منهم بهذه المناسبة، وعلى رأسهم عالم الرياضيات السوري العبقرى (جودة الهاشمي) بتقليده وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى، وأطلق على بناء التجهيز الذي أصبح فيما بعد مدرسة باسمه "ثانوية جودة الهاشمي" تخليداً لذكراه، ودوره الهام في مجال التعليم والتربية، حيث تخرج على يديه آلاف الاختصاصيين بعلم الرياضيات وكانوا حصاد غرسه.

ومن الصعوبة بمكان الاسترسال في الحديث عن النجاح الكبير الذي حققه المعرض، ولكن من المفيد القول إنه كان نواة لإقامة معرض دمشق الدولي الكبير في الخمسينات، وقد تمكنت السلطة السياسية إبراز ناحية هامة بأن يكون المعرض شرقي الصبغة، عربي الفكرة،

ويبرهن في الوقت نفسه على قدرة الأمة العربية بما تملكه من إمكانيات خارقة قادرة على قيادة نفسها بنفسها، ويؤكد ضرورة أن تنعم بإبراز نشاطاتها وقدرتها على الإنتاج اللذين هما عنوان استغلال الأمم.

نسمات الحرية

وخلال الفترة نفسها التي ظهرت فيها أنشطة هامة في مختلف المجالات لتقديم البرهان الساطع بأن سورية قادرة بنفسها على النهوض بأعباء التطوير والنمو -رغم هول الإرث الذي تركه الاحتلال العثماني- ثابر رجال سورية الأحرار بمقارعة المحتل الجديد، وحمله على منح البلد حريته الكاملة بإدارة شؤون دون أية وصاية بإرساء الحكم الدستوري من قبل مجالس وحكومات تمارس سلطاتها بسيادة كاملة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، ولكن جميع جهودها ذهبت أدراج الرياح، وتوسعت الهوة بين السياسيين من الكتلة الوطنية والسياسيين المستقلين والوطنيين الأحرار، مما سبب معارضة عارمة أسفرت عن إضراب عام في جميع أنحاء البلاد دام ستين يوماً، سمي بالإضراب الستيني، حمل المحتل على الموافقة على تأليف وفد سوري لإجراء مباحثات ومفاوضات مع الحكومة الفرنسية للخروج من الأزمة، حيث تمكن الزعماء الوطنيون من التوصل إلى اتفاق يتضمن سلسلة من الإجراءات لتنفيذ حكم وطني حر، يتمثل في مجلس نيابي، وحكومة تتمتع بأوسع الصلاحيات لإدارة البلاد.

ولكن المحتل لم يتراجع عن نيته بالتمسك بالصلاحيات السياسية والعسكرية رغم قيامه بانتخاب مجلس للنواب وتشكيل حكومة وطنية، حيث بقيت هذه المؤسسات صوراً فارغة ليس لها أي مفعول يذكر، حيث إن الأمر والنهي واتخاذ القرارات وممارسة الصلاحيات السيادية بقيت بيد المفوض السامي، الأمر الذي أدى لتجدد الاستياء واستنكار موقف الغدر، والدعوة إلى الوفاق والوثام، ونبد التفرقة التي حاول المحتل انتهاجها؛ ليتمكن من السيطرة على الموقف، وكان خير مثال على ذلك هو اغتيال الوطني الحر الدكتور عبدالرحمن

الشهبندر، وتبسيط الأضواء بأن المنفذين للعملية هم من خصومه السياسيين، ونجح في تخفيف حدة المقاومة الفعالة للوطنيين الأحرار، ولو إلى حين.

وفي غمرة الأحداث المتصاعدة، نشبت الحرب العالمية الثانية وكانت سبباً لتراجع الفرنسيين عن جميع تعهداتهم، وخاصة إلغاء معاهدة الصداقة، وإعلانهم نظاماً للحكم المباشر عن طريق تشكيل حكومة موالية لها، وإدخال البلاد في مرحلة عراك وتجادب سياسي؛ لتتمكن من تنفيذ مخططاتها التي تخدم مصالحها خلال الحرب مع المحور.

ولابد من القول بأن ما طبقته فرنسا من إجراءات قاسية على المواطنين السوريين انعكست على حياتهم المعيشية، وعانوا من شظف العيش والحرمان وفقدان المواد الأساسية للحياة بما يصعب وصفه، ويمكن اعتباره ضرباً من الخيال.

إن إعلام الحرب على المحور أدى إلى فرض حالات طارئة تمثلت ببيع الخبز الأسمر بموجب قسائم، ومنع استيراد الشاي والبن والأرز والسكر، وجميع أنواع المحروقات البترولية، وعدد كبير من المواد الأساسية، وفرض تقنين استخدام الكهرباء، ومنع استعمال المذياع ومصادره، وغيرها وغيرها... مع شيء هام وأساسي وهو تقييد الحريات والتشدد بتطبيق نظام الأمن والتجوال.

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه من نتائج هذه الإجراءات الشديدة ظهرت طبقة جديدة في المجتمع أطلق عليها اسم أثرياء الحرب، الذين استغلوا ببشاعة وأنانية ويلات العوز والحرمان في احتكار المواد ورفع الأسعار، والاستخفاف بمشاعر المواطنين البؤساء.

وقد استمرت هذه الحال حتى هزيمة فرنسا أمام ألمانيا، فأعلن ممثل فرنسا الحرة في سورية استقلال البلاد، وانتخاب رئيس للجمهورية، وتأليف وزارة وإجراء انتخابات لمجلس نيابي، ولكن المحتل الغاشم أبي تسليم الصلاحيات الخاصة بالجيش والأمور الثقافية والاقتصادية والسياسية، بما عرف عنه من مراوغة ومماطلة في اتخاذ أي إجراء ينعكس على مصالحه الخاصة، ورغم جميع المحاولات التي قام بها، فقد فشل في تنفيذ مخططاته أمام إرادة صمود الشعب ورجاله الأبطال، وكشّر من جديد عن أنيابه السامة بحملة استفزازية وإرهابية

من خلال عدوان غاشم، فحرب المدن الرئيسية وفي مقدمتها دمشق بالمدافع، وقصفها بالطائرات، والتنكيل برجال الدرك والأمن، وكان أشعها همجية ووحشية على المجلس النيابي، حيث قامت قوات فرنسية مدرعة بالقصف العشوائي، فهدمت واجهته وقتلت حاميته من رجال الأمن العزل ومثّلت بجثثهم بهمجية ووحشية يندى لها الجبين.

واستمر العدوان الغادر مدة ثلاثة أيام بلياليها، لم يتوقف إلا بتدخل القوات البريطانية. وقد ندد العالم أجمع بهذا العدوان اللاإنساني، وما قامت به فرنسا من وحشية في قتل السكان العزل، وعمدت الحكومة السورية إلى عرض موضوع استقلال سورية وجلاء المحتل من أرض الوطن على عصبية الأمم المتحدة، وتمت الموافقة وحصل الجلاء فيما بعد.

رحمة السماء

لا بد هنا من القول: إنه لولا العناية الإلهية؛ لكان العدوان على المجلس النيابي كارثة بشرية لا توصف، وقد حال دونها قرار رئيس المجلس الزعيم سعد الله الجابري تأجيل الجلسة المقررة في اليوم نفسه وفي الساعة ذاتها، إلى موعد آخر، حيث وجد بحكمته وسعة أفقه بأنه ليس من المحبب والمفيد عقد جلسة لا يحمد عقباها، ولولا لطف الله لكانت فرنسا تخلصت من جميع الوطنيين الأحرار بضربة قاصمة.

تكريم الأبطال

وجدت أنه من المفيد بعد أن تناولت شرح الفترة الهامة من تاريخ سورية إبان الانتداب الفرنسي وحصول سورية على الاستقلال التام وجلاء المحتل عن أراضيها وطي صفحات مؤلمة في تاريخها النضالي، بأن يتم الانتقال إلى الحديث باختصار عن مواضيع أخرى وهي: زيارتين تاريخيتين إلى دمشق، الأولى: قام بها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، والأخرى لقائد

القوات البريطانية لورنس العرب، والتماس الفرق الشاسع بين تصرفين يظهر بالأول حسن تقدير الأمور ووضعها في نصابها الصحيح، ويظهر في الثاني الحقد الآدمي والنوايا الدنيئة من قبل قوى الشر.

قرر إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني -القيام عقب زيارته للسلطان العثماني عبد الحميد- أن يعرّج على مدينة دمشق ليشاهد معالمها، وقد أحيطت الزيارة باهتمام كبير، حيث أعطيت الأوامر السلطانية باتخاذ جميع الإجراءات، وتأمين جميع المتطلبات؛ لتكون زيارة تاريخية يضرب بها المثل.

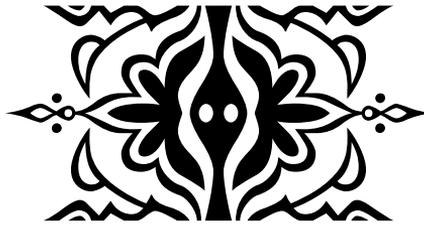
عمد والي دمشق ناظم باشا إلى وضع برنامج حافل يبهر الزائر الكبير، فأقام في المهاجرين مقابل القصر مصطبة في أسفل جبل قاسيون بإطلالة تبهر الناظر بروعة وجمال المدينة الأخاذ، وأقام أقواس النصر والزينات، وفرش الطرقات التي سيمر بها صحبة الإمبراطور بالسجاد الأحمر الزاهي، واختار لإقامته قصران، الأول: يعود للأمر أسعد باشا العظم، والثاني: لآل اليوسف، وقد تبارى الاثنان في إظهار أحر الاستقبال وأطيبه، حتى يتمكن والي دمشق من الاختيار، وخشية أن يقع الخلاف بينهما لما لا تحمد عقباه أمر باتخاذ الإجراءات الفورية في تجهيز فندق "دامسكو بالاس" في حي جورة الحدباء قرب جامع يلبغا وسط سوق تجاري دمشقي عريق، يزهو بمصنوعاته ومنه ينطلق منه إلى دار الحكومة القريبة منه في ساحة المرجة وسط المدينة، ينتقل بعدها بعربة خيل رئاسية لمشاهدة ما تزخر به دمشق من معالم أثرية وجوامع وكنائس وأسواق تجارية وغيرها.

غير أن الهدف الرئيسي في الحقيقة هو زيارة ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي، وقد سمت الزيارة فأظهر فيها كل احترام وخشوع، ووقف صامتاً مما ينم عن تقدير وإكبار لمواقفه البطولية ونضاله المستميت من أجل عزة وقدسية وطنه، وقام بوضع إكليل من البرونز الأبيض مزين بنقوش ذهبية ومرصع بالجواهر البراقة على شاهدة القبر، ودوّن في سجل الزيارة كلمة عبّر فيها عن المكانة المرموقة والمشرفة التي يحظى بها كبطل وطني خلده التاريخ. وبقي هذا الأكليل وسام شرف حتى قام قائد القوات البريطانية لورنس العرب بنزعه

عن ضريح البطل، وأخذه بكل حقارة كغرامة حربية وهو الآن معروض في متحف لندن.
ومن هذين التصرفين يبرز بشكل قاطع موقف كل من الرجال العظام والصغار.

فضل العلم

ولابد لي هنا أن أشيد بالدور التعليمي الكبير الذي رسَّخه رجال العلم والتربية في نفوس الطلبة؛ ليكونوا نواة النهضة والرقى في مرحلة البناء، في وطن عانى من ويلات الاحتلال، مما سبب تأخره ولو إلى حين عن ركب الحضارة، ولست بحاجة إلى التأكيد على أن المناهج التعليمية وأساليب التدريس قد وضعت لتحقيق هذا الهدف الكبير.



السيران الدمشقي

السيران تقليد شعبي لدى معظم عائلات دمشق، فهو متنفسهم الوحيد ويخرجهم من هموم الحياة وعناء العمل ليلتمسوا راحة الفكر والاستجمام، حيث يتوجه الدمشقيون إلى الأماكن التي تتميز بالخضار وانسياب المياه للاستمتاع بمشاهد الطبيعة الجميلة.

هذا وإن التوجه الأول في فصل الربيع يكون إلى غوطة دمشق لتمضية يوم كامل في ربوع بساينها وحقولها بين الأشجار المثمرة، حيث تفوح رائحة أزهار المشمش والدراق والإجاص والخوخ والتفاح، فيختارون ضفاف الأنهار للاستراحة على البسط التي يفرشونها على الأرض، ويتناولون ما لذ وطاب من الأطعمة التي تعدّها النسوة من لحم مشوي بأنواعه، والكبة والمتبلات والمقالي والسلطات بلذة وشهية، يشربون بعدها الشاي أو القهوة ويدخنون النرجيلة، ويلعبون الورق والطاولة، بينما يلعب النسوة بالبرسيس ويستمعون من المذيع على أعذب الألحان والأغاني حتى المساء، حيث يعودون أدراجهم إلى منازلهم وقد زال عنهم عناء العمل الأسبوعي.

في حين إن بعضهم الآخر يقصد المطاعم والملاهي، يجلسون على الطاولات بين الأشجار يتسامرون ويمارسون لعبة الورق والطاولة والشطرنج، ويتناولون ألد المأكولات التي يعدها مطبخ القهوة ويشربون المشروبات الساخنة والباردة.

أما التوجه الثاني فهو قضاء يوم كامل من الصباح حتى المساء في وادي بردى على ضفافه، باستئجار المصاطب المفضلة ليوم واحد، فبعضها مغطى بالقصب والآخر بالقماش ولا سقف لهما؛ حيث أغصان الأشجار تحجب أشعة الشمس، فيجلسون على الطاولات باتجاه النهر للاستمتاع بتدفق المياه، ويتناولون ما يحضرونه معهم أو يعمدون إلى الطهي والشواء.

أما السيران الخفيف النظيف الذي يتجه به الدمشقيون إلى الربوة التي يقال عنها رثة دمشق، واستراحة أهلها منذ أقدم السنين، وما زادها قيمة المحافظة على رونقها وجمالها رغم بعض التغيرات البسيطة التي لم تؤثر على روادها.

تقع الربوة في مضيق بين جبلين يحتضنان نهر بردي وفروعه السبعة، وتشتهر الربوة بمقاهيها المنتشرة على سفحي الجبل على ضفتي النهر، أهمها قهوة: أبو شفيق، خود عليك، العجلولي، الوادي الأخضر، الشعار، القصر، الفردوس.

وسأتناول بالتفصيل الحديث عن قهوة (خود عليك) وقهوة (أبو شفيق) حيث تقع قهوة خود عليك في الشادروان، وسميت كذلك لأن الداخل إليها يطلب من كل جالس بقوله: وسّع لي جنبك، أي "خود عليك" بسبب الازدحام الشديد وجمال موقعها.

أما الثانية فهي من أقدم وأشهر المقاهي، تقع على مرتفع يشاهد الداخل إليها شلال الماء الذي يتساقط من أعلى الهضبة على ساقية صغيرة، وتمتد مساحتها حوالي ١٥ متراً، وتتوزع الطاولات على جوانب برك الماء وعلى المصاطب "الخشبية التي أقيمت فوق نهر يزيد بأسلوب تقليدي معين، حيث يمضي الرواد يوماً كاملاً تحت ظلال أشجار الصفصاف والزيفون، يتناولون الأطعمة اللذيذة، ويشربون الشاي والقهوة بعضهم يتسامر والبعض الآخر يلعب الورق أو الطاولة، ويدخنون النرجيلة حتى غروب الشمس ودخول الظلام، فيما تصدح الموسيقى والأغاني والأهازيج، وتسمو بهم الأجواء الخلابة إلى نسيان أنفسهم وما يحملونه من هموم الحياة.

صخرة الحب

ولابد من القول هنا بأن في الربوة صخرة رابضة على جبلتها المطل على المقاهي عرفت باسم (المنشارة) ثم أطلق عليها اسم (صخرة الحب) بعد أن كتب عليها أحد العشاق الدمشقيين في الخمسينات عبارة "أذكريني دائماً" ورمى بنفسه من فوقها منتحراً بسبب رفض أهل حبيته تزويجها له، وعندما علمت الحبيبة بقصة الانتحار بادرت إلى كتابة عبارة "الن أنساك" وانتحرت مثل فتى أحلامها.

لعبة السيف والترس

تملك دمشق الكثير من الألعاب الشعبية القديمة التي كانت تسليهم وتمتعهم في أوقات فراغهم مثل "السيف والترس، النحلة، التباطح، التناصر" وتلك الألعاب توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل.

تتميز لعبة السيف والترس بإظهار صفات الرجولة والقوة والتحدي والخطورة لدى الرجال، وتتطلب قوة عضلية وتركيزاً عقلياً في أدائها.

تبدأ المباراة بتقدم اثنين يرتديان الأزياء التقليدية القديمة إلى وسط الساحة، يمتشق الأول منهما سيفاً والآخر ترساً (درعاً)، يقومان بادئ الأمر بحركات استعراضية مترافقة مع نغمات الموسيقى والألحان، وبعد أداء التحية والسلام وتبادل القبلة مع بعضهما ينهال الواحد منهما على الآخر بضربات سريعة وخاطفة، يظن للجمهور المتحمس أن أحدهما سيقضي على الآخر لا محالة، وتنتهي المعركة فجأة بقبلة على الخد تعبيراً على الصلح بينهما والإعلان عند انتهاء النزال، ويقابلهما الجمهور بتصفيق حاد إعراباً عن إعجابهم بالرجولة والشهامة والقيم المثلى.

وحرصاً على الحفاظ على هذا التقليد الشعبي المتوارث عبر الأجيال فقد انتشرت لعبة السيف والترس في العراضات الشامية التي ترافق العروسين، حيث تمارس هذه اللعبة على أصولها من قبل متمرسين في ساحة صالة العرس على أنغام الأهازيج والألحان والأغاني وقرع الطبول على نحو يثير الإعجاب بهذا التراث الخالد.

شجون

كما إنه من قبيل المنغصات التي كان قد شهدها الحي في ظروف غامضة أذكر ثلاثة منها تركت الجميع في حيرة من أمرها رغم أنه من قبيل الحقيقة المؤكدة أن الحي كان مضرب الأمثال في التعايش المشترك بين جميع فئاته، قائم على أساس المحبة والاحترام المتبادل.

ولابد من الذكر أن الأكثرية المطلقة لعائلات الحي كانت تقيم بينها ولم تلق إلا ما يجب أن يقابل به الضيف بألا يتحمل وزر غيره، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، مع كون قدسية الوطن وكرامة أبنائه هي الخط الأحمر لا يجوز تجاوزه مهما كانت الظروف والأحوال. الحادثة الأولى: أنه في صبيحة أحد الأيام شوهد تجمهر غير عادي أمام بقالات الحي، تبين فيما بعد -ومن خلال السؤال- أنه البقال، فقد وجد مذبحاً في دكانه؛ لأنه كثيراً عندما يتأخر في المساء، فينام بالحل، وأن رجال الأمن والتحقيق تبحث في الأدلة التي تكشف عن الفاعل، وقيل وقتها أن دوافع الجريمة هي السرقة، ورغم التحقيقات لم يعرف الفاعل وقيد الحادث ضد مجهول.

الحادثة الثانية: عند عودتنا من المدرسة مساءً لأن الدوام كان صباحياً، وبعد الظهر شوهدت جثة على قارعة الطريق مغطاة بشرشف أبيض تبين أنها تعود لفتاة في ريعان الصبا ألفت بنفسها من الشرفة لتتخلص من الحياة بمحض إرادتها؛ لأنه ضاق عليها العيش وملت حياة الخدمة في بيوت الآخرين، وقيد الحادث أنه انتحار لدوافع شخصية.

الحادثة الثالثة: وُجد أحد تجار الحنطة أمام عتبة داره مقتولاً بعدة طعنات بآلة حادة، تبين أنه قد تعرض للقتل لسلبه قيمة حمولة من الطحين يستوردها من المحافظات المجاورة، وقد تبين أن الفاعلين كانوا ثلاثة من عماله، تمت محاكمتهم وأنزلت بحقهم العقوبة المناسبة. أما الأمر المعاكس الذي يدعو إلى البهجة والسرور هو تألف سكان الحي مع بعضهم البعض في السراء والضراء.

وخير مثال على انصهار الفوارق على اختلافها هو انتساب أبناء الحي لطلب العلم في المدارس المختلطة "الضهير، الفرنسييسكان، اللاييك" في جو ملؤه المحبة والوثام، وكذلك بعضاً من أبناء الحي الأجانب يتلقون العلم في المدارس الرسمية، هذا وإن هذه الحوادث العابرة لم تؤثر على أواصر الصداقة والمحبة القائمة بين العائلات.

ابتهاج

بعد نيل الاستقلال شهدت البلاد تطوراً كبيراً في جميع المجالات الاقتصادية والزراعية والصناعية، وبدأ الغزو العمراني الحديث، وامتد انتشاره في حقول وبساتين مدينة دمشق في كل الاتجاهات بمظهر حضاري؛ يختلف كلياً عن النسق والفن الذي تميزت به دمشق القديمة، أضفى عليها جمالاً جديداً برزت آثاره للعيان في مختلف ربوع دمشق، وحرمها من خضارها الذي تميزت به.

كما تم اعتماد مبدأ توفير المتطلبات الأساسية دون حاجة إلى الاستيراد، وذلك بإقامة المعامل لمختلف الصناعات للأدوات الكهربائية والنسيجية والمطاحن وصوامع الحبوب ومعامل حفظ الخضار والفواكه، ومعامل الصناعات الحديدية ومشاعل الصناعات اليدوية: السجاد والبسط والحصر والأرائك وغيرها، وازدهرت التجارة والزراعة والصناعات اليدوية. ومن قبيل التدليل على توفير السيولة النقدية بين المواطنين وخاصة ذوي الدخل المحدود أضرب مثلاً شخصياً، وهو أنه عند بدء تعييني في سلك التعليم صرف راتبي الشهري وآخر، استناداً إلى تشريع يقضي بدفع الرواتب والأجور للعاملين في الدولة في مطلع الشهر لأسباب ودواعي اقتصادية لمحاربة التضخم النقدي.

وابتهاجاً بهذه الفرحة وادخال السرور إلى عائلتي رأيت أن أقدم هدية متواضعة عربوناً لوفائي وامتناني للرعاية الكريمة، فاشترت - وكان ذلك في أوائل العقد الخامس - براداً أذكر ماركته حتى الآن "وستنغهاوس" وغسالة أوتوماتيك آلية ماركة "هوفر" بعد دفع الدفعة الأولى التي كانت في حدود ربع الثمن.

وما زلت أشعر بنشوة السعادة التي غمرتني وقتها، عندما شاهدت علائم الفرحة والسرور على وجوه العائلة، وبذلك أسهمت بجزء بسيط في رد الجميل بتخفيف العناء عن ربة البيت عند الغسيل، وحفظ الأطعمة، ولم يقتصر هذا الأمر عند هذا الحد؛ بل تناول مجالات أخرى كان لها دورها في تأمين بعض المتطلبات الأساسية بما تحققه من بهجة ومنتعة.

بحكم طبيعة عملي في المرحلة الأولى بالتعليم، وتخصصي المسلكي، بهذا المجال فقد تم اختياري لأكون عضواً في الوفد السوري الذي سيتناول دراسة توحيد المناهج، وتحديد أساليب التربية والتعليم في البلاد المجاورة لسورية، وتبين من خلال الطروحات أن التوجه كان منصباً لمحو الأمية ونشر مبادئ القراءة والكتابة التي تزايدت خلال الاحتلال العثماني والغربي، وانطلاقاً من مراعاة أوضاع كل بلد عربي شارك في الاجتماع، تم وضع عدة مناهج تدريسية تختار الدول منها ما يناسبها.

وبالنسبة لسورية ودول أخرى رئي الاستمرار بتطبيق المنهج الذي تسير عليه العملية التعليمية لتغطية جميع الجوانب وفق الهدف المنشود.



زيارات خاصة

لم تخل هذه الفترة من الزمن من القيام -من وقت لآخر- بالزيارات والسفر للترفيه عن النفس من ويلات الأيام القاسية التي أعمت القلوب وأدخلت الحيرة في النفوس. وحيث إنني قد أنهيت المرحلة الدراسية بجميع مراحلها ودخلت معترك الحياة رأيت أنه من المفيد توسيع آفاق التعرف بأساليب الحياة في بعض البلاد العربية والأجنبية المجاورة وهذا ما كان.

أبدأ التحدث عن تحليق صغير في أجواء سماء مدينة دمشق بالطائرة كانت من قبيل الصدف النادرة، بل ضرباً من الخيال، وتلخص في أنني كنت أتبادل الزيارة مع أحد أبناء الحي في الدراسة، ونتعاون معاً على سير مكونات حل مسائل في الرياضيات لتخفيف المعاناة حيث كانت مادة جديدة وأمورها معقدة صعبة.

في إحدى الزيارات الصباحية حصلت داخل الدار حركة غريبة توحي بوجود شيء غير عادي، فسألته عن السبب فقال لي بأن عمه قد قام بزيارة مفاجئة وينيوي المغادرة، وقد يذهب لوداعه بالمطار؛ فطلبت إليه أن يتفرغ لذلك، وأن يسمح لي بالذهاب لموعد آخر، وعند خروجي صادفني عمه في الصالون وأحب التعرف عليّ، وبينوا له الغرض من الزيارة، فأصر على مرافقة أبناء أخيه في التجول بالطائرة الشراعية بجولة في سماء دمشق إن لم يمانع، بذلك فالفرصة لن تتكرر وكان ذلك، حيث إن روعة وجمال المنظر المبهر لن يمحي من مخيلتي أبداً ولأول مرة في حياة أشاهد طائرة شراعية بجناحين ومحملين وجسم بطول ستة أمتار يحتوي على عشرة مقاعد للطيران لمسافات قصيرة بين المدن المتقاربة من حيث المسافات وتلي الحاجات الملحة.

الرحلة الثانية

كانت لزيارة شقيقاتي المتأهلات في الأردن الشقيق، وحقاً لقد كانت في روعتها مما

يصعب وصفه، لقد لمست فيها حسن الضيافة والاستقبال والترحاب بإكرام الضيف من البعيد قبل القريب.

لقد أتاحت لي هذه الزيارة مشاهدة ما يتمتع به هذا البلد من جمال للطبيعة وآثار خالدة تبرز معالم تاريخه العظيم، ولا أنسى أبداً تجوالي في وادي الأردن، حيث ينساب نهر اليرموك الخالد في بساتين وحقول بشتى أنواع الخضار والفواكه، وإطلالة مرتفعاته على بحيرة طبريا في فلسطين، ولا أنسى مذاق السمك الشهى الذي تناولته على ضفاف البحر الميت. أما هبة السماء في هذه الزيارة، فكانت مدينة القدس الشريف حيث أدت صلاة الظهر في المسجد الأقصى أولى القبلتين، وأنا في غنى عن وصف روعته التي تعجز الأقلام عن الإحاطة به، وإن الذي أدمى قلبي لاحقاً الحريق الذي لحق في منبره الأثري الذي لا مثيل له في العالم جمالاً وروعة في الصنع، والمزين بالآيات القرآنية الكريمة. وكانت خاتمة الزيارة لمسجد قبة الصخرة التي عرج منها الرسول ﷺ إلى السماء.

الرحلة الثالثة

كانت لمصر العربية، حيث تجدد لقائي مع رفيق عمري في الدراسة الصباحية على ضفاف النيل في مركز عمله في القاهرة.

لقد وضع لي برنامج زيارة يسمح لي بمشاهدة تراثها الخالد الذي يبهر الألباب، وأكتفي بتعداد الأمكنة؛ لأن ما تتصف به في غنى عن التعريف، وأبدأً بزيارة أهرامات الجيزة وقيامي بالدخول إلى داخل الهرم خوفو بممر طويل -انحناء- حتى فسحته الداخلية ومشاهدة ما فيها من نقوش وتمائيل وآثار فرعونية تبهر الألباب باعتبار أنه كان يدفن بها الملوك الفرعنة.

وقد أثار دهشتي تمثال المخلوق الأسطوري "أبو الهول" بجسم أسد ورأس إنسان وهو أهم المنحوتات الضخمة على هضبته بالجيزة في الضفة الغربية من نهر النيل. وأرثي حال أولئك الجهلة من قادة نابليون حين أمروا بضرب أنفه الطويل وتدميره بالمدفعية حتى ذهب

روعته وأصبح أفضس الأنف.

وليست القاهرة بحاجة إلى التذكير بالأماكن السياسية، فهي أكثر من أن تعد وتحصى لأنها مهد الحضارات، وأكتفي بالتحدث عن إعجابي بمكانين من أهم معالمها.

الأول: منها جامع الأزهر الشريف الذي هو أهم المساجد في مصر وأشهرها في العالم الإسلامي، وهو جامع وجامعة منذ أكثر من ألف عام، بني في زمن الفاطميين وسمي بالأزهر تيمناً بالسيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله الأعظم محمد ﷺ، وبنائه آية في الإبداع والجمال، وماذنه الأربعة الشاخحة ذات الطابقين نحو العلا، وقبته ذات الألوان الزاهية وأكتفي بالوصف عند هذا الحد وأقول: إنه بحق رمز من الرموز الإسلامية في العالم.

أما الثاني فهو سوق خان الخليلي فهو من أروع أسواق القاهرة السياحية القديمة، ويتميز بوجود البازارات والمحلات التجارية والمطاعم والمقاهي، وبشكل خاص مقهى الفيشاوي، والخان في الحقيقة صرح تجاري هام في تاريخ القاهرة، بقي محافظاً على معالمه عبر العصور، يزخر بكنوز وتحف نادرة مصنوعة بأيدي مهرة، ولعل أجملها أوراق البردي التي تحمل كلمات هيروغليفية، ونقوش باللون الأزرق تحكي باختزال مدهش أجمل حكاية عاشقين في التاريخ "أيزيس وأوزوريس".

هذا وإن الاستمتاع بمناظر الطبيعة الغناء، وانسياب نهر النيل فيها يدعو إلى زيارة القناطر الخيرية، فهي جنة مصر التي يتفرع فيها نهر النيل إلى فرعين: فرع رشيد وفرع دمياط، وقد بناها محمد علي باشا لتتحكم في تدفق المياه في دلتا النيل، وتتميز بجذائقها ومنتزهاتها الخلابة.

الزيارة الرابعة

وكانت إلى مدينة بغداد عاصمة العراق الشقيق، مدينة تاريخية عريقة يخترقها نهر دجلة، وهي غنية عن التعريف كونها العلم على تنوعه، وملتقى العلماء والأدباء والشعراء عبر العصور، غنية بتراثها الحضاري من قصور ومساجد غاية في الروعة، أهمها المسجدان

التاريخيان "الإمام الأعظم، والإمام موسى الكاظم" ومساجد أخرى، لا تقل شأناً وهي جامع الرصافة، وجامع المهدي، وكلها تتميز بقباها الرائعة بأشكال هندسية أو نباتية تبعث في النفس الراحة والهدوء.

ومن الجميل زيارة مدينة بابل التاريخية، ومدن العتبات المقدسة (الكوفة و كربلاء) وبقايا سور بغداد وأبوابها القديمة، ومدينة سامراء وقصورها الخالدة، وأنصح لكل زائر لمدينة بغداد، أن يتناول على ضفاف دجلة أكلة سمك المسكوف، الذي يحضّر بطريقة تفتح الشهية.

الزيارة الخامسة

كانت لتركيا، حيث زرت مدينة أنقرة العاصمة، وشاهدت ضريح أتاتورك الرائع، ومعالمها التاريخية القديمة، وحديقة الحيوانات وما فيها من مخلوقات من غابات آسيا وأفريقيا وبلاد حارة وباردة تأخذ بالألباب بالقدرة الإلهية، كما تجولت في أسواقها القديمة الحافلة بمعرضاتها المبهرة.

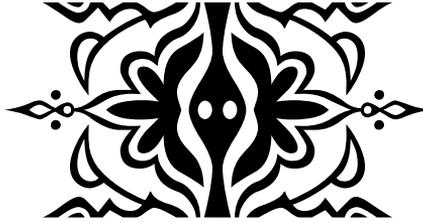
كما زرت مدينة استنبول، وشاهدت معالم قسميها الآسيوي والأوربي من قصور ومتاحف ومساجد، أروعها جامع السلمانية، والمسجد الأزرق، وجامع القسطنطينية، والمتاحف والخدمات والمنتزهات والساحات: منها ساحة تقسيم، وأسواقها: سوق المسكوف، والمصري، ومحمود باشا وعثمان بك وغيرها، كما شاهدت الآثار الإسلامية والعربية في متحف البوسفور الذي يزخر بنفائس أصلية للخلفاء الراشدين والصحابية، والمخطوطات الصحيحة وأسلحة قادة الفاتحين.

توضيح

هذه لمحة عن سفريات سياحية خاصة كانت في بداية دخولي معترك الحياة العملية،

بعد انتهاء مرحلة الدراسة، تلتها زيارات لاحقة لبلاد آسيوية وإفريقية وأوربية، جاء ذكرها في مذكراتي السابقة.

ولم أشأ أن أعد زيارتي للبنان الشقيق، فهي كانت أشبه بالإقامة الدائمة عند شقيقتي المتأهلة ببيروت، ولا أنسى أبداً الذكريات الحلوة التي أمضيتها في مصائفه الجبلية؛ مستمتعاً بجمال لبنان الأخاذ.



مقالب الطفولة

لم تخل بعض الحصص الدراسية في المرحلة الإعدادية من حدوث أمور تدعو إلى العجب والدهشة، ولكنها تحمل في طياتها إشارات استفهام، أهي من قبيل البراءة أم من الخبث الشيطاني الذي اشتهر به بعض الطلبة؟.

وسأقوم بذكر طرفتين حصلت إبان مرحلة الدراسة الإعدادية في الصف السابع أو الثامن في أواخر العقد الرابع.

الأولى: حادثة الأفعى: كان في المنهاج التعليمي حصة النشاطات تتمثل بالرياضة أو الرسم والأشغال اليدوية أو الموسيقى.

وقد حدثت هذه الطرفة في حصة الموسيقى، حيث كنا نستمع إلى قطعة موسيقية يعزفها على الكمان -وهو مندمج تماماً- وكما يقولون: "أخذه الحال" فشاهدنا -وكنا جالسين على المقاعد- "حيّة رمادية اللون" تخرج من تحت المنبر، وتتموضع أسفل اللوح الخشبي فوق الطباشير البيضاء، فاعترانا الدهول وجمدت الدماء في عروقنا، فما كان من أحد التلاميذ إلا أن صرخ بأعلى صوته: "انتبه يا أستاذ الحية جانبك" فارتعدت فرائصه وبدأ عليه الخوف، وطلب إلى الجالس قرب الباب أن يحضر المعيد، ولما حضر سأله ماذا تريد أن أفعل؟ "شو أنا صياد أفاعي!" وهمّ بالرجوع، فما كان من الأذن -وكان شاباً ذا قوة وعزيمة- إلا أن اقترب من مكان تموضع الأفعى وأمسكها من تحت رأسها ضاغطاً على فمها لئلاً تلدغه بسمها، وخرج يحملها وقد تولى ذيلها ويتحرك بشدة فقال له المعيد:

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا
فضحك الأذن وتوجه إليه قائلاً: تعال وخذ طربوشي.

ما الزائدة

في حصته اللغة العربية، كان الأستاذ ينهي الموضوع بإعراب بيت من الشعر تطبيقاً لما تم شرحه، وفي إحدى المرات صدف أن مرت "ما" بعد "إذا" وأعرّبها بأنها للنفي، فما كان من أحد التلاميذ الأقوياء في النحو إلا أن اعترض قائلاً: بأنها زائدة، فأجابه الأستاذ بجوز فيها الوجهان، فما كان من التلميذ إلا أن قال له: لقد ورد في ألفية ابن مالك بأن ما بعد إذا زائدة، فهو مجال للنقاش وكان جريئاً بقوله لأنه كان ابن أحد علماء النحو في دمشق، وذكره بما ورد حرفياً: "أفدك فائدة ما بعد إذا زائدة"، ولما انتهت الحصة ودعنا الأستاذ منصرفاً، وكانت آخر حصة له في المدرسة لانتقاله إلى مدرسة أخرى، وفعلاً كانت حادثة بشعة فيها نوع من التطاول وتجاوز الحدود.

حظ عاثر

الحياة كما يقولون: "قسمة ونصيب" ويا ابن آدم "تركض ركض الوحوش.. وغير رزقتك ما بتحوش".
أحببت أن أبدأ هذه الزاوية بمهاتين المقولتين لأذكر أن الإنسان في هذه الحياة عليه أن يقنع بما قسم له، وألا يكون كالطائر الأهوج الذي ينتقل من غصن إلى غصن للوصول إلى مراده.
جرّبت حظي في أوائل حياتي بأن ألتمس العمل الحر، ولكن قدرتي كان الالتحاق بالسلك الوظيفي، ولكن طموحات المرء تطغى عليه وتدفعه إلى تكرار المسعى لتحقيق رغباته.
وهذا ما حصل معي، وسأورد ثلاثة وقائع كان الباب موصداً فيها بوجهي ولم أتمكن من بلوغ الهدف.

ممارسة العمل الحر: في أواخر الخمسينات أحببت أن أستثمر مبلغاً من المال
الأولى ادخرته من رواتبي وتعويضاتي في المجال التجاري، فعرفني صديق لي بتاجر قال
عنه: إنه تقي وورع وأمين، فنقدته المبلغ، وبعد مضي ثلاثة أشهر أتاني قائلاً:
بأن الصفقة التجارية التي شاركت بها كانت حليماً مجففاً" ورغم جميع محاولاته لم تجد سوقاً
لها وطلب إليّ الرأي فأجبتته بأن يتصرف بما يمليه عليه الموقف، ويتخذ كل ما من شأنه
الوصول إلى رأس المال، وبعد مدة أتاني وطلب الرأي حول الاستمرار أو الانسحاب؛ فأجبتته
بدون تردد أعد إليّ مالي وحسبي الله ونعم الوكيل، وبذلك كان نصيبي بعد عام من الانتظار
أحلام خلافة بينما قطف الثقي الورع ثمن نشاطاته على حساب الغير، والأمر يومئذ لله
الواحد القهار.

ثوب الأبرياء: انتشرت في دمشق في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ظاهرة
الثانية إحداث معاهد خاصة للتقوية في المواد الدراسية المقررة في منهاج الصفين
الإعدادي والثانوي؛ فاتفقنا ثلاثة من خريجي معهد التربية على فتح معهد لتعليم اللغة
الإنكليزية وتقويتها، ومن قبيل الصدف عينت بوظيفة عامة، ووقعت على وثيقة القبول:
عدم ممارستي أي عمل تبعي آخر، وكان لي صديق نشأت معه، وبينه وبينه مودة وثقة عالية،
عرضت عليه أن يكون أحد الثلاثة في إنشاء المعهد بشكل صوري، وسأتكفل بدفع جميع
المتطلبات المالية، ويكون نصيبه ٣٥٪ من الأرباح الصافية، فقبل وتم الأمر حسب الاتفاق،
وانطلق العمل في المعهد، وقطف ثماراً أدخلت في نفس صديقي الطمع بالاحتفاظ بحصة
الشراكة، ضارباً عرض الحائط بما تم عليه الاتفاق، مستغلاً عدم وجود الدليل الذي يعيد لي
حقي، وكان له ما أراد، وشفى غليله وبذلك تذكرت ما قيل في النفس البشرية:

ولا خير في ود امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل

آخر السهام: حصلت على حكم قضائي برد مبالغ اقتطعت من تعويضي

الثالثة باجتهاد خاطئ، أو بالأحرى تعسفي من المرجع المالي الذي لم يرجع عنه رغم

صراحة النصوص القانونية.

صرفت التعويضات بحكم القضية المقضية، وأتاني أحد زملائي واقترح أن أشاركه بتجارة الزيت لأنه أبرم صفقة رابحة ولي منها النصف، وأمام إغراءاته نقدته نصف التعويض وحصلت منه على وصل أمانة.

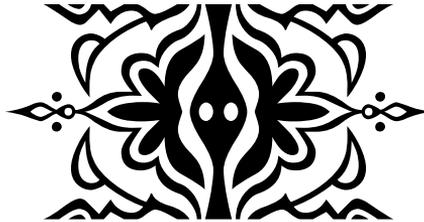
وفي طريق عودته من مكان الشراء تعرض لحادث ذهب ضحيته ولم أعرف ما آلت إليه شحنة الزيت. وبذلك ذهب الحلم أدراج الرياح.

وبعد هذه المحاولات الفاشلة التي قمت بها كان عليّ منذ البداية الامتنال إلى قوله

تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذَّارِيَات : ٢٢].

وما أوردته كان من قبيل إظهار طبيعة النفس البشرية التي تكون ضحية الطمع،

ضاربة عرض الحائط بالمثل والقيم العليا التي يجب أن يتجلى بها المرء مهما تعرض للمغريات.



شجون

عود لذي بدء للتحديث عن الآثار التي نجم عنها تبديل النسيج العمراني في وسط مدينة دمشق؛ لأنه سبقت الإشارة إليه بمعرض التكلم عن مرحلة معينة في ذكرياتي السابقة، ولكنها في الحقيقة لم تشف غليلي إطلاقاً؛ لأن الجرح في القلب كان دامياً لما آلت إليه المنطقة من حيث القضاء نهائياً على مظهر لا مثيل له في العالم.

إن تمسكي بالمعالم الأثرية نابع من حرصي الشديد على الحفاظ على كل ما هو ثمين لا يعوض ولا يستهان به، باعتباره شواهد خالدة لبلاد مهد الحضارات القديمة.

ومن أجل توضيح الصورة أحب هنا تقديم وصف حقيقي لوسط مدينة عريقة، يبين عما كان عليه قبل أن يتناولها معول الهدم العشوائي، دون النظر إلى الناحية الجمالية لفنون معمارية تدل على ذوق وجمال رفيع.

ومن خلال الوصف والتصوير الخيالي لها ومشاهدة الوضع الذي آلت إليه الآن من مبان حجرية عادية، وساحات وحدائق وجسور، يشاطرنى الرأي بأنه كان من الحكمة وضع الدراسات المعمقة للتطوير والتحديث مع الحفاظ على النواحي الجمالية وإبرازها لتبقى مفخرة للأجيال الصاعدة.

أرجو ألا يؤخذ ذلك بأني من الرعيل الذي يحرص على القديم اعتباطاً، وأن تبياني النواحي الجمالية للبقعة التي زالت من الوجود، كانت موضع انبهار لكبار ملوك أوروبا وخاصة إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني في أوائل القرن المنصرم، حيث عبّر في سجل الزيارات عن النواحي الجمالية الخارقة للأماكن التي زارها في دمشق، وبشكل خاص محل إقامته فيها التي كانت من قبيل الصدف نفس الأمكنة التي تتناولها الهدم وزالت من الوجود.

وسأقدم الآن وصفاً لتلك المعالم، أمل أن تكون على بساطتها لأول وهلة مقبولة في إعطاء فكرة وتصوير حقيقي؛ لأنها صادرة عن شاهد عيان أقام فيها مدة تزيد عن ثماني سنوات باعتبار أنها كانت في مركز عملي في التربية والتعليم بمدرسة معاوية الابتدائية، الواقعة في البحصنة خلف دار العدالة وجامع يلبغا التاريخي، وغرب سوق العتيق، وجنوب جوزة

الحديا حيث إنه بموقعها الاستراتيجي - كونها قريبة من وسط دمشق ساحة المرجة، ووجودها في حي عريق- أتاحت له فرصة التجوال ومشاهدة ما تمتاز به من جميع النواحي.

في مدخل المدرسة على اليسار يقع فندق "أمية الكبير" الذي ما زال قائماً، ويحيط به محلاته التجارية، تأتي بعدها صالة سينما "دزكوغراف" ثم بناء فندق "الزهور" ثم أبنيته ذات الطابقين، ومحلات تجارية في الأسفل، وكان أبرزها محل صناعة المعجنات (الكاتو)، البيتيفور، البسكويت، أقراص جوز الهند، العجوة) والأشربة الساخنة في الشتاء المصنوعة من الحليب (كشك الفقرا، المحلاية، السحلب، أرز بالحليب) وفي الصيف مختلف أنواع البوظة والليمون الجامد وشراب التوت الشامي والتمر هندي، وفي صدر الطريق بائع الفلافل المشهور باسم "فلافل المصري" وإلى جانبه في مدخل البحصنة الجوانية عيادات الأطباء والمحلات التجارية والغذائية، وعلى الجدار الملاصق للمدرسة من الناحية الشمالية تنتشر محلات باعة الخضار والفواكه واللحم الضأني، وباعة الحمص والبقول والمخلل بأنواعه، حتى مدخل باب المدرسة الرئيسي، الذي ترتفع منه مئذنة جامع بلبغا التي لا مثيل لها في فن العمارة المبهر، سوى أخت لها بالتشابه في الجامع الأموي الكبير من الناحية الشمالية المتألقة بروعتها.

أما المدخل الرسمي للمدرسة، فكان قبالة السينما، حيث يوجد على يمينه غرفة الإدارة، وعلى شماله غرفة الانتظار، ومكان إقامة الأذنة والحراس، ثم مدخل طويل يؤدي إلى الباحة بمساحتها الكبيرة التي تتجاوز الـ ٢٠٠٠م^٢، وعلى جوانبها الثلاثة الغربية والشمالية والشرقية تقع الصفوف في الطابقين الأسفل والعلوي، وعددها يزيد عن ١٥ صفاً كبيراً من حيث المساحة.

وفي الحقيقة فإنه يمكن القول بأن هذه المدرسة صرح تربوي له تاريخه الطويل في تعليم أبناء مدينة دمشق من مختلف الأحياء، ويزيد عدد طلابها عن ٥٠٠ طالباً تخرج منها عدد كبير لا يستهان به عبر العقود الماضية.

أما من الناحية الجنوبية فقد أقيم جدار طويل يفصل المدرسة عن الجامع، ومن قبيل

الاستنتاج وليس المؤكد أن المدرسة كانت نزلاً للوافدين لطلب العلم والمعرفة من خارج سورية، والدراسة في المركز الذي كان تابعاً للجامع وقتها، ومما يؤكد ما قيل بأن مكتبة الجامعة الأدبية والعلمية والتاريخية قد سلمت إلى المجمع العلمي عند هدمه.

أما المدخل الرئيسي لتلاميذ المدرسة فكان يقع إلى شمال حي البحصّة الجوانية قبالة بابها الخشبي المشابه لباب مسلسل "باب الحارة" حيث كانت البيوت الدمشقية بفنها المعماري الأنيق تقع بداخله ملاصقة لبعضها، تفوح في أجوائها روائح أزهار الليمون والكباد والنارج والياسمين، وكان الباب يغلق بشكل اعتيادي عند منتصف الليل.

أما من الناحية الغربية للمدرسة فكان يقع حي البحصّة البرانية حيث إن دوره كانت موزعة على أرض مربعة ومقسمة إلى تجمعات؛ لكل منها طرقاتها الخاصة بها، ومن حيث الشكل كانت مجموعة من العمارات الدمشقية بفن عريق، وكان الطريق الرئيسي لها يقع في الناحية الشمالية فيه عدد من المحلات التجارية وعيادات الأطباء ومكاتب الرسامين والخطاطين والاستشاريين، وفي وسطه كان بناء مدرسة التجهيز الثانية للبنات، وفي صدر المدخل كان هناك بناء جامع الطاووسية الذي يتميز بمدخله الجميل وحوضي الماء على جانبيه، وترتفع مئذنته الصغيرة الحلوة في تصميمها، وقد هدم الجامع وبني على أرضه جامع حديث بنفس الاسم، ولكن بفن معماري حديث لم يحافظ على رونق الجامع العريق، وقد أصبح مدخل الجامع بعد هدم حي البحصّة والمحلات الكائنة فيه، وخاصة مقهى البرازيل ملتقى الأدباء والشعراء تجاه سينما الأهرام.

أما الشوارع الأخرى في ساحة المرجة، فقد زالت وبقي منها مدخل سينما غازي التي ما زالت قائمة حتى الآن، بينما زالت قهوة الكمال وبقي المدخل الضيق لمسجد تنكر الجديد بينما هدمت مئذنته الرائعة، ويقال إنه في عملية التطوير زالت أثرية مآذن ليس لها مثل في تصميمها وعمارتها مئذنة "جامع يلغا، مئذنة جامع دنكر، مئذنة جامع الورد في مدخل سوق ساروجة من ناحية عين كرش".

أما زقاق رامي فقد هدمت أبنيته ومحلاته التجارية، وزالت من أوسطه سينما ومسرح

"السنترال" وأصبحت محل حلويات الشرق الآن، في حين بقي محافظاً على مكانه بقية
الفعاليات في بناء العابد (دائرة الأحوال المدنية، دور الترجمة، المحاسبون القانونيون، كتاب
العرائض، مختبرات التحليل) وكذلك مطعم صديق الشهير بالشاورما والكبب المشوية والمقلية
والسلطات والمقبلات المتنوعة، والقطايف العصافيري، وما زال قائماً حتى يومنا هذا، وكذلك
باعة الحلويات والمناسف بأنواعها (مهنا، علوان، أسدية).

أما طريق السنجدار فقد أصبحت دوره وأبنيته حديثة، وزالت مطاعم دمشق
المشهورة بمطبخها الفريد من نوعه (الأمرء، الإدلي، سحلول، النحاس) كما هدم وزال حمام
"الراسن" الذي كان في نهايته جانب مدخل السروجية وتبدلت معالمه نهائياً بينما حافظ
جامع السنجدار على وضعه في الركن الجنوبي.

أما حي الشالة الذي يقع شمال حي البحصنة الجوانية فقد هدم كلياً، وزالت معالمه
تماماً، أما زقاق جوزة الحدبا فقد زالت معالمه، وخاصة محلات صنع القباقيب الخشبية،
وبعض الصناعات اليدوية، وهدم فندق "دامسكو بالاس" الذي أقام فيه إمبراطور ألمانيا
غليوم الثاني خلال زيارته لمدينة دمشق.

وهنا لا بد من القول إن تلك الأمكنة التي تم هدمها وإزالة معالمها كانت صورة حية
لتنوع فن العمارة من جهة، إضافة إلى إزالة محلات تقدم خدمات وفق أسلوب شرقي خارق،
وتميزت بتنوعها كالمطاعم والأفران الشرقية وباعة المرطبات، وصناعة المعجنات ومحلات صنع
المخللات بأنواعها المختلفة، كما ذهبت إلى غير رجعة محلات الصناعات اليدوية التقليدية
المتوارثة عبر الأجيال.

أما بالنسبة للجهة الشرقية للمدرسة فكان المدخل الرئيسي لجامع "يلبغا" وعلى جانبي
المدخل يوجد حوضا الماء الذي يتدفق بغزارة من فوهتين نحاسيتين صفراء لتبقى الأحواض
ممتلئة بالماء، يتزود منها باعة الخضار والفواكه وغيرها، وتبقى ساحة سوق العتيق مكشوفة
على مد النظر، حيث تقع شمالها البقاليات والمطاعم. وكان في وسط المحلات يوجد محل
الملقب بـ "برو العطار" صاحب الشهرة في صنع الأدوية النباتية من الأعشاب وكان مختصاً

بتركيب الدواء النباتي بكل دقة وعناية، وزاع صيته في كل مكان ويقصده كل محتاج وهو أشهر من علم لا مثيل له في اختيار العشبة المناسبة لكل داء.

أما في وسط السوق فكان يوجد محل بائع فئات المقادم والكوارع والمحاشي والسجق باللحم والرز، أما في الجانب الآخر من المطعم فكان يقدم سانديويش اللسانات ولحم رأس الغنم بأسلوب فريد من نوعه.

أما في صدر مدخل القرماني فكان محل مجيد الفوال، أشهر باعة الفول بدمشق، حيث كان يقصده الصغير والكبير للتلذذ بطعامه والاستماع إلى ترحابه الحار لزبائنه، ودعوة عماله لخدمتهم بروح عالية.

وفي مدخل السوق على اليمين كانت تنتصب المناقل بالفحم لشوي اللحم بأنواعه: (الكبد، الشقف، الكباب، الكفته) وخلف هؤلاء الباعة كانت محلات صنع المعجنات (اللحم بالعجين، الشرحات، فطائر الجبنة، فطائر الزعتر).

في حين على طول المدخل توجد محلات باعة اللحم بأنواعه المختلفة، يقابلها في الناحية الأخرى محلات البقالات وأفران الخبز المرقد والمرقوق والكعك وخبز الساندويش. أما فرن نوبار فكان في الوسط يقدم نوعاً خاصاً يتميز به "مكبتل" ذي طعم لذيذ.

أما المحلات التي كانت تلفت النظر فهي محلات تنظيف رؤوس الغنم والخراف والكوارع وسلقها ببراميل على نار حامية حتى الاستواء، وبيعها حيث يتم تناول منها: (النخاع، اللسان، النيفا لحم الرأس اللذيذ).

كما تنتشر في نهاية السوق باعة السمك وجميع الثمار البحرية، ويوجد قبالتها باعة الآلات الجارحة بأنواعها المختلفة، وجانبها محلجو الآلات الحادة، أما في الطريق الموازية للسوق فكان يقع سوق التبن وكان حرياً تسميته سوق الطيور؛ لأنه أشتهر ببيع جميع أنواع الطيور ويمكن تلخيص خدماته بالآتي:

١- باعة جميع أنواع الحبوب ومشتقاتها.

٢- باعة جميع أنواع الدجاج الحي والمذبوح والبيض البلدي النيء والمشوي بالفرن.

٣- باعة جميع أنواع الطيور الحمام الزاجل والعصافير والسحاريير.. الخ.

٤- باعة أحواض السمك الملون.

٥- باعة صناعة السلال من القش والأقفاص والحبال.

ولا أبالغ إذا قلت: إن هذه المحال بمنظرها الأخاذ، كانت تدخل البهجة والسرور لدلالاتها على التقاليد والعادات الشعبية المتوارثة، ولا يمكن للمرء أن ينسى صوت تغريد العصافير وهي تصدح إلى عنان السماء.



خاتمة

ب هذه اللمحة المختصرة ارتاح ضميري الذي كان في أعماقه يتحسر على شيء نفيس ضاع منه، ولا أبالغ إذا قلت إنه كلما كنت أمر في تلك المنطقة المندثرة تتراءى لي الصورة الجميلة الخلاقة التي كانت عليها، وأعود وأقول: إن هذا الأمر نسبي بين البشر سبحانه خالق هذا الكون، والله في خلقه شؤون.



نهاية البداية

لقد كان التعليم بالنسبة إليّ مجال خبرة عملية لا حدود لها، وكان أثرها واضحاً حين انتقلت إلى جو يختلف كلياً؛ لأبدأ مرحلة جديدة في بناء الذات.

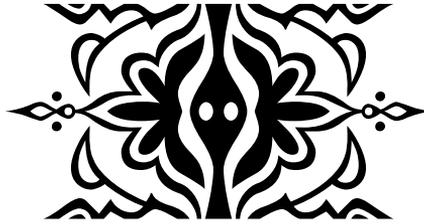
قبل أن أختتم حديثي عن التعليم أبين أنه تقرر - بهدف ترسيخ بناء المرحلة الابتدائية على دعائم متينة؛ لبناء جيل سلاحه العلم- أن تكون المناهج موزعة مع توسع وتنوع المواد الدراسية على ستة صفوف، ينال بعدها الخريج وثيقة إنهاء المرحلة التعليمية الأولى تحت اسم "شهادة الدراسة الابتدائية".

وفي سبيل الإعداد لتطبيق النظام الجديد، أعيد تعديل المناهج وتأليف الكتب الموحدة لجميع المواد، وقد تم اختياري مع زميل انتقل إلى رحمة الله إعداد مؤلف الطبعيات، وقيامي بإعداد مؤلف المعلومات الوطنية والقومية بشكل منفرد، وبهذا النشاط كان مسك الختام لخدماتي في سلك التربية والتعليم، بمقررين درّسا في الصف السادس الابتدائي هذه الانتقالية امتدت حتى وضع كتب حسب المنهج الدراسي الجديد.

ولابد لي قبل طي مرحلة التربية والتعليم من صفحة حياتي العملية، من التطرق إلى نشاطات اجتماعية في ظاهرها بسيطة، ولكنها تحمل عمقاً إنسانياً في مجتمع تسود أبناءه روح الألفة والمحبة والتعاون، في السراء والضراء؛ لذلك والحالة هذه، فإنه كان من مهام العملية التربوية دراسة أوضاع التلاميذ ومد يد المساعدة لهم في حدود الإمكانيات المتاحة، وبحث الموضوع مع مدير المدرسة الذي كان إنساناً عظيماً عجنته الحياة وأكسبته خبرة يضرب بها المثل، فشجعتني وطلب إليّ تقديم دراسة معمقة للموضوع لأنه في غاية الحساسية، وخلصت بالنتيجة إلى: أنه يمكن أن يكون في مجالات لا تتطلب إجراءات روتينية من الجهات الوصائية، ونفقات مالية يصعب تأمينها في وسط اجتماعي غالبية من ذوي الدخل المحدود، وتم الاتفاق على النواحي التالية:

١- تأمين احتياجات التلميذ في الكساء ومستلزمات الدراسة من كتب ودفاتر وقرطاسية.

- ٢- تأمين وجبة غذائية صباحية لعدد محدود لتلاميذ الصفوف الدنيا.
- ٣- إنشاء مكتبة تحتوي على كتب سهلة القراءة وقصص للأطفال.
- ٤- اختيار عدد من التلاميذ ممن حرّموا -لأوضاع مالية- من المشاركة في بعض الرحلات السياحية المدفوعة لزيارة الأماكن الأثرية.
- وتحدثاً بنعم الله وفضله، تمكّنا بموازة فعالة من أبناء بلدتنا الحبيبة من تغطية جميع المتطلبات المادية ببالغ السرور والرضا.
- ومن قبيل التوضيح فإن هذه النشاطات المجانية يصعب تحقيقها على نطاق جميع المدارس في المدينة، لما تتطلبه من اعتمادات مالية ضخمة لقطاع تتحمل فيه الدولة أعباء مالية ضخمة لتحقيق مجانية التعليم.



استطراد

أفتح الآن صفحة جديدة لآخر مرحلة في حياتي الوظيفية حيث التحقت بعمل جديد يختلف كلياً عن سابقه في الشكل والمضمون، كان موضع شرح تفصيلي موجز في مذكراتي السابقة، وسأتناول هنا ما لم يرد ذكره فيها اقتضيتها ظروف إعدادها أهمها سرعة الإنجاز وضيق الوقت.

كانت بدايات عملي في الأشهر الأولى قاسية جداً، صادفت فيها كلها كل أنواع المحاربة بشكل خالٍ من الرحمة والإنسانية، ولكن ما من بداية إلا ولها نهاية إذا تدرّع الإنسان بالصبر والعزيمة، وأحمد الله أن فرجه كان سريعاً؛ فانقشعت السحب "المظلمة" لتحل محلها سحب زرقاء "صافية".

لقد كان جلّ الأمر في غاية البساطة أمام المواقف الشرسة التي صادفتها؛ لذلك رأيت أن أتجنب الخوض في معارك قد تكون رابحة أو خاسرة، وألتحق بالقضاء وأمارس المهنة التي أعددت لها، فطلبت بمعروض إلى المدير العام موافقته لنقلي من ملاك وزارة المواصلات إلى ملاك وزارة العدلية، فاستدعاني لمقابلته على عجل -وكانت الأولى- فطلب إليّ التحدث عن ذاتي بالتفصيل موضعاً سبب رغبتني الانتقال إلى ملاك وظيفي آخر، وأمر أمين سره بأنه مشغول لنصف ساعة، ومتفرغ لأمر هام، ومن تواضعه الجم أزال بمنتهى البساطة الحاجز الكبير الذي كان بين الرئيس والمرؤوس، وحدثته كما يقولون عندنا "بساط أحمددي" لعملي في التعليم، وما قمت به من نشاطات، وسألني مستفسراً عن مقدرتي اللغوية في النحو والأدب والشعر، وبحت له بسر أن الفضل لاهتمامي باللغة يعود إلى أستاذ فاضل مدير المدرسة بإرشادي إلى أن التعمق بدراسة اللغة العربية يتوجب عليّ العودة إلى ألفية ابن مالك ومؤلف شرح شذور الذهب، ومختار الصحاح؛ فأجابني به خير من فعل وحصر الفائدة في معاملها، وبين لي أنه في قناعاته الذاتية أن التعليم يصقل النفوس ويهذبها ويعلمها النظام والحس الرفيع، ومن وجهة نظره أنه لرفع مستوى الأداء والإنتاجية والشعور بأهمية الزمن ينبغي على كل من يطرق باب الوظيفة عليه أن يمضي فترة في سلك التعليم.

لقد كان بليغاً في القول وسداد الرأي، وأعطى أوامره إلى إدارة العاملين بإنهاء الدورة الإطلاعية التي كنت أتبعها، ووضعني تحت تصرفه لفترة وجيزة ليجد فيها حلاً لموضوعي، حيث أسندت إليّ في القطاع الإداري مهاماً كنت والحمد لله أهلاً لها.

ولن أدخل مجدداً في التحدث عن واقع عملي لأنني أوفيته حقه باختصار، ولن أعود إليه هرباً من تفسير ذلك بحب تمجيد الذات، ورفع المكانة التي كنت فيها عن مقدرة وكفاءة، يشهد عليها رؤسائي وكل من يعرفني.

اعتدت أن أتحدث عن أطرف ما حدث معي خلال بعض الجلسات الصباحية مع أديب الشعر والمعرفة، قبل مباشرة العمل الوظيفي، وفي معرض إحداها زارني أستاذ الشعر والأدب الأستاذ أحمد الجندي، وقد نشأت معه صداقة نتيجة كرمه بزيارتي على في مكنتي قبل لقائه مع رأس الهرم الوظيفي ودعاني إلى ترديد ما لدي من شعر الحكم لفحول الشعراء والأديب فذكرت:

أوقد فإن الليل ليل قر إن صليت ضيفاً فأنت حر
وهو لحاتم الطائي يزهو فيها روح الكرم العربي الأصيل.

بكى صاحبي لما رأي الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصراً
فقلت له لا تبك عينك إننا نحاول ملكاً أو نموت فتعذراً
وهما للشاعر امرؤ القيس القيس يحكيان عن الإرادة والتصميم لبلوغ الهدف.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
للمتني وهو أبلغ ما قيل في طباع النفس البشرية

يا رب نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقي أعذب ماء السحائب
ولما رأيت الناس يخشى ودهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب
قالها محمود سامي باشا البارودي شاعر عصره بأولئك ذوي النفوس الوضيعة.

وكيلا يقتصر ذلك على الأدباء العرب فقط ذكرت القول المأثور للفيلسوف الكبير
برناردشو عند منحه جائزة نوبل:

"إن هذا طوق نجاة يلقي به إلى رجل وصل فعلاً إلى الأمان، ولم يعد عليه من خطر".
من المعلوم أنه في بدايات حياته عاش في ضيق من العيش، ثم أصبح غنياً لم يعد
بالحاجة والعوز، فاعتذر عن قبول قيمة الجائزة المادية وتنازل عنها.

ولابد في النهاية من القول بأن شعر الحكم والأقوال المأثورة هو غذاء الروح، وأدعو
من كل قلبي أن نغرس في نفوس أبنائنا حب المطالعة والتزود في أوقات الفراغ بثقافات الأمم
ولا أذيع سراً أن الدهشة قد اعترتني لأول وهلة زرت فيها باريز عندما شاهدت جميع فئات
الشعب من رجال ونساء وشباب حين يطالعون في كتب أطلق عليها اسم "كتاب الجيب"
كل حسب هواه، في الموضوع الذي يستهويه خلال مسافة الطريق في الحافلة؛ لئلا يضيع
الوقت هدرًا.

حسن التصرف

انطلاقاً من الأهداف التي ترمي إلى تولى جهات متخصصة موضوع التخطيط السليم
لإقامة مشاريع إنمائية تهدف إلى التطور الاقتصادي في جميع مرافق الحياة، أحدثت هيئة
تخطيط الدولة ليكون لها الدور الرئيسي في تحديد المشاريع والتنسيق فيما بينها، على أن
تتولى جهات متخصصة في جميع الجهات الرسمية بإعداد الدراسات والجدوى الاقتصادية
لمشاريعها التنموية، وعرضها على الهيئة العامة لإقرارها ووضعها موضع التنفيذ، وعلى اعتبار
أنها حديثة فقد تم إجراء دورة تأهيلية تدريبية لعناصر متخصصة؛ لممارسة المهام، فوقع
الاختيار عليّ وتبعت الدورة وكانت بحق ناجحة لأبعد الحدود سواء في التنظيم وأهمية
المواضيع والأمور التي تناولتها.

أحببت أن أضع المدير العام بالصورة رغبة في الوقوف على توجيهاته؛ فبادرني بالقول

ابداً الآن في تهيئة جميع متطلبات إحداهن التي ستتولى هذه المهام في مؤسستنا، للإسراع في إصدارها لأنه ما إن تقرر تنفيذ هذا التوجه حتى انحالت عليه هواتف الوساطة للترشيح بإشغالها حباً في الحصول على ما تتم عليه من مزايا، وحتّى على الإسراع بذلك.

نقّدت المهمة بسرعة فائقة، وللتأكد من سلامة وصحة ما قمت به عرضتها على رئيس القطاع الذي نتبع له في الهيئة، وقدمت أخباراً متكاملة للمدير العام وكنت صريحاً معه بأنها منسجمة مع جميع المتطلبات بشهادة رئيس القطاع في الهيئة، فأجابني بقوله: حسناً فعلت، وبين أنه سيتولى دراستها وإدخال ما يراه مناسباً عليها، وبالفعل ضمّها وعدّل كثيراً من الأمور بما يتمتع به من خبرة كبيرة بما ينسجم وطبيعة العمل، وطلب إليّ دعوة مدير الشؤون الفنية والإدارية والاستثمارية والمالية للاجتماع في مكتبه، وتهيئة إضبارة متكاملة لكل منهم في صيغتها النهائية بعد التعديل حيث تم إقرارها بموافقتهم بضبط أصولي.

ومن قبيل شهادة حق أقول: إنني لم أر بدكاء وحكمة وحسن تصرف المدير العام بهذا السبيل، وفاز بما خطط له بقطع دابر الوساطات، وإبعاد النقد عن موضوع اختيار العنصر الكفاء لها، حيث عمد بشكل خفي إلى الترشيح لاتباع الدورة في هيئة تخطيط الدولة أحد المهندسين الذين سبق إيفادهم إلى أمريكا للحصول شهادة الدكتوراه، ويحمل الاختصاصات التي تنسجم مع طبيعة المهام، وأسندت إليه رئاستها، وترك له اختيار الجهاز الفني والاختصاصي، وبذلك أدركت بما لا يقبل الجدل أن الخبرة الناجحة لا تكون إلا بأداء الواجبات بروح المسؤولية العالية، دون اعتبار آخر، وأن معالجة الموضوع على هذا النحو كان ضربة معلم لعصفورين بحجر واحد، تكوين الجهة الاختصاصية والعهد بها إلى من هو أهل لها، وأن بعد النظر أول ما يجب أن يتحلّى به رأس الهرم الوظيفي.

غرور

بعد عودتي من فرنسا التي أوفدت إليها للتخصص المسلكي في المجال الإداري والمالي والاستثماري، دعيت -بناءً على طلب المدير العام الجديد- لحضور اجتماع يحضره مديرو هذه القطاعات، واستهل حديثه بأنه من دعاة فتح باب الإيفاد والتخصص على مصراعيه، استفادة من المنح التي تقدمها الدول المتطورة على حساب نفقة الاتحادات الدولية، وإنني أنتهز عودة موفدنا إلى الإدارة الفرنسية ليحدثنا عن أهم وأبرز ما يجب تطبيقه ضمن الحدود المتاحة بالحدود الدنيا وبأدنى التكاليف.

أوردت عدداً من المجالات، وقيل أن استرسل بالشرح، قوطعت مراراً في محاولة بأن المقترح مطبق لدينا منذ أمد بعيد، ولكن المدير العام رد عليهم بشدة وعلائم الغضب مرتسمة على وجهه: لقد تسرعتم بالحكم قبل معرفة كنه الموضوع، فأنا بحكم تصريف الأمور لا أكنتم بأنه عرض عليّ موضوع تأليف لجان لدراسة ما يجب اتخاذه، حول سلسلة من الأمور التي عرضها الموفد، ومن المفيد هنا الانتظار حتى ورود المقترحات، وأنهى الاجتماع بالطلب مني في الإسراع بتقديم تقرير الإيفاد مع المقترحات المناسبة قطعاً لكل جدل سفسطائي.

ولم يكن ذلك موقفاً جديداً بالنسبة إليّ، لأنني قوبلت بمتله عند مباشرتي عملي المؤسسي، ولكنني تساءلت في نفسي: ألهذا الحد تصل الأنانية؟ وتذكرت فعلاً أن صراع البقاء والاحتفاظ بالموقع الوظيفي يدعوان بالضرورة إلى التسلح بعنصر "الكفاءة والمقدرة وسعة الأفق".

استغلال

اتصل بي رأس السلطة الوصائية على المؤسسة، وطلب إرسال إضبارة الدعوى القضائية المقامة عليه للمطالبة بنفقات إيفاده إلى الخارج للحصول على مؤهل علمي عال في مجال الاتصالات، وذلك لعدم الوفاء بالتزامه بخدمة الدولة ثلاثة أمثال مدة الإيفاد، والتخصص المسلكي في أحد المجالات الفنية، فبدأ لي بأن الأمر واضح، ويهدف إلى الحصول على الكفالة المالية التي استند إليها لاسترداد نفقات الإيفاد، فعمدت إلى رفع النسخة الأصلية بأخرى مصورة، فاتصل بي هاتفياً: أين توجد كفالة الأصيل؟ فأجبتته بأنها لدى المحكمة المختصة كوثيقة رسمية في إضباره الدعوى التي هي ما زالت قيد النظر، وبذلك تخلصت من تصرف لا تحمد عقباه.

انطباع

عقب حرب الخامس من حزيران بأشهر قليلة، قام وزير المواصلات في الاتحاد السوفياتي بزيارة رسمية إلى دمشق لتوثيق أواصر التعاون بين البلدين، وقد تم اختياري لمهمة مرافقته خلال الزيارة، وقد ركز همته الكبير على الحرص على مشاهدة روعة المدينة وآثارها الحضارية، وأبدى رغبته زيارة إحدى المدن الحضارية قرب مدينة دمشق، وقد تحقق له ذلك وأبدى إعجابه الشديد بواجهة قصر الحير في بناء متحف دمشق، وما احتواه المتحف من آثار دللت على كون بلادنا مهد الحضارات في العالم، وزار مشياً على الأقدام سوق الحميدية وسوق مدحت بجميع أرجائه، حيث شاهد بإعجاب شديد أماكن خياطة العباءات والملابس التقليدية وبعض محلات الصناعات اليدوية النحاسية والنقوش، وزار أحد الخانات التي تحولت إلى محلات تجارية لبيع المنسوجات والملابس الجاهزة، وأماكن تخزينها البضائع، وتأثر لعدم الحفاظ على الطابع الأصلي للخان، الذي والحالة هذه أفقده الصبغة التاريخية وإظهار روعة الفن المعماري الذي اشتهرت به مدينة دمشق أعرق مدن التاريخ.

وتابع زيارته مشياً على الأقدام في سوق البزورية، وتفقد معالم حمام نور الدين الشهيد الخارجية، وأبدى إعجابه بتنوع المواد المعروضة الفريدة من نوعها، وزار قصر العظم، وتفقد معالمه، وأبدى إعجابه بروعة بنائه، وشدد في كلماته على موضوع الحفاظ على هذا التراث التليد.

واستمر مشياً على الأقدام، فشاهد الصاغة ومحلات صناعة الأواني الخشبية، وأظهر دهشته بالأيدي الماهرة بهذه الصناعات.

وختم زيارته بزيارة المسجد الأموي الكبير، وتناول في نهاية الزيارة كأساً من الشاي في حي النوفرة، ولدى خروجه من الجامع مر بالمسكية، وشاهد الأعمدة والأقواس الحجرية في مدخلها.

وقد أتاحت له الفرصة في يوم الزيارة الأخير الذهاب إلى بصرى الشام، وفي الطريق طلب التوقف أمام مرتفع يجلس عليه أحد الفلاحين، يحمل بيده مديعاً ويستمتع إلى الأخبار، واتجه نحوه، فما كان من المواطن ألا أن استقبله بعبارة ترحاب تعبر عما يكتنه شعبنا نحو بلده الصديق الذي يدعم قضايانا، وأجاب على أسئلة الضيف بأجوبة تنم عن ثقافة ووعي، فسّر الضيف بهذا اللقاء، وأعرب عن إعجابه الشديد بوعي هذا المواطن، وتابعنا السير حتى مركز المحافظة حيث زار معالمها، وأقام محافظ درعا مأدبة غداء على شرفه في مطعم البحيرة فأبدى إعجابه بجمال الطبيعة الغناء، وأراضيها الخصبة، وكانت خاتمة زيارة هذه المحافظة مشاهدة قلعة بصرى وبناء مسرحها الرائع وآثارها الخالدة.

ضربة معلم

استدعاني المدير العام إلى مكتبه، وطلب إليّ الجلوس، وعرفني على رجل في مكتبه وبدأ الحديث بالقول: بأنه سيورد قصة عن آخر خلفاء الأمويين مروان بن محمد مع ابنه، وكان مسجوناً من قبل العباسيين في حفرة بالرقّة، بباطن أرض حقل ترابية ليس فيها سوى منفذين، أحدهما لدخول الهواء والثاني لتزويدها بكسرات من الخبز اليابس مع جرة ماء، ومن قسوة العيش وضيق الأمل سأله ابنه: أليس الموت أرحم من هذه العيشة الذليلة؟ فنحن الآن أموات في الحياة، فأين العز والجاه الذي كنا ننعم به من طعام وشراب وسمر؟ فأجابته والده: اتق الله يا بني إنهما دعوة مظلوم لم يكن بينها وبين الخالق حجاب، وما كاد ينهي كلامه حتى قلت له: هات من الآخر ما حاجة ضايقتك؟ فقال: إن معاملة تعيين ابنه ما زالت في التنقل بين المكاتب، ولم تقترن حتى هذه اللحظة بالإنجاز، وهو بحاجة ماسة للعمل لتأمين مورد رزق لعائلته، ومضى عليها أكثر من شهرين، فطلبت إمهالي يومين يكون صك الاستخدام جاهزاً بإذن الله، ولن أستفسر عن الأسباب لأن الأعداء مهياًة عند صاحبها فالمهم الوصول إلى النتائج. وبعد مدة اتضح لي الأمر، فقد كان طالب التعيين ابناً لحارس مزرعته، وبذكاء حاد تمكن من الحصول على الهدف دون أن يبدي وساطته، إن الأمر إنساني بحت.

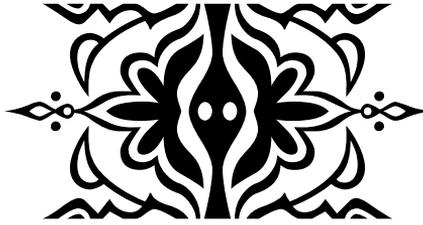
وكانت هذه الواقعة درساً قاسياً لابني وقفت من خلالها على أمور خطيرة أهمها عدم شعور بعض العاملين بالمسؤولية، واتخاذ الموقع الوظيفي سبيلاً للتحكم في مقدرات المحتاجين. فعمدت أولاً إلى عقد اجتماع نوعي طلبت فيه ضرورة إيلاء المواطن كل اهتمام، وخدمته بكل السبل، وعدم وضع حجر عثرة أمام حاجته، وطلبت في الوقت نفسه بأن يقوم كل عنصر بتقديم كشف حساب بما أنجزه من عمل، وما هو بحاجة إلى دعم لتذليل صعوبة ما؛ وذلك بشكل أسبوعي.

أقول هنا: يا حسرة على النفس البشرية التي تتعالى على الآخرين، دون أن تتذكر أن المناصب لا تدوم طويلاً، ولكن وللأسف الشديد، فإن الطبع غلب التطبع، فأين أولئك الذين كان همهم الأول والأخير نصرمة الملهوف، وفعل الخير لأنهما من شيم النفوس الطيبة.

عواصف الأيام

بعض الشعر يرسم على شفثيه بسمة وبعضه يعطيك حكمته وما جاءت به هذه الأبيات من مقولة قالها علماء التربية والاجتماع والنفس في عشرات المجلدات عن سبل حماية الصداقة.

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
فعمت، وأي الناس تصفو مشاريه؟
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى بالمرء نبلاً أكبر تعد معاييه



مروءة ووفاء

كنت بمهمة رسمية في جنيف صحبة زميل في العمل وبعد انتهاء المؤتمر النوعي المصغر لدراسة مواضيع مهنية محددة تفرغنا للتجوال والتسوق بهدايا تكبدنا فيها ما نحمله في جعبتنا من نقود وعدنا إلى الفندق، وهيانا حقائب العودة إلى بلدنا الحبيب صباح اليوم التالي. أمضينا السهرة بدعوة أحد خبراء الاتصالات في الإتحاد من الإدارة الروسية تربطه مع زميلي صداقة زمالة دراسية في موسكو وتناولنا العشاء في منزله وقام بتوصيلنا بسيارته إلى الفندق، وكانت السماء داكنة حمراء، وفي الصباح توجهنا إلى كافيتريا الفندق لتناول طعام الفطور فاستقبلنا مندوب لبنان وكان منفعلاً وعلائماً الغضب الشديد مرتسمة على وجهه فسألنا عن السبب فقال: ألم تشاهدوا المنظر من نافذة غرفتكم؟ فأجبناه بالنفي، فقال: لقد انقطعنا ولا نعرف متى يكون سراحنا فالثلج أصبح بكثافة تزيد عن ٧٠سم جعل المدينة في عزلة عن العالم.

لقد شكّل لنا الأمر صدمة لا حدود لها ووقعنا في حيرة لأن موظف الاستقبال سد جميع السبل أمامنا، وأن علينا ملازمة الغرف حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وبالنسبة لنا فإن المشكلة لا تكمن في البقاء حتى تنتهيا الفرص فهي تتصل ببحث طريقة تأمين أعباء التكاليف المستجدة من جيوب خاوية.

جلسنا في البهو ونحن نتأمل من خلال الجدار الزجاجي على الطريق المنظر المضحك والمبكي في آن واحد ولكن بارقة الأمل تبدت لنا حين شاهدنا أن سكان البيوت الأرضية وأصحاب المحلات مستعدون لمجابهة الوضع حيث قاموا بتجميع الثلوج التي تسد الرصيف وإلقائها على قارعة الطريق لأن بلدية المدينة أسرع في إرسال الجرافات لفتح الطرقات، وبذلك يسهل علينا التنقل بالذهاب إلى المحطة التي كانت قريبة من الفندق وتضم تجمعات الخدمات على أنواعها.

توجهنا بمنتهى السرعة إلى مكتب شركة الطيران السويسرية، وبنيت للمضيافة أننا كنا على أهبة السفر، ولكن استحالت علينا العودة لكون المدينة في عزلة عن العالم، وأنه بمقتضى

أحكام اتفاقية الطيران العالمية أصبح من حقنا أن تقوم الشركة بتغطية النفقات حتى تتاح الفرصة.

أجابني بأدب جم: إنها من الناحية الإنسانية والعاطفية مع تحقيق الطلب، ولكن بصراحة فإن النصوص لا تساعد، لكون حالتكم غير مشمولة بها، وأن كلامك صحيح ومنسجم مع القانون لو كنتم في أرض المطار وعلى أهبة الاستعداد للسفر وحالت الظروف باستحالة مطلقة دون ذلك، ولكنكم الآن في حكم المقيم ببيته، انقطع أول الخيط وفي ضوء ذلك لم يبق أمامي سوى التوجه إلى كوة الاتصال الهاتفي الدولي، وأذكر أن رقمها تسعة، فخشيت أن يكون شحاً علينا باستحالة الاتصال مع دمشق، وشرحت لمأمورة الهاتف بأني سأكلمها بشفافية ومنتهى الصدق والصراحة، ورجوتها أن تساعدني في محنتي موضحاً أنني لا أملك من النقود سوى ١٥ فرنكاً سويسراً وأن تحرص بأن تكون مدة المكالمة لدقيقتين فقط، وأنه قبل انتهائها تقطع الاتصال تفادياً لأي خلاف لاحق.

وبالفعل كانت إيجابية وكريمة حققت لي الاتصال ووضعت عائلتي بأن موعد العودة سيكون لاحقاً.

وقطعاً لكل استغراب لذكر هذه الواقعة أبين هنا بأن الدنيا صغيرة جداً وأن المعروف لن يضيع مهما مر الزمن وأنه بعد الضيق يكون الفرج.

إنه عند خروجي إلى بهو المحطة للاستراحة على أحد المقاعد تقدم مني شخص بزي أجنبي وحياتي وضمني إلى صدره بحرارة وقال لي: ألم تعرفني؟ قلت له لا تؤاخذني الحق على الذاكرة التي خانتي، فعرف عن نفسه وأبدى سروره البالغ بلقائي بعد عقد ونصف من الزمن ولم ييخل بتذكيري بما قدمته له من مساعدة خلال كونه موظفاً في قطاع عملي وأكد عرفانه بالجميل سواء بإعطائي له الأذن الخاص لحضور بعض الدروس النظرية في الجامعة أو تقديم النصائح والعون له عندما كان طالباً يتابع تحصيله الجامعي بدمشق.

وسألته عن حاله فأجابني أنه حصل على شهادة الدكتوراة باختصاص النقل البحري ولديه مكتب في سورية لممارسة أعمال النقل البحري، وهو وكيل شركات نقل أوروبية اتخذ

له مكتباً في جنيف لإنجاز أعمال النقل البحري للمستوردات عن طريق اللاذقية وطرطوس.
وأبدي سروره البالغ بهذه الصدفة التي أتاحت له اللقاء بي، واعتذر عن عدم زيارتي
بدمشق وبين أنه قد تابع بشغف ما ستؤول إليه محاولاتي مع وكالات السفر، وأن ما حدث
يصادف الجميع في الغربية، ودعانا إلى تناول طعام الغذاء معه في مطعم المحطة للتلذذ بطبق
الحساء الذي اشتهر به في العالم.

وقبل وداعي أختلى بي جانباً وأوضح أنه في هذا الظرف الطارئ يعلم حق العلم بأن
الوضع الذي نحن فيه الآن، ومن قبيل الدين في ذمتنا قام بوضع هذا المبلغ في جيبي على
أن يسترده خلال زيارته لأخته بدمشق في شهر آب وأنه لن يتراجع عن خطوته مهما كانت
الأسباب وسارت الأمور كما رسم لها.

ومن مجريات هذه الواقعة الشخصية التي مررت بها تذكرت قول الشاعر المتنبي:
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وعلى قول أجدادنا أنه لو "خليت لخربت" فالدنيا صغيرة.



حنين

قام وزير الاتصالات الفرنسي بزيارة رسمية لسورية بهدف بحث أفق توسيع أواصر التعاون بين البلدين، ورسم معالم توثيقها، وزيارتها في المرحلة القادمة، وقد تم اختياري أن أكون مرافقاً للضيف، وتمت المباحثات في جو ودي وخلصت إلى نتائج مثمرة لمصلحة إداراتي الاتصالات في البلدين، وخاصة تقديم الدعم والمعونة الفنية والخبرات المتطورة في مجالات الاتصالات وتدريب وتأهيل العاملين.

وكرّس أوقات الفراغ للتعرف على معالم المدينة وآثارها التاريخية، وأسر لي أنه قد أمضى فترة طويلة من طفولته في مدينة دمشق، حيث تلقى تعليمه في مرحلة نشأته في مدرسته اللاييك في شارع بغداد.

وقد أصر أن يتناول جدول الزيارة أماكن محددة كانت محل إقامته في صغره، بدأها بأداء الصلاة في كنيسة الفرنسيسكان، وذكر أنها كانت محاطة بحديقة غناء تمتد أمامها البساتين وحقول الخضار والفواكه، وعلى جوانبها مدرسة الراهبات (الفرنسيسكان) ودور السكن بفنّها المعماري العريق.

وخلال زيارته للمدينة القديمة أبدى أسفه الشديد لتبدل معالمها وزوال عدد لا يستهان به من المعالم الأثرية الهامة، وأعرب عن سروره بالمحافظة على سوقي الحميدية ومدحت باشا، وما فيها من قصور وخانات، وشاهد بعض البيوت ذات الفن المعماري الرفيع، وأعجب خاصة بحماماتها التقليدية العريقة المجاورة لها.

وقد أكد قبل سفره على زيارة مسجد السيدة زينب الذي زاره في صغره خلال رحلة قام بها إلى مركز عمل والده في مدينة السويداء، حيث كان مستشاراً في إدارة الشؤون الفنية الفرنسية إبان الانتداب، وأبدى سروره البالغ للتطور الكبير الذي شاهده، والحفاظ على المعالم الأثرية في مدن المحافظة.

وهنا أؤكد مجدداً أنه ما تزخر به مدننا من آثار حضارية تبقى محطة هامة في برامج الأجانب الذين يزورون بلدنا، ويبدون أسفهم ورتاءهم على هدم وإزالة هذه الآثار.

إن ما أورده غيظ من فيض مما في جعبتي من أمور كنت أريد أن أشير إليها، ورأيت الاكتفاء بالأهم، وقد جاء في المذكرات السابقة وبعضها في هذا المؤلف الذي يختلف كلياً في الشكل والمضمون وابتعاده عن أمور تفصيلية خارجة عن نطاق طبيعة العمل الذي أصبح واضحاً على نحو لا يقبل الشك.

وسأختم زاوية مرحلة ميدان عملي في ميدان الاتصالات بمحدثين فرض عليّ أن أتصرف حيالها بالشكل الذي سيتم تبيانها بدافع حماية الذات من مأزق ينال المساس بحقوقتي المشروعة.

أطلق عليها عنوان "زمار الحي لا يطرب" وتتلخص في أنه وقع خلاف بين المؤسسة وشركة تنفيذ مشروع تأمين الاتصالات عبر المحطة الأرضية، دفع الشركة إلى اللجوء إلى التحكيم أمام محكمة الغرفة التجارية الدولية.

تبلغت المؤسسة مذكرة الدعوى القضائية مشفوعة بالدفع القانونية، التي أعدها كبار محاميي الشركة على مستوى عال من الإتقان والقوة القانونية.

استدعاني المدير العام بقوله نحن أمام مشكلة هامة يجب أن نجد لها حلاً يحفظ حقوقنا كاملة، ويخرجنا بنجاح من هذا المأزق؛ فطلبت إليه مهلة لبيان رأبي بعد ثلاثة أيام؛ ليتسنى لي دراستها بعمق وروية، فكان لي ما أردت، وأكد بأنه يثق بي ثقة عمياء في تقديم المقترح الذي يلقي قبولاً من السلطات الوصائية العليا؛ لأهمية الموضوع، ونتائجه الخطيرة في حال خسران الدعوى.

أبدت له باختصار شديد أنني على استعداد لإعداد الرد القانوني بمذكرة جامعة لمختلف الجوانب الفنية والقانونية، مؤيدة بالوثائق والمستندات الدامغة بالسرعة الكلية، وقبل انتهاء الموعد الذي حددته المحكمة، وبينت له أنه من الصعوبة بمكان لأية جهة خارجية ليس لديها أية فكرة عنه أن تلتزم بالموعد.

واشترطت عليه أن يقدر تعبي بأن أكون إلى جانبه عند النظر في الدعوى باعتبار أنه سيكون محكم المؤسسة، وتتوزع المهام بيني وبينه بحيث يكون مسؤولاً عن الجانب الفني وأنا

عن الجانب القانوني.

وبينت له بمنتهى الصراحة بأن الأعين ستقع علي للحصول على صفة المحكم طمعاً في التعويض السخي لهيئة التعليم، حيث سيكون بنسبة ٢٥٪ من المبالغ والغرامات والأضرار التي تحددها المحكمة.

طلب إليّ المباشرة على بركة الله، فسألته هل هناك ضمانات لأن تكون النتائج إيجابية لصالحنا، لأنه يخشى علينا - كما تعودنا دائماً- "الخروج من العرس بلا مَحْصٍ".
نفذت المهمة بمذكرة جوابية متكاملة من جميع الجوانب التعاقدية والفنية والقانونية مرفقة بالمؤيدات الدافعة.

رأى المدير العام أن نعرضها على الوزير، ونحصل على موافقته والبدء باستكمال الإجراءات؛ فأجابنا بأنه كان ينتظر من المؤسسة طلب بيان التوجيه؛ ففوجئ بإنجاز المطلوب، ورأى أن تدرس الإضبارة من قبل لجنة قانونية تم تأليفها لهذا الغرض من كبار أساتذة القانون في كلية الحقوق، واتصل هاتفياً برئيس اللجنة واستدعاه على عجل لمكتبه.
عرض الوزير الموضوع على اللجنة بنفس الجلسة بحضور جميع أعضائها، وسلمها إضبارة متكاملة على أن يرد جوابها خلال ثلاثة أيام لأهمية الموضوع، وإرسال الرد قبل انتهاء المدة القانونية.

وعند خروجنا ضحكت وقلت للمدير العام: طار العصفور وحط على غصن آخر من الشجرة.

بينت اللجنة رأيها بأن الرد القانوني والدفوع الفنية على المستوى المطلوب، وطلبت فقط تعديل مقدار المطالبة المالية يجعله ١٢٠ ألف دولار؛ لضمان الحصول على المقدار المحدد في المذكرة في حال تخفيضه من قبل المحكمة.

فأجبت بأن هذا المقترح سيكون آثاره في زيادة النفقات التي ستتحملها المؤسسة كأعباء مالية نتيجة دعوى التحكيم.

رأى الوزير أن تكون اللجنة القانونية محكم المؤسسة، ويناط بها مهمة الدفاع عن

حقوقها، ولها حق الاستعانة بمن تراه من العاملين في تنفيذ مهمتها.

وفي ضوء هذه النتائج توارد إلى ذهني "حادثة حاكم مصر عمرو بن العاص مع والي الروم في غزة حين قيل له: أحسنت الدخول فأحسن الخروج، فأدرك عمرو بذكائه الحاد أن الوالي قد أضمر له شراً؛ فعاد إليه والتمس منه القيام بزيارة ثانية، يأتي فيها صحبة مجموعة لا تقل عنه ذكاء وفصاحة بالقول والرأي السديد؛ فرجع الوالي عن قراره بقتل الوفد قبل خروجه، وتمكّن عمرو من النجاة وقال: لن أعود لمثلها أبداً". فجمعت الأضياب التي وزعتها وحفظتها لدي، وقلت للمدير العام: لن يحصل أحد بعد الآن على ثمرة جهدي الشخصي ولو كلفني ذلك عملي الوظيفي.

وقد مر الموضوع بتسويته ودياً بناء على رغبة الطرفين، وحصلت على مكافأة مالية لقاء جهودي التي لم تسمن ولم تغن من جوع.

واقترحي تسميتها "زمار الحي لا يطرب" لأنني لم أتلق أي كلمة شكر أو ثناء على ما بذلته من عناء في إعداد المذكرة التي اقترنت بإعجاب جهابذة القانون، من حيث كونها ملمة بجميع الجوانب القانونية والفنية، ولكنني قوبلت مثل ما قوبل به أحد العازفين والمطربين بعد أن أعتلى عرش الطرب في البلدان المجاورة لدى عودته إلى بلده بسلبية شديدة، ولم يجر له حسن الاستقبال والترحاب حيث كان يتوقع.

الثانية أطلق عليها عنوان "رحمة السماء" وتلخص بأنه طلب إلي من رئيس الهرم الوظيفي أن أشارك في اجتماع حيوي هام لكبار المسؤولين في الدولة باعتباري رئيساً للمجموعة القانونية لمشروع في بالغ الأهمية؛ فحاولت الاعتذار لأن البحث سيتناول جوانب فنية بحتة خارج اختصاصي، فأصر علي الحضور، وخلال مناقشته ركّز مدير المشروع على الأسباب التي أعاققت سبل التنفيذ، وهي عدم توفر العنصر البشري الكفاء، فسئلت عن صحة ذلك فبدأ لي أن الأمر واضح ويهدف إلى التهرب من المسؤولية، والعمل على رمي الكرة في غير محلها الصحيح، وتذكرت بهذا الصدد قول سيد الفقه الإمام الشافعي

طيب الله ثراه:

ولا خير في ود امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل

وانبريت إلى تقديم الرد بهدوء وبرودة أعصاب، وأكدت أنه لو أُحِطت علماً في الموضوع لهيات المستندات المؤيدة، ولكنني فوجئت بالدعوة نهاية الدوام الرسمي على عجل، وهنا أتساءل: لماذا لم تلق اقتراحاتي التي قدمتها لحل الموضوع إيجابية كاملة؟ سيما منها اقتراح تأمين الاختصاصيين، وهم لن يتجاوزوا في جميع الأحوال ضعف أصابع اليد، من كادر في المؤسسة يزيد عددهم عن ستة آلاف؛ لندبهم للعمل في المشروع، وأرجو إعطائي مهلة ليوم واحد حتى أتقدم بمذكرة بالموضوع.

فطلب رئيس الاجتماع الاستراحة لبعض الوقت وأشار إليّ للاجتماع معه، وسمعته يقول لنائبه للشؤون الاقتصادية: يا له من ثعلب ماكر، أدخلنا في دوامة، -ويقصد بذلك المدير التنفيذي للمشروع-، فاستفسر مني عن بعض الأمور، وسألني عن أحوالي؛ فأجبت به بكل جرأة: بأنني غير مسرور من تصرف رئيسي المباشر، حيث وجهتم بأن تكون السيارات الحديثة لمستحقيها، ولكن وللأسف الشديد صار الأمر كما يقول المثل العامي "خيار وفقوس" وتم التوزيع على هواه، وكان واقفاً خلفي يستمع الحديث؛ فأمره الرئيس بتسوية الموضوع فوراً وإعلامه بالتنفيذ.

وأختم هذه الواقعة بقول الشاعر الحكيم:

إذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مآتماً وعوديلاً

اعتراف

وأنتهي مذكراتي هذه بما صادفته من أمور حلوة ومرة اقتصرت على عدد محدود جداً، وهي من حيث الكم شيء لا يذكر، وكنت أهدف من ورائها التدليل بأن الطريق ليست دوماً مفروشة بالورود، وأنه من واجب المرء ألا يقف مكتوف الأيدي أمام معاكسات الدهر، وأنه يجب عليه التذرع بالصبر، ويمثل لقول الشاعر:

لا تحسبن المجد تماًراً أنت آكله لن تنال المجد حتى تلحق الصبراً

وكان بودي الإكثار مما توارد في ذهني وأنا أكتب هذه الذكريات، وكانت في واقع الحال أكثر من أن تحصى، وأمام هذه الحقيقة أتمنى أن يكون ما جاء ذكره منها قد نال الرضا والقبول من سواي ولكن من المؤكد أنه سيتم منها استخلاص العبر.



حكم القوي

إنني هنا أمام حادثة لم أتوقع أن تكون نتائجهما على النحو الذي آلت إليه، وتأكدت أن النفس البشرية هي واحدة مهما اختلفت الأوضاع، فهي أمانة بالسوء مهما علت أو نزلت إذا تجردت من المثل العليا والأخلاق، ويترك الحكم عليها لذوي الضمائر الحية في ضوء تصرفاتها الفعلية.

كلفتم قبل انتهاء خدمتي الوظيفية بمهمة تخرج عن واجباتي الوظيفية الأساسية، تتطلب خبرة وجهداً كبيرين، الأمر الذي دفعني إلى بذل المستحيل لتنفيذ المهمة على أكمل وجه؛ فأثمرت النتائج بوضع وإعداد جميع متطلبات إحداث شركة إنتاجية لتجهيزات فنية للاتصالات، بشراكة بين المؤسسة وشركة عالمية في التصنيع، وقد تناولت النظم التي وضعت مشاريعها ما يلي:

- الجدوى الاقتصادية للمشروع.
- النظام الأساسي الذي يحدد حقوق وواجبات الشركاء ومسؤولياتهم وبشكل خاص العلاقات الثنائية بين الطرفين الشريكين.
- نظام العاملين في الشركة.
- النظام المالي للشركة.
- نظام التخزين والتسويق محلياً وفي الأسواق المجاورة.

اقترنتم الأنظمة بموافقة الجهات الوصائية السورية، واعتمدها مجلس إدارة الشركة، ووضعت حيز التنفيذ، وظهرت الشركة إلى العلن، وباشرت مهامها وفق الأصول المقررة، وتوليت أمانة سر مجلسها الإداري في اجتماعه الأول، وهنا يبدأ الشيء المحزن فيها عندما طلبت من المدير التنفيذي للشركة -الذي كان رأس الهرم الوظيفي للمؤسسة، وهو الذي كلفني بالمهمة- أن يفني بوعده الذي قطعه على نفسه، بأن يستصدر ما يؤمن حصولي على التعويضات الذي حددها بلسانه عند التكليف، بمئة ألف ليرة سورية عن كل نظام، ومكافأة تشجيعية عن الجهود التي بذلتها في مرحلة التأسيس.

وهنا قال جوابه القاسي: "لم ينل أحد تعويضاً لقاء الجهد الذي قام به!!"
واقترحت عليه أن يقدر أتعابي وأكون المستشار القانوني للشركة؛ فسد السبل في وجهي، وكان الحديث معه بحضور صديق لي وله يتمكن من التأثير عليه وحمله على انصافي، وقد ظل صامتاً، ولما خرج من مكتبه عرج في طريقه إلى زيارتي، فنظرت إليه نظرة استدل منها على ما أريد قوله، فبادرني القول: إنني لا أشك بكائك، وما تتمتع به من حسن تصرف في مثل هذه المواقف، إنني في الحقيقة استغربت تماماً كيف ذهب عن بالك أن تستهل حديثك بالقول: لقد آن الأوان أن تحصل على ثمرة أتعابك التي بذلتها في مرحلة تأسيس الشركة، وإنني سأعد مذكرة تتناول جهودك الكبيرة التي كنت أنت شريكاً بها فهو الأصل وأنت الفرع، وعوضك على الله.

فكرت بما قاله، واستعرضت الموضوع من جميع جوانبه فوجدت أنني قد قصرت بحق نفسي منذ البداية ولا يوجد ما يدعم مطالبي بالتعويضات قضائياً، وأن الثقة المطلقة بمن ليس هو أهل لها غير واردة في التعامل الرسمي، وبذلك انطبق عليّ القاعدة الفقهية "المقصر أولى بالخسارة" ولم يعد في الأمر حيلة سوى تذكر قول الشاعر:

سلام على الدنيا إن لم يكن بها صديق صدوقاً صادق الوعد

ومن قبيل ذكر الحقيقة أبين بأنها هذا الموقف الذي يتسم باللؤم والابتعاد عن شمائلنا وأخلاقنا لم يكن الأول، ولكنه الأخير، وأقول بصراحة تامة: إن طبيعة العمل في الحقل الوظيفي شأنها كغيرها في مجالات العمل الخاص، تسودها روح الغيرة والحسد، وتعالج من زاوية الأنانية المطلقة.

وأخيراً أحب أن أذكر بأن المناصب لا تدوم طويلاً، وأن كل امرئ في هذه الحياة يذكر بعمله، وهنيئاً لأصحاب الذكر الحسن.

اعتذار

يزخر التاريخ العربي والإسلامي بمواقف مشرفة وأقوال ماثورة للعدالة بأنواعها المختلفة في حياة الشعوب، وإن أي انتقاص منها أو العزوف عنها يؤدي إلى عواقب وخيمة، تنعكس على جميع النواحي الاجتماعي.

وحين تمارس العدالة على الأرض بأيد أمينة يشعر الإنسان أنه بين كفتي ميزانها، وحين يفقدها يشعر بخيبة أمل، ويصبح بنظره موضوع ردها إليه عمل إنساني عظيم.

وفي ظل ظروف المرحلة الراهنة التي يعيشها العالم أجمع زالت معالم العدالة في الأقطار، وأصبح من الضروري الرجوع إلى الأقوال الماثورة التي سلطت الأضواء على أهميتها والعمل على كل ما من شأنه إعادة الحق إلى نصابه، ولا سيما في المرحلة الراهنة التي تسلط منها القوي على الضعيف، وبدا ذلك واضحاً في القرارات التي يتخذها أولئك الذين غرتم المناصب الوظيفية بإصدار أحكام بعيدة كل البعد عن إعطاء كل ذي حق حقه المشروع.

وبما أن هذه الظاهرة السلبية في الوقوف حجر عثرة أمام العدالة ليست حديثة العهد، بل قديمة قدم الزمن، تناولها أصحاب الرأي الراجح والخبرة بمجمل من الأقوال الماثورة.

استشهد منها بما قاله الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له: "أما بعد، أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أعيده عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطيع الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

ما أروع هذا الكلام وحسن التوجيه ومكارم الأخلاق وصنيع التعامل الصحيح. كما أستشهد أيضاً بقول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين خاطب الناس: "رحم الله إمرأ أهدى إلي عيوبي".

وهذا القول يعرف في الوقت الحاضر بعملية النقد والشفافية والإفصاح.

ولن أستفيض أستغيض في تقديم شواهد من المآثر والمثل العليا التي رسمها أجدادنا،
وأصبحت دليلاً بيّناً يستهدي بها أكثر عظماء العالم.
وأختم هذه الخاطرة بقول القائد صلاح الدين الأيوبي لجنوده عقب انتصاره في
حطين: "لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيف حاكم، بل بقلم القاضي العادل".



مآثر من التاريخ

ضمنت مذكراتي السابقة بعض الفناعات الشخصية في مجالات تتصل اتصالاً وثيقاً في مجالات تهتم بها فئات محددة من أبناء المجتمع، ووجدت من المفيد هنا تضمينها مواضيع متنوعة متعددة الأهداف ترمي إلى توسيع آفاق المعرفة في جميع المجالات: الأدبية والشعرية والثقافية والحوادث الطريفة ذات المغزى، والعبر التاريخية والحديثة، بين سلسلة متنوعة أبينها فيما يلي:

من واقعنا الاجتماعي الحقيقي

شعر أكبر أغنياء دمشق بدنو الأجل بعد مرض عضال؛ فاستدعى رجال الكهنوت من قسيسين ورهبان لإتمام واجباته الدينية، لتصعد روحه طاهرة إلى السماء، وبعد إتمام المراسم حدد وصيته بأن يخرج كفه الأيمن من التابوت بشكل ظاهر للعيان، ولما سئل عن السبب أجاب ليعتبر الخلق أنه مهما كانت ثرواتهم المالية ضخمة يذهبون من الحياة وأيديهم فارغة وتبقى ذكراهم بعملهم الصالح.

من التاريخ القديم

صادق أحد المسافرين على حصانه رجلاً يمشي والتعب والإرهاق ظاهر عليه، وسأله عن وجهته فكانت لنفس المكان الذي سيسافر إليه، واقترح عليه المرافقة وتناوب ركوب الفرس، وبعد استراحة قصيرة امتطى الرجل صهوة الجواد وابتعد مسرعاً عن صاحبها وأطلق العنان، فناده وقال له: ناشدتك الله ألا تحدّث أحداً بما قمتَ به لئلاً يضيع فعل الخير بين الناس.

من روائع الأدب العربي

يقال إن رجلاً كان في جزيرة، فأراد أن يعبر على قربة قد نفخ فيها، فلم يحسن إحكامها حتى إذا صار في وسط البحر، خرج منها الهواء فأشرف على الموت، فاستغاث برجل قدّم له نصيحة ليتقن إعداد القربة قبل النزول إلى الماء، فلم يستمع إليه، ولم يأخذ بها، فقال له: "يداك أوكتا وفوك نفخ" وذهبت مثلاً يضرب لمن يجني على نفسه ولا يأخذ بالنصيحة.

من مجالس الأدباء

اصطحبت امرأة ولدها الذي لا يتجاوز عمره العشر سنوات إلى مجلس للأدباء والشعراء في دار الفيلسوف والأديب العربي الكبير أبي العلاء المعري؛ فاستمع الطفل إلى ما تم طرحه من مواضيع أدبية، فتوجه بالسؤال إلى المعري: "مولانا ألسنت أنت القائل:"
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم يستطعه الأوائل
فرد عليه المعري بالإيجاب، وما هو المطلوب؟ وبسرعة فائقة أجابه الطفل: لقد جاء الأوائل بأحرف الهجاء فهل تستطيع أن تضيف عليها واحدة عما هي عليه؟ فدهش المعري وقال إن ذكاه يأكل من عقله.

أعذب ما قيل في التوبة

يتجه المرء إلى خالقه عند الشدائد، ويتضرع إليه أن يصرف عنه المصائب، ويطلب إليه الغفران والمغفرة عند دنو الأجل؛ لأنه هو المسامح الكريم.
وانطلاقاً من سلوك البشرية جمعاء؛ فإن أحكامها بحق الآخرين تصدر في كثير من الأحيان مبنية على ظواهر الأمور دون أن تسير أغوارها في الأعماق.
ومن قبيل التأكيد على ذلك، لقد تم زرع أفكارنا من قبل نقاد الأدب -عند دراسة

حياة الشاعر أبي نواس - أنه شاعر المجون والخمرة، ولم يتناولوا الإشارة - ولو بإيجاز - إلى كبير القصائد التي قالها عند توبته إلى الله تعالى في مراحل حياته الأخيرة، واكتفوا بالتدليل على قصيدته العصماء في الخمرة التي مطلعها هذا البيت:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوئي بالتي كانت هي الداء
ومع مرور الأيام وخلال مطالعاتي لبعض قصائده في ديوانه الزاخر لجميع أنواع الشعر،
وقفت على أبيات بقيت راسخة في عقلي عن توبته إلى الله وإيمانه العميق، أذكرها من قبيل
الشواهد على هذا الحكم:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة
إن كان لا يرجوك إلا محسن
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً
مالي إليك وسيلة إلا الرجا
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
فبمن يلوذ ويستجير المجرم
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم؟
وجميل عفوك ثم إني مسلم

وقال أيضاً:

إلهي إن يكن ذنبي عظيماً
فمن أرتحي مولاي عفواً
تركت الناس كلهم ورائي
فعاملي بجدك واعف عني
فعفوك يا إله الكون أعظم
وفضلك واسع لكل مغنم
وجئت إليك كي بالقرب أنعم
وإن تغضب فمن يغفر ويرحم؟

ومن قبيل المقارنة أذكر قول أحد الصوفيين في الاستغفار:

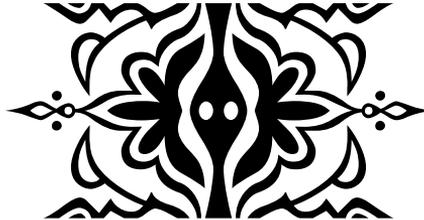
إلهي عبدك العاصي أتاك
فإن تغفر فأنت لذاك أهل
وقال أيضاً:

يا من خزائن ملكه في قول: كن
مالي سوى فقري إليك وسيلة
مالي سوى قرعي لبابك حيلة
أمنن فإن الخير عندك أجمع
فبالافتقار فقري إليك أدفع
فإذا رددت فأني باب أقرع؟

ومن الذي أدعو وأهتف باسمه
وقال شاعر آخر:

فاغفر لعبدك ما مضى وارزقه
فافعل به ما أنت أهل جميله
وقال آخر:

لطف اللطيف بخلقه لا يختفي
هو حسبنا، كم حادث ضبقنا به؟
فجميله تُخفى الهوم وتنجلي
ذرعاً ففرج كربة اللطف الخفي
ويبدو من خلال التشابه في الابتهاال إلى الخالق الكريم نفس المشاعر الإنسانية
بالإيمان العميق الذي يجيش في الصدور.



مواقف خالدة

من القصص النادرة التي يزخر بها تاريخنا العظيم وتحمل مغزى عميقاً، أجد من المفيد التذكير بها، في محاولة لزرع الأمل في النفوس، بأن يعيد التاريخ نفسه في أيامنا هذه، وأذكرها بكل زهو وافتخار:

١- لقاء الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أحد قادة الفرس

يتلخص الموضوع بأن القائد الفارسي "هرمزان" الذي جاء المدينة مع وفد له لمقابلة الخليفة عمر بن الخطاب، وكان بأبهى زينته، يرتدي الديباج والذهب المطلي بالياقوت واللالئ، فسأل عن الخليفة؛ فأجيب: إنه في المسجد، فاتجه إليه واستفسر عنه، فأشاروا بأصبعهم إلى رجل نائم في الأرض، وكان متوسداً على يده، ويرتدي عباءة عادية جداً، ودرته معلقة بيده، فدهش القائد الفارسي وقال بأعلى صوته: ليس له حراس ولا كتاب ولا ديوان؟ ينبغي أن يكون نبياً، فقالوا له: بل يعمل عمل الأنبياء، وأمام ارتفاع الأصوات استيقظ الخليفة عمر وعرفه وشاهده على تلك الصورة في اللباس والزينة، فقال أعوذ بالله من النار، واستعين بالله، الحمد الذي أذل هذا وأشياعه يا معشر المسلمين، تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بنبيكم، ولا تبتركم الدنيا، فإنها غدارة، ولم يقبل أن يتحدث معه حتى لا يبقى عليه زينة، فارتدى وحاشيته لباساً عادياً، وجرى بينهما حوار طويل، وقال القائد الفارسي بأعلى صوته كلمته المأثورة: "حكمت فعدلت فنمت يا عمر، وملكنا وظلمنا فخفنا فسهرنا، وبذلك انتصرتم علينا". ثم أسلم وسكن في المدينة.

٢- جابر عثرات الكرام

قصة من أروع قصصنا التاريخية التي تعبر عن النخوة والشهامة وعزة النفس، وتعطينا نموذجاً يجب أن نستهدي به لنحيي هذه المآثر في واقعنا الراهن، كان في زمن الخليفة الأموي

سليمان بن عبد الملك رجل من بني أسد، اشتهر بالمروءة والكرم والمواساة، وكانت نعمته وافرة، فلم يزل على تلك الحال حتى حلت به ضائقة، فلجأ إلى إخوانه، فساعده حيناً ثم ملّوه، فلاحظ تغيرهم فقال لزوجته: قد لمست من إخواني تغيراً، وقد عزمت ألا أزجج أحداً بعد الآن، وسألتزم داري حتى يأخذ الله أمانته، فانقطعت أخباره، وفي أحد المجالس لدى الوالي عكرمة الفياض جرى ذكر خزيمة بن بشر، وسأل عنه الوالي؛ فأجيب: إنه قد ساءت به الأحوال؛ فالتزم بيته، وأصبح في حالة يرثى لها لأنه لم يجد كريماً ولا مواسياً، فكف عن الاسترسال بهذا الحديث لأمر أخفاه في نفسه، ولم يفصح عنه، وفي المساء خرج متنكراً وبشكل سري حتى وقف بباب خزيمة، فطرق الباب ونقده كيساً فيه أربعة آلاف دينار وقال له: أصلح بها شأنك، ولما وجد خزيمة الكيس ثقيلاً سأله من أنت؟ جعلت فداك. وأمسك لجام الدابة بيده لمنعه من الرحيل؛ فأجاب عكرمة: ما جئتك متأخراً ومتنكراً وفي قرارة نفسي أن تعرف من أكون، ولكني أقول لك: أنا جابر عثرات الكرام، ثم انصرف.

ولما رجع عكرمة إلى بيته وجد امرأته قد افتقدته وارتابت، ولطمت خدها، واستفسر منها عن السبب فأجابت: سوء فعلتك، يخرج الوالي هدأة الليل سراً متخفياً إلا إلى زوجة أو سرية، فنفى ذلك وأصرت فأعلمها.

صلح حال خزيمة وقصد خليفة المسلمين، واستفسر منه عن سبب إبطائه بالزيارة، فقص عليه قصة زائر الليل، وأنه يجهل اسمه، إلا أنه سمع أنه يقال عنه: جابر عثرات الكرام، وتلهف الخليفة لمعرفته لمكافأته على مروءته.

عاد خزيمة إلى بلده وقد قلده الخليفة الولاية، فأمر أن يحاسب عكرمة، فحوسب واتضح أن هناك نقصاً كبيراً في خزانة الدولة، فطلب إليه عكرمة تسديده؛ فأجابه إنه عاجز عن ذلك، فوضعه خزيمة في السجن مكبلاً بالحديد، وضيّق عليه، ولما ساءت حاله إلى أبعد الحدود، وانتشر الخبر، وبلغ ذلك زوجته، دعت جارحها - وكانت صاحبة عقل سديد - ودخلت على خزيمة وقالت له: هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد؟ فلما سمع كلامها خزيمة قال: واسوأته! جابر عثرات الكرام؟! واتجه من

فوره مع وجوه أهل البلد إلى الحبس ورأى الحال الذي آل إليه؛ فاحتضته خزيمة، وقبّل رأس عكرمة الذي سأله عن السبب فأجابه خزيمة: "كرم فعلك، وسوء معاملتي، غفر الله لي ولك" وأمر أن يجهز نفسه لملاقاة أمير المؤمنين، وسأله الخليفة ما وراءك في العودة إلينا على عجل؟ فأعلمه خزيمة بالأمر، وضحك الخليفة وقال لعكرمة: كان خيرك له وبالاً عليك. صحح الخليفة الوضع، فأعاد عكرمة إلى الولاية، وترك له معالجة موضوع خزيمة بالشكل الذي يراه مناسباً، وبقياً يديران شؤون الولاية معاً طيلة خلافة سليمان بن عبد الملك.

٣- علو الهمة

إن مقارنة بسيطة بين طبيعة الحياة الماضية والحياة المعاصرة، يتجلى بوضوح الاختلاف الجذري بينهما، وما تتميز به كل منهما، حيث في الأولى البساطة التي تدخل القناعة في النفوس وعدم المغامرة في حين إن الثانية تدعو إلى عدم الوقوف مكتوفي الأيدي وقبول الأمور على عواهنها وقد كان ذلك محط اهتمام بعض الشعراء لشحن الهمم أذكر منها الآتي:

لا تحسبن المجد تماًراً أنت آكله لن تنال المجد حتى تلعق الصبرا
إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
ومن يتهبب صعود الجبال يعيش أبدا الدهر بين الحفر

نوادير الظرفاء

من التراث العربي الخالد الذي ورثناه من الأدب العربي موضوع أدرج بعنوان "نوادير الظرفاء" لأنها نوع من الفكاهة التي تبهج النفس، وتدخل البهجة والسرور إليها. ومن الظرفاء الذين ورد ذكرهم، أكتفى بتسليط الضوء على ثلاثة منهم:

الفارابي أحد علماء عصره، برع في جميع المجالات، وخاصة ميدان الموسيقى، وكان من حيث البراعة في اللحن والتأليف ما جعله موضع الإشادة بفنه من قبل الموسيقين العالميين.

في إحدى الحفلات الموسيقية أبدع الفارابي في عزف قطعة موسيقية عذبة، أدخلت البهجة والسرور في قلوب المستمعين، وبدا عليهم الفرح والنشوة بعدوبة اللحن ووقعه في النفوس.

ثم تابع العزف بلحن مؤثر أثار في نفوس المستمعين الحزن والألم؛ فأجهشوا بالبكاء الشديد، وبدا على وجوههم الأسى.

ثم ما لبث أن عزف قطعة موسيقية رقيقة أنعشت القلوب وهدأت المشاعر، وبدت على المستمعين ظواهر الراحة النفسية دفعتهم إلى التثاؤب والدخول في نوم عميق. فتركهم على حالهم وانصرف.

وهو من أشهر ظرفاء عصره، وغنى بما جاء عنه بالتعريف، وفي إحدى جولاته **حجا** في السوق، تقدم منه أحد المارة وصفعه على وجهه صفعه شديدة ارتعدت منها فرائصه، فنظر إليه حجا وهو جاحظ العينين: ماذا فعلت يا هذا فمن أين تعرفني؟ فأجابه المعتدي: آسف أشد الأسف فقد حسبتك فلاناً - ولي عنده ثأر - أعترت ثانية على فعلتي، فرد عليه حجا: أين تصرف هذه هيا بنا إلى القاضي.

مثل الخصمان أمام القاضي، وكان قريباً للمعتدي، فغمز القاضي قريبه، وبعد سماع

أقوالهما غمز القاضي قريبه، وأصدر حكمه بتغريمه مبلغ عشرين ديناراً، وطلب إليه القاضي أن ينقدها لجحا؛ فأبدى أسفه لعدم وجود المبلغ لديه، فأمره القاضي بالذهاب لإحضارها، وطال الانتظار ولم يعد، فما كان من جحا - بعد أن فكر ملياً بغمزي القاضي - فعرف أنه قد ضحك عليه، واقترب من منصة القاضي وصفعه صفعة حادة مماثلة وقال له: متى ما حضر صاحبك فخذ الدنانير، تعويضاً لك وانصرف.

أشعب وهو طفيلي اشتهر بين قومه بحبه الشديد لحضور الولائم والأفراح دون أية دعوة، وفي إحدى جولاته بأزقة المدينة استنشق رائحة إعداد وجبة غداء بالسّمك بأنواعه المختلفة، وهمّ بالحضور؛ فطلب صاحب الدعوة أن يتم جمع كل السمك الكبير في قصعة وإبعادها مجلس أشعب، ووضع قصعان السمك الصغير أمامه، فجلس أشعب وقال: لا قيام على طعام، إن بيني وبين السمك ثأر كبير، فقد غرق أبي في البحر والتهمه السمك، والآن حان ذلك؛ فمسك سمكة صغيرة وقربها إلى أذنه، فما كان منه إلا أن أعادها إلى القصعة، فقبل له: ما بالك يا أشعب؟ فأظهر بأن الحزن بدا عليه: لقد همست السمكة بأذني قائلة: حرام عليك أن تأخذني بجريرة سواي، فأنا صغيرة جداً ولم أحضر مأساة والدك، وإن تارك لا يكون إلا من السمك الكبير الذي تغذي بأبيك، فضحك الجميع وشاركهم الغداء.

مسك الختام

وأحب أن أنهي هذه الزاوية بنصيحة ثمينة أوردتها رسولنا الكريم محمد ﷺ في معرض التحدث عن الصداقة البريئة في حديث نبوي شريف فأقول:
إن المسايرة والصداقة اليوم تكشف حقيقة الإنسان، ومن ساير الأشرار والفاستدين فلا بد أن يصاب منهم بشيء، وكذلك الأمر بالنسبة للأخيار والصالحين، وأبيات الشعر التالية تفسر كل شيء:

كفى واعظاً للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتفتدي

* * *

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
فإن كان ذا شر فجانبه سرعة وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
إذا ما رأيت الشر يبعث أهله وقام جناة الشر بالشر فاقعد

وصدق سيدنا رسول الله ﷺ حين قال: "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال" وذلك أبلغ قول في هذا الصدد.

توضيح

جاءت هذه المجموعة من الموضوعات متنوعة، آمل أن تكون محببة لدى الجميع، وأنها قد أدخلت في نفوسهم السرور، واستجابت في الوقت نفسه إلى رغبات واهتمامات الكثيرين؛ لأنها ثمرة أتعاب القدماء الميامين.

وأؤكد أنني قد توخيت من كل ناحية أوردتها هدفاً محدداً تم ذكره بوضوح، أو الاستنتاج من وقائع الحدث ووضوحه.

وكم كان سروري كبيراً عندما لمست بأن التركيز في مذكراتي السابقة على كثير من الأحداث التاريخية، التي جاءت في محله تماماً، وأكد بشكل قاطع عن الترابط التاريخي بين الماضي والحاضر وأثر كل منهما على الآخر.

خاتمة

أنهي كلامي كما تعودت في حياتي بخاطرة أهداف من ورائها التذكير بشيء يجيش في صدري، وأعتقد - بما لا يقبل الشك إطلافاً - باهتمام الجميع كذلك.

حيث أبين هنا أنه من خلال الاستدلال من مجريات الأحداث والأمور، أنه يجب إعادة بنية مقومات المجتمع الأساسية التي تقوم على القلوب والعقول، والأمل والثقة التي كانت من أهم صفات مجتمعنا في تاريخه الطويل، وإعادة صقلها على نحو تعود فيه لأصالتها الراسخة في النفوس، تتجلى بقلوب متألقة وعقول نيرة وأمل مشرق، وثقة عمياء والقدرة على فعل المستحيل والتأقلم مع الحياة المعاصرة.

وأتمنى أن تكون جميع الأمور التي جاءت في هذه المختارات قد عكست صوراً حية حقيقية عن الحب والسلام والعيش المشترك والوحدة الوطنية وحب الحياة والكفاح من أجل غد مشرق.

من قبيل التذكير

تعرضت بلادنا عبر العصور الطويلة إلى حروب وغزوات في الوقت الذي كانت فيه شعلة الحضارة تتعالى في جميع الآفاق، وتحسد ذلك بتجزئة الإمبراطورية العربية والإسلامية إلى دويلات؛ بهدف بسط السيطرة عليها؛ لأسباب واهية، بعيدة كل البعد عن الحقيقة التي كانت واضحة وقتها، تتمثل بالاحتلال ووضع اليد على ما تزخر فيه من خيرات وعطاءات خيرة.

استيقظت الأمة بعد غفوتها حيناً من الزمن، ونفضت عن نفسها آثار التخلف والتأخر في سلم الحضارة، وكرّست جميع إمكاناتها - وهي والحمد لله أكثر من أن تعد وتحصى - وبدت قدرتها على احتلال المكان اللائق لها تحت الشمس، ولكن ذلك لم يرق لأولئك الذين كانوا يعملون في الخفاء؛ لوضع الخطط، ورسم المؤامرات التي تحول الاستمرار بهذه النهضة، وبالتالي تحقيق حلمها الكبير، بأن تكون تابعة، ويكون لتلك الجهات القول والتدخل بشؤونها والتحكم بقدراتها، على النحو الذي يضمن مصالحها بأن تكون دولنا تابعة، ويكون شيء آخر سبق تبيانه بوضوح تام بهذه المذكرة.

ولن أطيل الكلام.. لقد بدا الوضع واضحاً كأشعة الشمس بما تعيشه بلادنا هذه الأيام في وضع لا تحسد عليه غني عن التعريف، وتعاني من أوضاع مأسوية يندي لها الجبين ووصمة عار في جبين ما يقال عنه العالم المتمدن.

وأمام هذا الواقع المؤلم الذي يدمي القلوب وينال من عزة وكرامة الوطن الذي أنتمي إليه أقول بكل صدق وأمانة ولربما يشاركني فيه الجميع: بأن يكون الله معنا في تجاوز هذه المحنة، وأبتهل إليه بخشوع أن يحفظ كيان وطننا العالي ووجوده في هذا العالم، وينعم على أبنائه بالخير والعطاء والعزة والكرامة، إنه على كل شيء قدير، وبه نستعين، أن يلم شمل الأمة تحت راية المحبة والوفاء. والله من وراء القصد وبه نستعين،،،

محمد لطفي الغنام

١٤٣٧/٨/٢٥ هـ الموافق في ٢٠١٦/٦/١ م

مذكرات خاصة نهائي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحب قبل البدء بالتحدث عن ذكرياتي الخاصة لأمر عايشتها خلال عمري المديد الرجوع إلى الوراء للتكلم عن أمور وقضايا مصيرية هامة تتعلق بقدسية هذا الوطن الغالي. أستبق القول بأن تلك الأحداث صفحات مشرقة في تاريخ أمتنا الحديث، ومنازة مضيئة لأجيالنا الصاعدة، تستهدي بها في شق طريقها بالحياة، متمثلة برجال الوطن الأحرار وشهدائه الأبرار.

وقطعاً لكل استغراب، أبين أن تضمين ذكرياتي الشخصية معلومات هامة عن فترة تاريخية قبلها يرمي إلى بيان أثر الأجواء الضبابية أو المفرحة في صقل النفوس. وجُلُّ مُنْاي فعلاً أن تنال هذه الأطياف من الماضي قبول القارئ الكريم ورضاه، مذكراً بأنه ليس للمثقف من مصداقية إلا مع اتساع المعرفة. والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا،،

محمد لطفي الغنام

١٤٣٧/٠٧/٠١ هـ الموافق ٢٠١٦/٠٤/٠٨ م

إهداء

خلال مسيرة حياتي الطويلة التي بلغت ثمانية عقود، مرت أحداث جسام فرضتها ظروف المرحلة التاريخية التي حصلت فيها.

ورغم كونها أحداثاً هامة، فقد بقيت لدي ضمن إطار الذكريات، ولم تسنح لي ظروف الحياة القاسية أن أدونها، وما أن سنحت الفرصة حتى بادرت إلى كتابتها؛ لأضعها في متناول من أحب، وبشكل خاص أبنائي الذين شجعوني، وكان لذلك كبير الأثر في نقلها من طي الكتمان إلى العلن قبل انتقالني إلى دار البقاء، باستثناء ما كان منها متصلاً بتاريخ هذا البلد الذي سطرّ بمداد من ذهب.

وحتى لا تكون هذه الومضات جافة تبعث إلى الملل، عمدت إلى تضمينها أموراً من تاريخ بلدنا الحبيب، يمكن لكل من يحب التعمق في مجرياتها العودة إلى المراجع الموثقة المحفوظة في المكاتب، باعتبارها تتصل بقدسية الوطن ونضال شعبه العظيم.

أبنائي الأحبة: محمد الهادي، أحمد مهند، بانه، محمد ماهر الغنام، وأحفادي فلذة كبدي: محمد لطفي ويوسف الغنام.

استلموا مني هذه الأمانة هدية متواضعة تنير أمامكم درب الحياة لغد مشرق مملوء بالتفاؤل والأمل.

وفقكم الله،،،

شجرة العائلة

كان جدي لأبي الحاج محمد لطفي الغنام ضابطاً برتبة بكباشي "مقدم" في الجيش العربي، وكان مسؤولاً عن قطاع الإمداد والتموين في دمشق وحمص، وتقاعد مريضاً نتيجة إصابته بكسر في عظم الحوض وعظم الفخذ، خلال تفقده سير العمل في أزرع عند نزوله من القطار.

ولد في دمشق وتلقى تعليمه فيها، والتحق بالكلية العسكرية في اسطنبول في تركيا، وتخرج ضابطاً في الجيش العربي، وتنقل خلال خدمته في مختلف أرجاء بلاد الشام والحجاز. نشأ في حي العمارة "عاصم" وتزوج من عائلة دمشقية الحاجة فاطمة كعدان، وأنجب منها اثنين من الذكور هما محمد رفيق، وشفيق، وأنثى واحدة عائشة.

أقامت العائلة بهذا الحي طيلة حياته، وبعد أن انتقل إلى ديار الحق تحمل المسؤولية والدي محمد رفيق، بعد أن عاد متمماً دراسته الجامعية في الحقوق بالأستانة في تركيا. كانت حياة عمي شفيق وعمتي عائشة قصيرة، حيث توفيا بعد وفاة الأب، بثلاث سنوات وهما في ريعان الصبا.

دخل والدي معترك الحياة بوظيفة في القضاء، حيث أسندت إليه رئاسة الكاتب بالعدل بدمشق، وبقي فيها رداً من الزمن، انتقل بعدها إلى العمل القضائي في العدلية حتى إحالته إلى التقاعد في أواخر عام ١٩٥٨ م.

تزوج والدي مرتين: الأولى منها كانت من الحاجة فاطمة شعيب المدني، وأنجب منها ثلاثة فتيات هن: هداية، وفخرية، وحياة.

أما الثانية: فكانت نتيجة العادات السائدة والمتوارثة عبر الأجيال بضرورة إنجاب ولد ذكر ليكون ولياً للعهد؛ فوقع اختيار والدته على ابنة أختها الحاجة يسرى عبدالرحمن الجباصيني، فأنجب منها فتحية رحمها الله -ماتت في عمر سنتين- وثلاثة ذكور: محمد لطفي وعبد الوهاب، ومحمد منذر، وأنثى واحدة: فلك.

○ تزوجت أخواتي البنات من مواطنين من الأردن الشقيق:

- تزوجت هداية من المرحوم أحمد اليماني، وأنجبت منه الذكور: زهير، الدكتور عصام، سعيد، الدكتور محمود اليماني والإناث: ناديا وفاديا.
- وتزوجت فخرية من المرحوم كمال حسن فؤاد، وارتحل ولدها الوحيد حسن إلى رحمته تعالى، وهو في ريعان الشباب.
- تزوجت حياة من المرحوم عدنان عمر لطفي طيبة، وأنجبت منه كلاً من المهندسين: عمر ومحمد ويوسف والإناث: أمل وأروى وهناء.
- وتزوجت فلك من المرحوم فوزي المنيأوي من جمهورية مصر العربية، وأنجبت منه الدكتورة هاني والإناث فاتن وهالة، ومن زوجها الثاني بديع الحفار ابنتها هدى.
- انتقل والدي إلى رحمته تعالى عام ١٩٦١م وأصبحت مسؤولاً عن العائلة بكل معنى الكلمة.

زواج إخوتي الذكور

- تزوج المرحوم محمد عبدالوهاب من الفاضلة ذكاء بنت المرحوم عدنان القحف، وأنجب منها المهندس محمد رفيق الغنام، والإناث: ربما ورناء ورهف.
- تزوج محمد رفيق من المهندسة باسمة قويدر من دمشق، وأنجب منها ابنتين اثنتين.
- تزوجت ربما من السيد توفيق الكلاس، وتزوجت رنا من إبراهيم الكلاس، وتزوجت رهم من عبدالله رمضان، وجميع أزواجهم من دمشق.
- تزوج محمد منذر الغنام من المرحومة قمر السليماني، من دمشق وأنجب منها ابنه الوحيد فادي، والإناث: رشا ويسرى وبثينة وهبة.
- تزوج محمد فادي من جمانة عجلوني، وأنجب منها ولده الوحيد محمد منذر.
- تزوجت رشا من السيد عمر كوزلي من دمشق وأنجبت منه صبياً وصبية.
- تزوجت يسرى من المهندس ياسر السقا من دمشق، وأنجبت منه ولداً وحيداً.
- وتزوجت بثينة من شادي عبدالله من قدسيا، وأنجبت منه اثنين من الذكور.

○ وتزوجت هبه من السيد فهد عمري من الهامة، وأنجبت منه ولدين من الذكور.
○ أما بالنسبة لي فقد تزوجت من عائلة دمشقية كريمة الحاجة الفاضلة إلهام أيوب رضوان، وأنجبت منها ثلاثة من الذكور: محمد الهادي، أحمد مهند، محمد ماهر، وهم قرّة عيني، وأنتى وحيدة بانه، وهي زهرة عمري، وهم جميعاً مصدر سعادتي الحقيقية في هذه الحياة.

أما بالنسبة لحفيدي الرائعين محمد لطفي، ويوسف، نجلي ولدي الغالي محمد ماهر، فهما قرّة عيني، تم انجابهما من زواج ولدي ماهر من الفاضلة رولا غثوان نقشو من عائلة كريمة في حمص.

أضرع إلى الله العلي القدير أن يكلاً عيني بأحفاد آخرين من بقية أنجالي البررة ليتحقق حلمي الأخير في هذه الحياة.

كما أبتهل إلى الله تعالى أن يكتب لكل من أبنائي الأحبة التوفيق والنجاح في حياتهم العملية ويكلأهم بعنايته ويحفظهم من كل مكروه، على أن يكون رائدهم التعاون التام مع بعضهم بعضاً لمواجهة أعباء الحياة، وتذليل صعوباتها بروح عالية من الألفة والمحبة والوفاء.
أما بالنسبة لزوجتي شريكتي في الحياة فإنني أقدر عالياً النجاح الكبير الذي حققته في رعاية شؤون الأسرة وسهرها على تربية أبنائنا، وأدعوها إلى متابعة المسيرة بنفس الخطى للحفاظ على وحدتها وتحقيق المستقبل الزاهر لها.

ولا أنسى في هذا السياق أن أشيد بصدق وأمانة بجهود كل من والدي المرحومين أمي وأبي اللذين بذلاها بروح عالية من المسؤولية؛ لتهيئة جو تربوي ناجح، في ظل ظروف اجتماعية ومعيشية قاسية فرضتها طبيعة المرحلة التي مرت بها المنطقة عموماً.
والله أسأل أن يتغمدهما برحمته ويسكنهما فسيح جناته إنه على كل شيء قدير.

مرحلة الانتكاسة

في غمرة احتفال شعبنا العظيم بانتصاره على العثمانيين وإنهاء الاحتلال التركي الذي دام أربعة قرون ونيف، ظهرت في أجواء المنطقة سحب سوداء قاتمة تمثلت بغدر الفرنسيين والإنكليز والحنت بعودهم التي أعطوها للشريف حسين قائد الثورة العربية الكبرى والإعلان عن:

○ فرض الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.
○ فرض الانتداب الإنكليزي على فلسطين وإمارة الأردن والعراق.
○ إطلاق وعد بلفور المشؤوم بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين العربية.
اهتاجت المشاعر وتعالّت الأصوات بالرفض المطلق لأي احتلال جديد ينال من قدسية هذا الوطن ويحد من حرية شعبه الأبي.

قدمت اعتراضات وأجريت مفاوضات مع الحلفاء، وتعالّت أصوات احتجاج الشعب الحر الأبي في مظاهرات صاخبة، ولكن وللأسف لم تثمر جميع هذه المحاولات، وبقي المعتدي الجديد مصراً على موقفه، ترجمها باحتلال القوات الفرنسية الغاشمة الأراضي اللبنانية، وقيام قائد الحملة الجنرال الفرنسي غورو بتوجيه إنذار خطي إلى حكومة الملك فيصل في دمشق تضمن أموراً أبرزها.

○ قبول الانتداب الفرنسي على سورية.
○ تسريح الجيش العربي السوري.
○ تسليم محطات الخط الحديدي في رياق وحمص وحمّة وحلب.
كما طلب في الوقت نفسه تنفيذ إجراءات مالية واقتصادية وإدارية.
درست الحكومة السورية فحوى الإنذار وخرجت بقناعة عدم إمكانية مجابهة الفرنسيين، وإزاء ذلك صدرت الأوامر بحل الجيش وتسريحه، ولكن المؤتمر السوري اعتبر بالإجماع أن كل من يقبل بشروط أي محتل هو غير شرعي، ويتحمل المسؤولية تجاه الوطن.
رفض الشرفاء وفي مقدمتهم البطل يوسف العظمة وزير الدفاع الانصياع إلى تلك

المطالب، ورفعوا لواء مقاومة الاحتلال رغم ضعف الامكانيات وعدم توازن القوى. توجه المجاهدون إلى ميسلون وخاضوا غمار معركة غير متكافئة بالعدد والعتاد، وضربوا أروع الأمثلة في النضال للدفاع عن قدسية الوطن، وروّوا بدمائهم الذكية أرض المعركة، وكان في مقدمتهم الشهيد البطل يوسف العظمة. فاعتبرت أرض ميسلون -المضرجة بدماء الشهداء- علامة ناصعة في التاريخ السوري، لما جسده من فكرة قدسية المقاومة، والسمو بفكرة التضحية عالياً إلى أرقى درجات البطولة والفداء.

كما أنها أثبتت بما تلاها من أحداث مشرفة بأنه لا أحد في الوجود يستطيع المساس بتراب الوطن المقدس، وأن هزيمة واحدة لا تعني أبداً خسارة الحرب. دخل المحتل مدينة دمشق الخالدة وسط أجواء خيم عليها الحزن، وتوجه قائدها الجنرال غورو إلى ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي ليقول: "ها نحن قد عدنا" دون أن يدري ما سيتلقاه من دروس قاسية في النضال المستميت على أيدي أحفاده سجلها التاريخ بأحرف من نور.

مرحلة بدء الشروق

قام المحتل الفرنسي بعد اعلان الانتداب باتخاذ الخطوات العملية لبيسط نفوذه الكامل على جميع مرافق الحياة الأساسية، وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ سورية مرحلة أقل ما يقال عنها مرحلة المقاومة والتضحية ضد المستعمر الجديد، الذي فرض نفسه بقوة السلاح.

احتل الفرنسيون بعد الانتصار مدينة دمشق الحزينة؛ فغادرها الملك فيصل، وقام الجيش الفرنسي ببسط سيطرته على مؤسساتها، مستخدماً أبشع الأساليب الاستعمارية لتنفيذ مخططه الإجرامي بحق البلد والشعب.

وضمن هذا الإطار أمر بتنفيذ مجموعة من الإجراءات تمثلت في:

○ إعلان الأحكام العرفية في البلاد، وطلب تسليم بعض الرجال الأشاوس للمحاكمة.

○ فرض غرامة حربية مالية تقدر بعشرات الملايين من الفرنكات الفرنسية.

○ الإشراف المباشر على الخدمات الأساسية: الأمن والهاتف والبريد وغيرها.

○ نزع سلاح الجيش، وطلب تسليم عشرة آلاف بندقية للجيش الفرنسي، وتم التنفيذ.

ثابر الفرنسيون على تنفيذ سياسة فرض السيطرة الكاملة على سوريا تنفيذاً لمخططهم الاستعماري القائم على أساس التقسيم والتجزئة، وانشاء الدويلات لما سموه بالشعوب السورية، فعمدوا إلى تقطيع أوصال سورية وتقسيمها إلى عدة دول (دولة دمشق، دولة حلب، دولة العلويين، دولة لبنان الكبير، دولة جبل الدروز) لكل منها عاصمتها وعلمها وحكومتها المستقلة، ومجلسها النيابي..).

وبسبب الرفض الشعبي للتقسيم وعدم الاعتراف به قام الفرنسيون بإنشاء اتحاد فدرالي بين بعض الدول (دمشق، حلب، العلويين) تحت اسم الاتحاد السوري، تم الرجوع عنه وعن جميع الخطوات اللاحقة، وذلك نتيجة ظهور المقاومة الشعبية الحية في المدن، واندلاع الثورات

العامة في جميع أنحاء البلاد تمثلت في:

- ثورة حلب وضواحيها، بقيادة الزعيم إبراهيم هنانو.
- ثورة حماة وضواحيها، بقيادة المجاهد فوزي القاوقجي.
- ثورة جبل العلويين، بقيادة الشيخ المناضل صالح العلي.
- ثورة جبل الدروز، بقيادة الزعيم البطل سلطان باشا الأطرش.
- ثورة الجزيرة في جميع مناطقها، قادها البطل محمد العايش في دير الزور.
- ثورة دمشق وريفها والجولان وجبل الشيخ، قادها الثوار الأشاوس: محمد الأشم، حسن الخراط، نسيب البكري وعز الدين الحلبي.

لم تستطع القوات الفرنسية إخمادها، وقدّم فيها الثوار الأبطال أعلى التضحيات في سبيل الحرية والاستقلال.

وقد توجت هذه الثورات بقيام الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش ورفاقه، الذين انتصروا انتصاراً كبيراً، وكبدوا المحتل خسائر فادحة بالرجال والعتاد رغم أن موازين القوى لم تكن متكافئة.

انتصرت الثورة وكان من نتائجها أنها دفعت فرنسا إلى قبول المفاوضات مع الزعماء الوطنيين، أثمرت بالتوجه إلى تنفيذ خطوات عملية لحكم وطني حر، ولكن فرنسا - كما اعتادت - أخذت تماطل وتسوّف - كسباً للوقت - لتتاح الفرصة أمامها للاستمرار في التمسك بكل الصلاحيات السياسية والعسكرية، وكان كل ما تم إنشاؤه هو عبارة عن إنشاء مجالس ومؤسسات صورياً فارغة ليس لها أي مفعول يذكر، تهدئة للمشاعر الوطنية المتأججة. كان هذا الموقف الغادر والتدخل الفرنسي الخطر بهذه الطريقة البشعة سبباً لتجدد الاستياء والاستنكار في جميع المدن السورية، كما كانت وسيلة لدعوة أبناء سورية الأحرار داخل سورية وخارجها إلى الوفاق والوثام والاتحاد.

في غمرة هذه الأحداث التاريخية والمواقف البطولية الخارقة للشعب السوري ضد قوى الاحتلال نشبت الحرب العالمية الثانية في ظل تراجع الفرنسيين عن جميع تعهداتهم بإلغاء

الحكم الدستوري ومعاهدة الصداقة، وأعلنت نظاماً للحكم المباشر في سوريا، وبدأت باستخدام سياسة مفادها: ادخال سورية في مرحلة عراك وتجادب سياسي بين جميع أطراف السياسيين، عن طريق تشكيل حكومات موالية لها، واستمر هذا الموقف حتى إعلان هزيمة فرنسا أمام ألمانيا، حيث أعلن ممثل فرنسا الحرة في سورية استقلال سورية، وانتخاب رئيس للجمهورية وتأليف وزارة وانتخاب مجلس نيابي مارست صلاحياتها بإعلان الحرب على المحور، وشاركت في تأسيس جامعة الدولة العربية، وكانت هذه بشائر الحصول على الاستقلال التام، في حين إن فرنسا أخذت تماطل في تسليم الصلاحيات الخاصة بالجيش وبالأمور الثقافية والاقتصادية والسياسية، بما عرف عنها من مراوغة ضد مطالب وحرية الشعب الأبيّ.

ولكن رغم ما قامت به فرنسا من محاولات فاشلة ومراوغة في منح الاستقلال التام، ثابر الرجال الأحرار السوريون بمتابعة مسيرة النضال بإرادة قوية وإيمان راسخ. وتتالت الأحداث مبشرة بقرب الحصول على الاستقلال وجلاء المحتل عن أرض الوطن.

من ذاكرة الطفولة

تمر على المرء خلال سنيّ حياته مواقف تترك في نفسه انطباعاتاً يدخل مع مرور الزمن ضمن إطار الذكريات، وكثيراً منها ما يبقى في ذاكرة الأيام قد تسمح المناسبات أن تتوارد إلى فكره؛ فيطلقها سواء للتندر بها أو الاستشهاد بها لدعم ما يتحدث عنه.

ولعلّ أشدها التصاقاً بالفكر هي التي يتعرض لها الإنسان وهو طفل، حيث إنها تبقى خالدة يرددها عند تداعي الأفكار.

وإن معظم هذه الذكريات يتصل بمشاهدات حيّة، حدثت أمام ناظره شدّه إليها عنصر الغرابة أو حب الفضول أو خروجها عن المألوف.

وإنني كغيري من أبناء الطفولة مررت بهذه المرحلة، وصادفني بعض منها بقي راسخاً في ذاكرتي، وهي في الحقيقة تختلف كلياً في الشكل والمضمون عن تلك التي عاشتها الأجيال اللاحقة، نتيجة تبدل العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وظروف المعيشة.

وسوف أتناول هنا الحديث عن الطفولة التي عاشت في عقد الثلاثينات حيث لا تتناول في شموليتها أبناء جميع تلك الفترة بل الأكثرية المطلقة منها.

عاش أبناء تلك الفترة في ظل ظروف اجتماعية ومعيشية قاسية، بسبب تعرض البلاد لحروب متتالية انعكست سلباً على جميع نواحي الحياة.

وأحب التأكيد هنا أنه رغم البساطة التي اتسمت بها هذه الفترة، إلا أنها كانت مصدر قوة وإرادة وتصميم على مجابهة الصعاب دون كلل أو ملل.

كما أذكر بأن الحصار الذي فرضه المحتل على هذا البلد أدى إلى حد كبير للتأخر في مواكبة سلم الحضارة والرقي، إبان الثورة الصناعية في العالم الحر.

غير أنه لا بد من القول إن الحاجة أمّ الاختراع، وهذا دفع إلى الاعتماد على الذات، حيث كان للفكر واليد والمهارة دور هام في تدليل الصعاب.

وسوف يظهر ذلك جلياً في معرض ما يرد من أمثلة واقعية على ذلك.

أ- عملية التنظيف: من العجائب المندثرة:

على بدائية طرق التنظيف كان يتولى هذه العملية عاملان أحدهما يحمل قربة ماء يرش بها الأرصفة والطريق؛ لتجنب إثارة الغبار، والثاني يقوم بمكنسته المصنوعة من نبات ينمو في البادية بعملية التنظيف وجمع القمامة. ولا أبالغ في القول إن دمشق كانت مضرب المثل في نظافتها.

ب- باعة الصباح: وهي خدمات متنقلة أصبحت في عالم النسيان:

١- الحلاب: كان بائع الحليب يصحب معه عدداً من الماعز، ويترك أبواب زبائنه ويجلب أمامهم الحليب الطازج، وعلى مرأى الأطفال الصغار. ويدلّل بذلك على سلامته من الغش، كما كان يبيع إلى جانبه ألواح الزبدة والقشطة واللبن المصفى واللبن الرائب.

٢- بائع المعجنات: حيث يقوم بجر عربته التي تحتوي على صندوق زجاجي مليء بالمعجنات الصباحية: الكعك الطري الطازج بالسمن، تماري الكعك، أقراص العجوة، قطع البسكويت مع الراحة، الكعك الصلب بالسمن، أقراص جوز الهند، الكاتو... الخ. وقد أصبح يبيع هذه المأكولات في المحلات ويقصدها كل طالب.

٣- الباعة المتجولون: وكانوا يتجمعون في مدخل الحي لبيع: السكاكر الملونة، المصاصات، الملابس، القضاة بأنواعها المختلفة للأطفال وهم في طريقهم إلى المدرسة أو الكتاتيب. وقد تم الحفاظ على هذا النوع من الخدمة بالبيع أمام أبواب المدارس حتى يومنا هذا بأسلوب أكثر تقدماً.

٤- باعة بعض الثمار: الزعبوب والحبالس بمناداتهم العجيبة:

١- درن درن يا زعبوب والبذر بن يا زعبوب.

٢- مثل حب اللولو يا حبالس.

وكان هذا النوع من البيع موسمياً يتوقف على توفر الثمار.

- ٥- باعة المرطبات: البوظة بالحليب، الليمون المثلج، الأسكIMO.
- ج- المهن الحرة: وقد أصبحت في ذاكرة التاريخ، ولكنها تركت دلالتها على أسلوب تقديم الخدمات مكانياً سعيًا وراء العيش:
- ١- المصوراتي: يحمل كاميرته على ظهره ويأخذ صوراً شمسية لكل طالب بشكل سريع وبسهولة تامة تغني عن طرق باب المصور في محله.
- ٢- الإسكافي وماسح الأحذية: حيث يجز عربته الصغيرة وهي محملة بمواد مستلزمات العمل، يجلس على كرسي من القش ليصلح الحذاء ويدهنه، حيث يجعله كأنه جديد. مما يخفف العناء عن الذهاب إلى محلات التصليح.
- ٣- المبييض: يحمل عدته ويتولى تبيض النحاس، يوقد النار بالفحم الأسود، ويسلط عليه منفاخ الهواء، ويحمي قطعة النحاس، ثم يعمد إلى غمس قطعة من الجلد بمادة بيضاء من القصدير أو الزئبق، ويدهن قطعة النحاس من الداخل والخارج، ثم يعمد إلى فركها بمادة رملية حمراء حتى تتلألأ بلون فضي زاه. وقد تم الاستغناء كلياً في الوقت الحاضر عن استعمال الأواني النحاسية في الطبخ.
- ٤- مصليح بابور الكاز: يحمل عدته على ظهره منادياً: "مصليح بوابير ودفايات" حيث يعمد إلى تنظيف الرأس ونفضه بالمنفاخ لطرد الترسبات، وتغيير الفالة، وغسله بالكاز، ويقدمه للزبون بلهبة الساطع للدلالة على إصلاحه.
- ٥- جامع الزجاج المكسر: حيث يجز عربته وعليها صندوقان أحدهما لجمع الخبز اليابس (حفظ النعمة) والآخر لجمع الزجاج المكسر (دفعاً لضررها إذا ألقيت هنا وهناك). وكانت في طياتها تحمل مدلولات اجتماعية هامة.
- ٦- المجلخ: وهي مهنة تقليدية متوارثة عبر الأجيال بهدف جليخ (سَنِّ) الأدوات الحديدية على اختلافها، كالسكاكين والمقصات والسيوف والخناجر والأمواس والمناجل، وبشكل عام جميع الآلات الجارحة. وهي على الرغم من بدائيتها، إلا أنها آتت أكلها وخدمت جميع فئات الشعب؛ لحاجتهم للآلات الجارحة.

وتقوم هذه المهنة على بساطة التكوين حيث إنها تتألف من حاملين خشبيين على شكل (X) رُكّب على الأول دولاّب كبير من الخشب وعليه قشاط جلدي متين، يتصل في الأسفل بدواسة تحرك الدولاّب عند الضغط عليها نحو الأسفل، وفي الوسط يتصل الدولاّب بحجر الرحي الأسود، الذي يدور بدوران الدولاّب؛ فيعمد المجلّخ إلى جَلّخ (السكين) بمهارة يدوية فائقة؛ ليقضي على التآكل ويتطير الشرر مؤذناً بإتمام عملية الجَلّخ، بلمعان ما تم جلّخه.

د- السينما المتحركة: والتي أصبحت من ذاكرة التاريخ، ومسامها صندوق الدنيا: حيث يتم وضع صندوق العرض بنوافذه الزجاجية، ويجلس الأطفال على مقعد خشبي يشاهدون العرض (عنترة، أبو زيد الهلالي، الزير سالم، مسرحيات ضاحكة (كركوز وعبواظ). الخ). هذا غيض من فيض أصبحت جميعها في ذاكرة التاريخ، وزالت إلى غير رجعة حيث أصبحت هذه الخدمات كلها تقدم بأسلوب حضاري يبهر الألباب، وقد أحبت أن أذكرها لأنها حقيقة من روح العصر.

ولعل بعض المسلسلات التلفزيونية تتناول في معرض شرح طبيعة العمل في الأسواق الشعبية في الأحياء التاريخية القديمة، بتسليط الأضواء على بعضها ولو بشكل مختصر.

هـ - الكتاتيب: ولعل هناك صورة أخرى على بدائيتها أذكرها مع الفارق الكبير مع رياض الأطفال في الوقت الحاضر ألا وهي الكتاتيب التي تجمع الأطفال دون الخامسة يتلقون فيها مبادئ القراءة وحفظ الآيات القرآنية القصيرة، والأرقام الحسابية والأناشيد، وكان الأهل من ورائها يهدفون إلى إبعاد الصغار عن الخروج إلى الشارع أو للتخلص من مضايقاتهم بالأسئلة أو الإلحاح بالطلبات. ولكنها كانت تعطي أكلها بتفتح أذهان الأطفال نحو العلم والمعرفة منذ الصغر.

إضراب الطلبة

لم يتأخر الطلاب عن تلبية نداء الواجب بالمشاركة في الإضراب عن مشاعرهم النبيلة حول حقوق الشعب المشروعة، ووقفوا إلى جانب فئات الشعب المختلفة: الاقتصادية والتجارية والصناعية والمهن الحرة؛ بتأييدهم بشكل مطلق في مسيرتهم النضالية. وكانت صورة المشاركة لها طابعها الخاص المميز، ففي اليوم الذي يُعلن عنه من المرجعيات المختصة، كان الطلبة يتجمعون في الباحة وهم يدمدمون بأصوات وصياح خافت بأن الجو يحمل في طياته أجواء غير طبيعية، وما أن يقرع الجرس إيداناً للدخول إلى الصفوف إلا ويبدأ الطلاب بأعلى أصواتهم ينشدون:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد السجن إلا نور فجر يتسامى

وبعد ترديده عدة مرات يصعد على الحاجز الحجري للباحة أحد طلاب الصفوف العليا، ويدعو إلى الصمت والاستماع، يبدأ برفع العلم مع ترديد الشعار الوطني:
حماة الديار عليكم سلام أبت أن تذل النفوس الكرام

وعندما يرفرف العلم عالياً في السارية يردد الطلاب بصوت جهوري واحد:
دُم هكذا في علوٍ أيها العلمُ فإننا بك بعد الله نعتصمُ

ويسود بعدها الصمت والإصغاء، ثم يقوم أحد الخطباء من الصفوف المتقدمة بإلقاء خطبة وطنية جامعة يستهلها بأحد هذين البيتين حسب الحال:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

البيت الأول: لأحمد شوقي، والثاني: لأبي القاسم الشابي.

وبعد شرح الموضوع، يدعو إلى المشاركة الفعلية، فيصطف الطلاب بأفواج في مقدمتها حملة الأعلام واللافتات، وتخرج الجموع وفي طليعتهم الأساتذة والموجهون، ويتجهون أمام مدخل بناء التجهيز الأولي الرئيسي بانتظار أن ينضم إليهم الطلبة من المدارس الأخرى: "التجهيز الثانية في الحلبي، والمدارس الخاصة، والرسمية في الصالحية، والمهاجرين وحارة الأكراد والشهداء".

بينما يتم تجمع طلاب المدارس في شرق مدينة دمشق في شارع بغداد عند بركة "السبع بحرات"، - وهذا يدعوني إلى الألم لإزالة هذا المعلم الحضاري الذي لا مثيل له، حيث كان يتألف من بركة ماء مستديرة كبيرة يتوسطها عمود رخامي أبيض بسبع طبقات من الأحواض المائية المستديرة بشكل هرمي، الصغرى في الأعلى وتتبعها بحيرات تختلف بسعاتها حيث تكبر كلما قربت من القاعدة ويتساقط الماء على شكل شلالات من الأعلى إلى الأسفل بمنظر يبهر الألباب-. وعند اكتمال التجمع تتجه الجماهير المختلفة مع الطلاب إلى المسيرة الأم، وتنضم إليها حيث يكون اللقاء الجماهيري الحاشد أمام دار الحكومة وتقدم المطالب، وتلقى الخطاب.

وليس من قبيل المبالغة إذا قلت إن مدينة دمشق تخرج عن بكرة أبيها في هذه المظاهرة التي بقيت مدعاة للفخر والاعتزاز. وهذا ذكرني بقول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته العصماء دمشق:

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغداد

مرحلة الانتصار

لم تكن السلطات الفرنسية صادقة في نواياها، وكانت ترسم في الخفاء سبل تنفيذ مخططها الاستعماري؛ فعمدت إلى المراوغة والمماطلة في منح الحكومة السورية سلطاتها السيادية الدستورية كاملة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية؛ لتتمكن من ممارسة الحكم بحرية تامة.

وانطلاقاً مما رسمته، لم تقم فرنسا بتسليم الصلاحيات المتفق على تنفيذها مع الحكومة السورية، وعمدت إلى الطلب بامتيازات ثقافية واقتصادية، قوبلت بالرفض التام من الحكومة التي أصرت على انتقال الصلاحيات كاملة غير منقوصة إليها.

قامت فرنسا من جانب واحد بإرسال قوات جديدة؛ لتحل محل القوات التي ستغادر البلاد، والإعلان مجدداً عن شروطها للجلاء، كان من أهمها استعداد فرنسا تسليم الجيش السوري إلى الحكومة بشرط احتفاظها بقواعد جوية على الأراضي السورية، وضمان المصالح الاقتصادية الفرنسية والثقافية، وقد قوبل ذلك بالرفض التام.

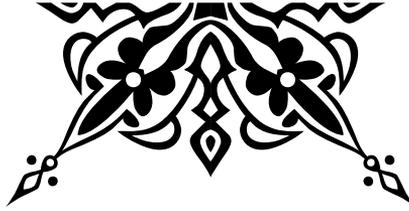
بدأت القوات الفرنسية المنتشرة في سورية بحملة استفزازية وإرهابية من خلال عدوان غادر، حيث ضربت المدن الرئيسية -وعلى رأسها مدينة دمشق- بالمدافع، وأغارت الطائرات على المنشآت الحيوية.

وفي دمشق توجهت المدرعات الفرنسية، وحاصرت المجلس النيابي من جميع الاتجاهات؛ حيث كانت تتواجد فيه حامية من الدرك والأمن، طلب إليها قائد الحملة العسكرية الفرنسية بأداء التحية عند رفع العلم الفرنسي، ولكنها لم تمتثل للأمر.

عمدت القوات المحاصرة للمجلس بالقصف العشوائي؛ فهدمت واجهته، وأقدمت على قتل حاميته والتمثيل بجثثهم بهمجية لم يعرف التاريخ مثلها، في حين قامت القوات الأخرى بضرب مدينة دمشق بالقنابل لمدة ثلاثة أيام بلياليها، ولم يتوقف إلا بدخول الجيش الإنكليزي.

ندد العالم أجمع بوحشية الفرنسيين وعملهم الإجرامي بقتل الأبرياء من سكان المدينة

العزل؛ فقامت الحكومة السورية بعرض الموضوع على عصبة الأمم المتحدة، وطالبت باستقلال سورية التام وجلاء المحتل عن الأراضي السورية.
وافقت الأمم المتحدة على استقلال سورية التام وتحريرها من ريقة الانتداب الغاشم، وتطهير أرضها من المحتل وذلك في ١٧ نيسان ١٩٤٧م.
اعتبر يوم الجلاء عيداً وطنياً خالداً في أذهان السوريين على مختلف أطيافهم؛ لأنه كان ثمرة نضال مستميت أظهر فيه الشعب السوري الأبي بسالة منقطعة النظير في مواجهة المستعمر الغاشم، بإرادة صلبة وعزيمة صادقة لدحره، ورفع رايات النصر والعزة والكرامة في مختلف أرجاء البلاد.



احتفالات عيد الجلاء

أ - احتفال الأحياء

ما أن تألقت رايات الحرية في سماء سوريا الحبيبة، حتى عمت الفرحة جميع أنحاء البلاد؛ فارتدت حلّة قشبية من الزينات، حيث أقيمت أقواس النصر في مداخل الأحياء ملفوفة بأوراق الصفصاف التي اشتهرت به دمشق، وفرشت الأرصفة بالبسط والسجاد حسب الحال، وارتفعت الزينات والأعلام واللوحات، وركّبت اللمبات الكهربائية الملونة على طرني الطريق، وصدحت الأناشيد والأغاني الوطنية والموشحات والموسيقى العذبة، حيث تبارت الأحياء في التعبير عن فرحتها واعتزازها بهذا اليوم الأغر؛ لتدل على قدسيته وعظمته، ثم الإعلان عن بدء الاحتفالات الرسمية من قبل الدولة، والشعبية من قبل أبناء الوطن الغالي.

ب - الاحتفال الرسمي

بدأ الاحتفال الرسمي بعرض عسكري، وهنا سأذكر ما شاهدته رأي العين في أول احتفال بعيد الجلاء.

قام السيد رئيس الجمهورية في سيارة مكشوفة -إلى جانبه وزير الدفاع- باستعراض المشاركين بالعرض على طول طريق بيروت، من ساحة الأمويين حتى حديقة الجلاء على أنغام موسيقى الجيش، وعندما وصل إلى نصب الحرية، ترحل من السيارة، واتجه نحو العلم السوري وقلده وسام الاستحقاق السوري بالدرجة الممتازة، وكان مرصعاً بالجواهر اللماعة وقبّله ووضع على رأسه، واتجه نحو "شعلة الحرية" وأوقدها وظهر اللهب يتعالى في الفضاء. ومن المفيد هنا أن أضع حداً للتساؤلات، فلقد كانت هذه المشاهد مصورة على آلات التصوير الإذاعية والسينمائية وتم عرضها بشكل لاحق للذكرى والتاريخ.

يستأذن رئيس العرض بالبدء، ويحصل عليه من السيد الرئيس، فيبدأ بعرض أخذ للفرقة الموسيقية، وبعد أن تأخذ مكانها، تبدأ الفرق المشاركة بالمرور على أنغام الموسيقى أمام

المنصة أولاً بأول: قوى الأمن الداخلي المؤلفة والراجلة بلباسها الرسمي، والخيالة ثم الهجانة، ثم الآليات وقطع رمزية من القوات المسلحة، بينما تحلق في الأجواء بعض الطائرات تلقي الأعلام والمناشير التي تمجد هذا اليوم الخالد.

وليس من قبيل المبالغة إذا قلت إن مدينة دمشق وريفها وأبناء شعبنا العظيم من المحافظات قد حضروا للمشاركة بروح عالية بالفخر والاعتزاز بهذا النصر المؤزر ثمرة كفاح شعبنا الأبوي ضد المحتل.

وعند انتهاء العرض غصت الشوارع والأحياء والأسواق بالزوار والضيوف الكرام المشاركة إعراباً عن عواطفهم الصادقة.

ج - الاحتفال الجماهيري

ليست الفرحة وقفاً على فئة دون سواها من أبناء شعبنا الحر، بل كانت عامة شاملة جميع أطراف المجتمع وأحيائه.

كانت مشاركة الأحياء رمزية بتقديم أهم ما يمتاز به الحي ويتألق، وكانت من حيث التنوع ما تضيء بهجةً وسروراً للمشاهدين.

امتد العرض من ساحة خورشيد آخر خط ترام المهاجرين حتى العفيف في الجسر الأبيض بدمشق.

بدأ العرض باستعراض لسير الفرق الموسيقية، على إيقاع العزف بأشكال فولكلورية رائعة، تعقبها الدراجات النارية التي يمتطيها الحرس الجمهوري بلباسه الرسمي مروراً أمام شرفة القصر الجمهوري لمشاهدة السيد رئيس الجمهورية وأركان حكومته، ثم الخيالة ثم موسيقى الأمن الداخلي بعرض أخذ تعقبها قوات حفظ النظام بلباسها الرسمي.

وبعد هذه المشاركة الرمزية لقطاع الأمن، بدأ العرض الجماهيري الشعبي بفرق الكشافة على أنغام موسيقاها.

ثم بدأ أبناء حي المهاجرين على اختلاف فئاتهم من شركس وألبان وأتراك برقصاتهم

الشعبية الفولكلورية، بدءاً من ساحة خورشيد حيث تكون المقاهي على سفوح جبل قاسيون من الشمال والغرب خاصة وأرصفتها بالمشاهدين الذين لا تفوتهم لذة التلذذ بالسندويش على اختلاف أنواعه، وتناول البوظة والليمون المثلج وشرب العرقسوس والتمر هندي من باعتته باللباس التقليدي.

ثم قام المشاركون من أحياء مئذنة الشحم والعمارة وباب الجابية والشاغور والميدان من لعبة السيف والترس بتقديم عروضهم المبهرة.

ثم جاء دور الخيالة والفرسان على خيولهم الأصيلة بتقديم أجمل الرقصات على الخيل بنغمات من عازفي البزق.

وكل ما تم عرضه في الساحة يمر من أمام القصر الجمهوري إعراباً عن فرحته وامتنانه، وامتد الأمر حتى منتصف الليل حيث أطلقت الألعاب النارية في سماء دمشق.

كما كتب في أعلى قمة جبل قاسيون عبارة "عيد الجلاء الوطني" تتلأأ بالأنوار الكهربائية، يشاهدها بأعينه القاصي والداني، وقد أصبح الاحتفال بهذا العيد الوطني الكبير عيداً دورياً كل عام يحتفل فيه على الصعيد الرسمي والشعبي.

خاتمة

أرجو المعذرة لتناول مذكراتي الشخصية سرداً لحوادث تاريخية هامة في مرحلة سبقت مرحلة حياتي بوقت قصير، لها تأثير كبير في ذكريات شاهد عيان.

وإني على ثقة تامة بأن معرفتها سيسهم في توضيح كثير من الأمور ويؤكد على الربط التاريخي بين الماضي والحاضر، ويثبت انعكاساتها على مجريات الأحداث التاريخية اللاحقة.

مواقف خالدة

في تاريخ الشعوب علامات نيرة لرجالها العظام، وقد أورد التاريخ السوري كثيراً منها، أكتفي هنا بذكر واحدة منها جرت في أروقة الأمم المتحدة، شهدها جميع الأعضاء خلال عرض موضوع استقلال سورية، وطلب جلاء المحتل عن أراضيها وتلخص بما يلي:

في جلسة عصبة الأمم المتحدة ترأس الوفد السوري في الاجتماع الوطني الكبير الرئيس فارس الخوري، ولما دخل القاعة بطربوشه الأحمر وبدلته البيضاء الأنيقة قبل موعد الاجتماع الذي طلبته سورية من أجل رفع الانتداب الفرنسي عنها بدقائق، واتجه مباشرة إلى مقعد المندوب الفرنسي وجلس على الكرسي المخصص لفرنسا، وبدأ السفراء بالتوافد إلى قاعة المؤتمر في مقرها دون إخفاء دهشتهم في جلوس الرئيس فارس المعروف برجاحة عقله وسعة علمه وثقافته في المقعد المخصص لمندوب فرنسا، تاركاً المقعد المخصص لسورية خالياً.

دخل المندوب الفرنسي ووجد الرئيس فارس قد احتل مقعده؛ فتوجه إليه وبدأ يخبره بأن المقعد لفرنسا والعلم الفرنسي أمامه، وأشار إلى المكان المخصص لسورية مستدلاً عليه من العلم السوري، ولكن الرئيس فارس لم يحرك ساكناً وبقي ينظر إلى ساعته دقيقة، اثنتان، ثلاث، واستمر المندوب الفرنسي في محاولة إقناعه بأن مقعد سورية في الناحية الأخرى، ولكن الرئيس فارس استمر بالتحديق بساعته عشر دقائق.. وبدأ صبر المندوب الفرنسي بالنفاد، واستخدم عبارات لاذعة على مسمع مندوبي الدول والأعضاء وبصرهم، واستمر الرئيس فارس بالتحديق بساعته تسعة عشر.. عشرون.. فاهتاج المندوب الفرنسي، ولولا حؤول سفراء الأمم الأخرى بينه وبين عنق الرئيس فارس لدكه دكاً، وعند الدقيقة الخامسة والعشرين تنحى الرئيس فارس ووضع ساعته في جيبه ووقف بابتسامة عريضة علت شفاهه، وقال للمندوب الفرنسي: سعادة السفير جلست بمقعدك خمساً وعشرين دقيقة فكادت تقتلني غضباً وحنقاً، وسورية احتملت سفالة جنودكم خمساً وعشرين سنة فآن لها أن تستقل".

كان لهذا الموقف المشرف أثره البالغ في تأجيج المشاعر ووقوف دول العالم أجمع إلى

جانب سورية والمواقفة على نيل استقلالها التام.
وأختم هذه الواقعة بتوجيه تحية إكبار وإعجاب لهذا الزعيم الخالد وزملائه الشرفاء
لمواقفهم البطولية التي خلدها التاريخ.
وأخصك أيها البطل العظيم بقولي عنك "رجل عظيم ترك بصمات نيرة في التاريخ".

خاطرة

أظهرت مقولة الجنرال غورو "لقد عدنا يا صلاح الدين" مرارة الانهزام الذي مُني به
الصليبيون على يده واضطرارهم أمام قلعة الصمود العربي بمغادرة البلاد يجرّون خلفهم ذيول
الخيبة.

لقد تسرعت كثيراً يا جنرال بإصدار الحكم، وكان حرياً بك أن تنظر إلى تراب أرض
المعركة في ميسلون، وتشاهدها وهي ممتزجة بدماء الشهداء الأبرار الذين دافعوا بشرف
وإخلاص عن قدسية الوطن، وتدرك بنفسك بأن التضحية بالروح هي أسمى أنواع التضحية.
من المؤكد أنك عايشت نضال هذا الشعب الأبي، وسمعت بملاحم البطولة لأحفاد
صلاح الدين الذين لم يناموا على ضيم، وحققوا ببسالتهم أروع الانتصارات التي خلّدها
التاريخ بأحرف من نور.

أذكر هنا بكل فخر واعتزاز، معركة المزرعة في جبل الدروز، بين الثوار الأشاوس
والفرنسيين، انتصر فيها الثوار وكبّدوا القوات الفرنسية خسائر فادحة في العتاد والآلاف من
الجنود، وكانت معركة الثأر لشهداء سورية الأبطال في معركة ميسلون.

أقول لك ولأمثالك يا جنرال: إنك غادرت كما أتيت، ومعك ذيول الخيبة والمرارة،
بعد أن تأكدت بنفسك ما يتميز به شعب سورية الأصيل من إرادة وتصميم، وأن التاريخ
يعيد نفسه بانتصار الحق على الباطل.

مرحلة النشوء

أنتقل هنا إلى الحديث من أمور تختلف كلياً عن سابقتها، التي كان لها الأثر الواضح في حياة الأجيال التي عاشت فيها أو الأجيال اللاحقة لها؛ لما تضمنته من بصمات ومحطات يستعان بها لحوض غمار الحياة في خضم الأحداث الدامية التي مرت بها البلاد، كانت ولادتي في أوائل العقد الثالث في مدينة دمشق الخالدة، وعشت وترعرت في حي حديث شيّدت أبنيته ودوره خارج سور المدينة في غرب مدرسة التجهيز الأولى، وهو حي شعبي ضم سكاناً من مختلف أطياف المجتمع.

وبحكم وضعية هذا الحي نشأت بين عائلاته علاقات قائمة على أساس المحبة والتعاون فيما بينها.

بدأ التقارب أولاً بين النسوة فكانت الزيارات الصباحية على شكل مجموعات ربطتها أواصر الصداقة، يتم فيها تبادل الأحاديث، وشرب القهوة أو الشاي، يتفرقن بعدها بالذهاب إلى دورهن لمباشرة واجبات رعاية الأسرة.

انتقل هذا التقارب لينال رجال الحي على اختلاف فئاتهم، توطدت إلى زيارات ولقاء في المقاهي خارج أوقات العمل الخاص بكل منهم.

وبحسب التنظيم العمراني للأحياء، فقد ضم هذا الحي جميع الفعاليات الاقتصادية التي تؤمن المتطلبات المعيشية للعائلات، كما انتشرت فيه أو على أطرافه دور الحضانة والمدارس؛ لتلقي مختلف مستويات التعليم الابتدائي أو الإعدادي أو الثانوي.

التحق أبناء الحي في المدارس الرسمية أو الخاصة تبعاً لمقدار تحمل رب الأسرة للأعباء المالية.

التحقت في مدرسة التطبيقات المسلكية، وكانت مدرسة نموذجية بكل معنى الكلمة، تلقيت فيها التعليم على أيدي أساتذة كرام، كرسوا جهودهم القيمة لبناء أجيال تستطيع مجابهة أعباء الحياة.

لا بد لي هنا من القول بأن منهج التعليم كان حافلاً بالمواد الأساسية لتعليم القراءة

والكتابة والحساب، والتاريخ والجغرافيا، والعلوم والديانة، والرسم والأشغال، والموسيقى والرياضة، إضافة إلى تعليم اللغة الفرنسية.

لقد كانت الكتب المقررة على درجة عالية من القوة بأسلوب سهل متميز، يهدف إلى ترسيخ المعرفة والعلوم في الأذهان بمنتهى البساطة.

ومن قبيل الاعتراف بأين الأهمية التي نالها الأدب والشعر، وليس معنى ذلك أن بقية المواد لم تكن بنفس المقدار من الاهتمام، بل هي أكثر منه، وأن التركيز على الأدب كان لسهولة تقديم الدليل لكل سائل.

كانت مادة القراءة - كما سميت في المنهاج - تتناول مواضيع متنوعة بقيت في الذاكرة منها بعد ستة عقود من الزمن مقتطفات من الشعر والنثر، لها مغزاها في المجال الإنساني والاجتماعي، وهي أنشودة رائعة تعطي دليلاً حياً عن نعمة البصر، وهي عبارة عن مناجاة طفل كفيف لأمه أطلق عليها أنشودة الضرب:

يا أمي ما شكل السماء	وما الضياء وما القمر
بجمالها تتحدثون	ولا أرى منها أثر
عكازتي هي ناظري	هل في جمادٍ من نظر
والأرض عندي يستوي	منها البسائط والحفر
يجري الصغار ويلعبون	ويرتعون ولا ضرر
وأنا ضربير قاعد في	عُقر داري مستقر
الله يلطف بي ويصـ	رف ما أفاصي من قدر
يا أمي مدي لي يديك	عسى يزايلني الضجر

وأخرى مقتطفات من قصيدة تصف بؤس امرأة للشاعر الكبير معروف الرصافي وقد

أثرت بي وملأت قلبي حزناً وألماً:

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها	تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثّة والرجل حافية	والدمع تذرفه في الخد عينها
بكت من الفقر فاحمرّت مدامعها	واصفرّ كالورس من جوع محيّاها

مات الذي كان يحميها ويسعدها فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
الموت أفجعها والفقر أوجعها والهلم أنحلها والغم أضناها
تمشي وتحمل باليسرى وليدتها حملاً على الصّدر مدعوماً يمينها
ما أنسَ لا أنسَ أني كنت أسمعها تشكو إلى ربها أوصاب دنيها
تقول يا ربّ، لا تترك بلا لبّين هذي الرّضيعة وارحمني وإياها

ومن قطع النثر الأدبية قصة طريفة قوية في مغزاها عن الأمانة:
"أودع رجل جاره كمية من الحديد يأتمنه عليها خلال سفره طويلة، ولما عاد إلى دياره
طالب الجار بإعادتها فكان جوابه لقد أكلتها الجرذان.
ولدى خروجه وقد تملكه الغضب لسوء الائتمان، صادف أحد أطفال الجار
فاختطفه.

أخذ الجار يفتش عن ابنه، وبدأ بسؤال صاحب الحديد: هل رأيت في طريقك طفلاً
صغيراً تائهاً، فأجابه ببرودة أعصاب: نعم، لقد رأيت أحد البزاة يختطف صغيراً، وعلى ما
يبدو إنه ابنك!.

هاج الجار وصاح بأعلى صوته: يا ناس هل رأيتم أو سمعتم أن البزاة تختطف الصبيان؟
أجابه صاحب الأمانة: إن أرضاً تأكل جرذاتها مائة طن من الحديد ليس بعجيب
أن تختطف بزاتها الفيلة.

طالب الجار المسامحة وقال له: "أنا أكلت حديدك، وهذا ثمنه فاردد إليّ ابني".
وخلاصة القول إن رسوخ المعلومة في أذهان الطفل خلال مراحل تعليمه الأولى يثبت
صحة المقولة بأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر.

في هذه الفترة بالذات كان يتنامى لدي -وبمن سايرني- فيها وعي كبير، حملنا على
تتبع مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية رغم صغر السن، وفهمها بسهولة لكونها
متماثلة في الشكل والمضمون مع تلك التي سبقتها في المرحلة الماضية نتيجة توالي الفترات

الزمنية.

وأبين هنا ما ظل عالماً في ذهني بالمجالين الوطني والدولي.

-اعتقال رجال سورية الأحرار من قبل السلطات الفرنسية.

-واقعة اغتيال الوطني الدكتور عبدالرحمن الشهبندر.

-الإضراب العام الستيني في مدينة دمشق وجميع أنحاء البلاد.

-مظاهرات الشعب السوري الأبي احتجاجاً على تصرفات المحتل الغاشم، وبشكل

خاص المؤامرة الدنيئة التي ارتكبتها بسلخ لواء إسكندرون عن سورية الأم.

-نشوب الحرب العالمية الثانية في العالم.

-هزيمة فرنسا أمام النازية.

وفي المجال الاجتماعي أذكر أنه قد عانينا قسوة بالغة في مختلف نواحي الحياة، وخاصة

المعيشية منها.

لم ترق هذه الأمور إلى مستوى القدرة على الخوض بتفاصيلها بل بقيت في إطار

ذكريات مرحلة الشباب.

ومن الناحية الشخصية أبلت بالدرجة الأولى بلاء حسناً في طلب العلم والمعرفة،

وكان النجاح فيها حليفي والحمد لله.

كما أنني في الوقت نفسه بنيت صداقة حميمة مع أقرابي أبناء الحي، تمثلت باللعب

في الحي أو المشاركة في الدراسة والتعاون على حل ما يصعب منها، تعدت أحياناً إلى قضاء

بعض الأوقات في منازلهم، قوبلت بترحاب كبير من أهل الصديق، وصلت إلى درجة اعتباري

واحداً منهم.

هذا بالنسبة لتمضية أوقات الفراغ أيام الأسبوع الاعتيادية، أما في أيام العطل فكانت

تتوزع بين زيارات عائلية خاصة أو الجلوس في الحدائق العامة للاستماع إلى عزف الألحان

الموسيقية من فرق الجيش أو فرق الدرك والكشافة، أو مشاهدة ألعاب السيف والترس أو

عروض فرسان الخيل، أو الرقص الشعبي الفولكلوري.

وكان من الممتع حقاً السير على الرصيف المحاذي لمجرى نهر بردى، ومشاهدة العائلات الشعبية الدمشقية كيف تمضي يوم النزهة جالسة على البسط التي تمدها على حشيش ضفافه، تستمتع برؤية تدفق مياه النهر، وهي تتناول الطعام وتدخن النرجيلة وتشرب الشاي والقهوة.

ومما كان يشجع على قضاء الأوقات في ربوع الحدائق والبساتين والمنتزهات الخاصة أو العامة، هو جمال الطبيعة الغناء، واستنشاق الروائح العطرة التي تنبعث من أشجار المسك وأزهار الأشجار المثمرة عند الجلوس في ظلها هرباً من أشعة الشمس المحرقة قبل أن ينالها فأس إزالتها من الوجود، وإنه على بساطة تلك المشاهد، كانت تدخل إلى القلوب البهجة والسعادة والسرور.

وبالنسبة لعائلي كنا نستمتع في أوقات متباعدة نسبياً بنوعين: الأول هو عبارة عن تمضية يوم وليلة في منزل جدي لأمي في حي مئذنة الشحم الواقع في وسط يحيط به من جميع جوانبه الجامع الأموي الكبير، وسوق البزورية، وحي الشاغور، وحي الأمين.

إن هذا الحي شعبي بكل معنى الكلمة، حافظ على التقاليد والعادات والطابع الأثري لدور السكن وبيوت العلم والأسواق القديمة.

كنا نستمتع بزيارة معاهد العلم القديمة المنتشرة فيه، وأداء صلاة الجمعة في الجامع الأموي، وتلذذ بتناول فئات الحمص المتنوعة، والفول بالزيت صباحاً، واللحم المشوي مع السلطات ظهراً، مع تناول مشروبات العرقسوس والتمر هندي وعصير البرتقال والفواكه، وفي محاولة للحفاظ على خصوصية هذا الحي أقيم فيه مطعم على ما أذكر اسمه "الخوالي".

أما النوع الثاني، فكان يتمثل بالذهاب إلى بستان يعود للأخ غير الشقيق لجدي لأمي في القابون، حيث كنا ننتقل إليه في عربة الخيل، محمّلين بجميع اللوازم؛ لتمضية يوم بأكمله في ربوعه، نلعب ونمرح ونتناول ألد الأطعمة التي تعدها الأمهات على نحو مألوف متنوع (المجدرة بالزيت، الفول مقللاً، الباذنجان المقلي، التبولة، الكبة النية، المشاوي، والسلطات) ونحتسي الشراب البارد أو الساخن من شاي وقهوة، ونعود في المساء تغمرنا

الفرحة والسرور في عربات الخيل.

أكتفى عند هذا الحد بالحديث عن موضوع النزعات للترفيه عن النفس على أن أعاود بشكل لاحق التطرق إليه.

وأحب هنا أن أتناول الحديث عن تقليد خاص بالعائلة وغيرها، تماشياً مع العادات الدمشقية، حيث يقوم على أساس تمضيته يوم واحد من وقت لآخر في حمام السوق القريب من الحي.

وفي هذا الإطار كانت ثلاث عائلات من الحي منهن عائلتي تذهب إلى أحد حمامات سوق ساروجة القريب من حيّنا: حمام الورد أو الجوزة أو القرماني، صحبة بناقهن، ويأخذن معهن وجبة غذاء عامرة، مؤلفة من أكلة المجدرة بالزيت، والفلول بالزيت والمسبحة، والتبولة والمخلل، ويجلسن في مكان من الحمام يدعي البراني يفترشن الأرض ويتناولن الطعام بمشاركة رئيسة الحمام بشهية تامة، ويشربن كأس الشاي مع عروسة من الخبز المرقوق، محشوة بالجبنة البيضاء أو اللبنة، أو الزيت والزعتر، يسمعن أحلى الأغاني من ملوك الطرب عبدالوهاب وأم كثلوم، ينتقلن بعدها للاغتسال، ويتخلله التراشق بالماء، ويعدن في المساء إلى البيت.

حياة الأسرة

كنا عائلة صغيرة تضم جدة أبي ورب الأسرة، وأماً وثلاثة أبناء من الذكور وأربعة من الإناث في بيت حديث البناء، تدخل إليه من باب الزقاق الكائن في الوسط إلى الصوفا، حيث تقع على يمينها غرفة الاستقبال، وعن يسارها غرفة الجلوس، وتخرج من الصوفا إلى فناء كبير (الديار) في صدره المطبخ والمنافع، وفي وسطها فسحة واسعة، يوجد فيها بركة ماء، وعلى أطرافها أحواض ترابية، غرس فيها شجرة الليمون والكباد والنارنج والمشمش الهندي ونبته الكرمة من نوع العنب البلدي، التي تعلو بامتدادها إلى السقالة التي تغطي سماء الفناء وتحجب بتشعبها المحدود نور الشمس الوهاج عند الظهر.

وفي الحوض الملاصق للدرج المؤدي إلى غرفتي النوم العلويتين، غرست شجرة الياسمين، تفوح منها الروائح العطرة، بينما وضعت في الأمكنة الفارغة أصص نباتات الزريعة التي نبتت فيها أنواع مختلفة من نباتات الزهور موزعة بشكل جمالي آخاذ.

وكنا في أوقات الراحة نستريح بالجلوس على المقاعد أو الكراسي في صدر الفناء، نستمتع بمشاهدة تدفق الماء المتصاعد من نافذة بجرة الفناء الداخلي على نحو يبهر الأبواب. وسأقدم وصفاً دقيقاً لموقعين في البيت هما: المطبخ وغرفة الجلوس، فالمطبخ كان مربع الشكل يقع في صدره المصنع (حوض ماء) ركبت عليه طرمبة الماء التي تخرج الماء الزلال من البئر الذي حفر خصيصاً لتأمين احتياجات البيت من الماء، نظراً لأنه لم يتم الانتهاء من مشروع إرواء مدينة دمشق من ماء عين الفيحة، كما أقيمت في صدره نملية من الخشب؛ لحفظ أواني الطبخ والأوعية الزجاجية التي تحتوي على مواد إفطار الصباح، وفي الجانب الأيسر ركبت على الجدار خزائن خشبية توضع فيها الطناجر والصحون وأباريق الماء ومصبات القهوة، وفي أسفل الجدار أقيم المجلى، وجانبه وضع فرن الفحم الحجري الذي يتم على ناره طبخ الطعام بأنواعه المختلفة.

كما وضعت في الأماكن الفارغة على جوانبه خزائن حديدية كمستودع للمونة (بيت المونة) من المواد الغذائية المختلفة.

كما وضع أيضاً البراد الخشبي الذي صنع على نحو مماثل للبرادات الحديثة، حيث كان مؤلفاً من قسمين: علبة كبيرة تحتوي على ثلاثة سقوف من التوتياء توضع عليها صحنون الطعام لحفظها من الفساد، والقسم الآخر عبارة عن فراغين طويلين بينهما حاجز من التوتياء، أحدهما يملأ بالماء وفي أسفله حنفية لسكب الماء البارد للشرب، والثاني لوضع لوح البوظ (الثلج) فيه للتبريد.

وإن تصميمه وطريقة صنعه كانت تتناسب وروح عصر الثلاثينات، صناعة سورية وبأيد سورية ابتكاراً من أبنائها، وهو على بساطته حقق الهدف المنشود.

ولابد من الذكر هنا بأن مهمة جلب لوح البوظ من المعمل الكائن في الحي المجاور لحيينا المسمى بزقاق البوظ ملقاة على عاتقي يومياً، وكنت أستعين في حمله بوضعه على مقعد عربة أخي الصغير التي تستخدمها والدتي في تنقلاتها عند اصطحابه معها، وكنت أحرص على عدم تعرضها للبلل كيلا أحرم من هذا العون الكبير.

أما بالنسبة لغرفة الجلوس فكانت كبيرة إلى حد ما، وهي مستطيلة الشكل في صدرها توجد المكتبة، حيث كانت مستودعاً لحفظ الأغراض المنزلية المختلفة، والمواد الأخرى التي يجب أن تكون في متناول اليد.

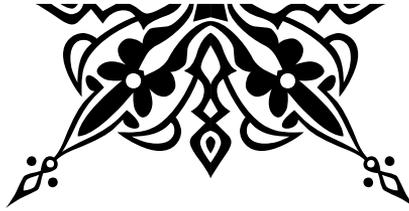
وكان لهذه الغرفة نافذتان تطلان على الطريق، في حين أقيمت على أطرافها مقاعد خشبية فرشت عليها الطرايح وغطيت بالسجاد، وعلى ظهرها المساند القطنية، وفي الزاوية اليمنى منها ركبت المدفأة، ووضع منقل الفحم، ومدت على أرض الغرفة سجادة كبيرة، وزيّنت جدران الغرفة بلوحات للأماكن المقدسة (الكعبة، المسجد الأقصى) أو لمعالم أثرية بارزة.

وقد احتوت الغرفة أيضاً كومديناً (طاولة) وضع عليها المذياع، وأخرى لصندوق السمع.

وكانت تتحول في أوقات تناول الغذاء إلى غرفة طعام بأسلوب بسيط جميل، حيث كانت توضع على الأرض طاولة مستديرة (اسكاملة) نجتمع حولها ونتناول الوجبتين

الرئيسيتين عند الظهر والمساء.

ومازال المنظر المنقوش في ذاكرتي هو مشهد العائلة في المساء، حيث إن جدتي لأبي كانت تسبّح وترفع ابتهالاتها للخالق الكريم، ووالدي يستمع باهتمام بالغ ما يتم إذاعته بالراديو، ووالدتي تطوي الغسيل وتخيّط الملابس وتحيك بالصوف.. حسب الحال. أما نحن الأبناء فكنا نجلس على الأرض نكتب وظائفنا، ونطالع ما أخذناه في المدرسة من مواد ونجهز المواد الحفظية التي يتم تسميعها للأستاذ في اليوم التالي بحضور تلاميذ الصف.



مسيرة العطاء

تابعت مرحلة التعليم الابتدائي، ووصلت إلى نهايتها، حيث بدأت الاستعداد لفحص الشهادة الابتدائية الذي كان تحريراً وشفهياً، بإشراف مديرية التربية مباشرة، على نحو مماثل لفحص البكالوريا في الوقت الحاضر. للدلالة على أهمية التعليم في هذه المرحلة. شُكِّرت عن ساعدي وبذلت جهداً لا يستهان به لتحضير المواد الأساسية الهامة، وخاصة اللغة العربية والفرنسية والعلوم والحساب.

دخلت الفحص وأنا على ثقة تامة بنفسي بأن النجاح سوف يكون حليفي لاعتبارين اثنين، أولهما: عمق المعلومات التي غرسها الأساتذة المهرة في نفوسنا بأمانة وإخلاص ووجدان عال، وثانيهما: نمو الوعي الذاتي لأبناء الجيل، بأن العلم والمعرفة سلاح النجاح في الحياة.

نُجِّحت والحمد لله وحصلت على شهادة نهاية مرحلة الدراسة الابتدائية التي كانوا يقولون عنها "عقدة تحتاج إلى هز أكتاف".

ومن قبيل الوفاء بجميل الآباء أعتزف بأنهم لم يتأخروا عن تعليمنا بشكل جيد ضمن حدود إمكاناتهم المادية المتواضعة.

ومن منطلق حرصهم على عدم إضاعة العطلة الصيفية السنوية في مجالات تصرف الاهتمام عن الدراسة، كان يتم تسجيلنا في مدارس خاصة قريبة من الحي، بهدف تثبيت المعلومات المكتسبة، والتهيئة إلى مرحلة الدراسة الأعلى.

وأجد من المفيد القول بأن نمو الشعور الوطني قد تنامى بشكل دعا إلى تتبع مجريات الأمور الأساسية في المجتمع، وخاصة الأحداث السياسية والاجتماعية والمعيشية.

لقد حدثت خلال هذه الفترة أمور على غاية من الأهمية في تاريخ بلدنا الحبيب، حيث ظهرت في الأجواء بوادر أمل بالحصول على الاستقلال التام، تمهيداً لجلاء المحتل عن أرض الوطن.

وقد تمثل ذلك بوضع دستور للبلاد وانتخاب مجلس نيابي، وانتخاب رئيس

للجمهورية، وتعيين رئيس للوزراء، ومباشرة الحكم الذاتي في بعض المواقع.
عمت الفرحة جميع أنحاء البلاد، ولكن المحتل الفرنسي أبقى أن يستكمل نقل جميع
الصلاحيات وخاصة السيادة، واشترط أن يكون بقاء الحكومة بالموافقة على أمور سيادية
هامة، تتمثل باستبدال الجيش المنسحب بقوات عسكرية فرنسية جديدة، وإقامة قواعد جوية
عسكرية وضمانات في مجال الاقتصاد والثقافة.

قوبلت من الحكومة السورية بالرفض التام، وقامت المظاهرات الشعبية والطلابية
احتجاجاً حملت المحتل على الرجوع عنها، وذلك لاختلاف الظروف الإقليمية والدولية،
وبالتالي هزيمة فرنسا النكراء بالحرب العالمية الثانية، وقد تمثلت نتائج هذه المرحلة بالتالي:

- نشوء الجامعة العربية.

- صمود الشعب السوري، ويزوغ شمس الحرية في الأفق.

- الحفاظ على وحدة الأراضي السورية.

- نمو شعور المقاومة.

- إعلان استقلال دولة سورية الموحدة دون قيد أو شرط.

ولابد لي أن أشيد بالدور الطلابي الهام في مقارعة المحتل بكل بسالة، وهو دور مشرف
مع باقي فئات الشعب، بما يمليه عليهم الواجب الوطني، وكم من شهيد قدم روحه رخيصة
في سبيل الحرية، وكانت مشاركتهم متواصلة دون انقطاع.

وأمام المطالب العادلة لسورية حصلت على الاستقلال التام وجلاء المحتل عن أرض
الوطن وبدأت ببذل الجهود لأخذ دورها الفعال في المنطقة، والتوجه نحو البناء الداخلي في
المجالات المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

وبالنسبة لموضوعي الشخصي، فقد تابعت الدراسة في المرحلة الإعدادية والثانوية في
مدرسة ابن خلدون، وانصرفت كلياً إلى طلب العلم والمعرفة في ضوء تبدل جذري بواقع الحي
الذي أعيش فيه، تمثل بانتقال كثير من العائلات التي كوّنت معها صداقات شخصية لم
تسمح الظروف ببناء جديد منها مع أبناء العائلات التي حلت محلها، لاعتبارات مختلفة

أهمها الدراسية.

واقترنت علاقتي الشخصية مع زملائي في المدرسة التي أتلقى العلم فيها في حدود ضيقة لم تتعد فترة الدوام فيها، في حين استمرت العلاقة المتينة مع أقران الحي السابقين سواء في الاتصال أو اللقاء من وقت لآخر في أمكنة عامة، تتبادل فيها مشاكل الحياة وما يعانیه كل منّا، ولعل من أهم الأسباب في القطيعة كان اتجاه الكثير منهم إلى ترك مقاعد الدراسة والالتحاق بالعمل الحر المبكر طلباً للعيش.

وفي الأمور العائلية الخاصة وضعت والدي آخر العنقود، في حين تزوجت أختي هداية وبدأت بالإنجاب، تلتها أختي فخرية، بينما منيت الأسرة بانتقال جدتي لأبي ولأمي إلى رحمته تعالى في أجواء سادها الحزن وألم الفراق.

وما حدث من تبدل جذري في واقع الأسرة لم يمنعها من الاستمرار بنفس المنوال السابق بالترفيه عن النفس من وقت لآخر، حيث كنا نقوم برحلة في القطار أو الحافلة الكهربائية إلى الغوطة الشرقية والغربية، -وخاصة في فصل الربيع- للاستمتاع بجمال الطبيعة الغناء.

كنا نستقل القطار من محطة الحجاز برحلة تستمر يوماً واحداً من دمشق إلى الزبداني حيث كان يقطع المسافة على مهل، تبدأ بالمرور بحي البرامكة، ثم الربوة فالشادروان، وهذا يذكرني بقول الشاعر أحمد شوقي صحبة المطرب عبدالوهاب عند وصوله إلى نفس المكان ومشاهدته روعة المنظر عندما سار بعربته تحت الأشجار وافرة الظل:

قم ناج جلق وانشد رسم من	مشت على الرسم أحداث
أمنت بالله واستثيت جنته	دمشق روح وجنات وريحان
جرى وصفق يلقانا بها بردى	كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة	والشمس فوق لجين الماء عقبان
والحور في دمر أو حول هامتها	حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد في جلاب راقصة	الساق كاسية والنحر عريان
خلفت لبنان جنات النعيم وما	نبئت أن طريق الخلد لبنان

يتوقف القطار في دمر مدة الزمن يبدو أنها للتزود بالوقود، ونكون نحن قد استمتعنا بجمال الطبيعة في البساتين، حيث تتعانق أغصان الصفصاف ببعضها كمظلة خضراء باهرة، حيث كنا نشاهد روعة تدفق المياه في نهر بردى الخالد.

ثم يتابع القطار سيره في الهامة فوادي بردى ماراً بقري: جديدة الوادي وبسيمة وعين الفيحة والتكية وسهل الزيداني، ويصل بنا إلى المدينة بعد منتصف النهار.

كان ركاب القطار يطلقون خلال سيره الأهازيج والأغاني مستمتعين بجمال الطبيعة الأخاذ لاكتسائها بأزهار الأشجار المثمرة بألوانها المختلفة البيضاء والزهر والصفراء، ومشاهدة انسياب تدفق مياه بردى على طول خط سير القطار.

وكنا خلال توقف القطار حتى موعد العودة التي تستمر ساعات، نمضي وقتنا بأحد المقاهي في الزيداني نتناول الغذاء على سفرة متنوعة بما لذ وطاب من اللحم المشوي والكبة والمسبحة والمتبل والسلطات والتبولة، نختمها بشرب القهوة أو الشاي، ثم نسرع الخطى إلى المحطة في وقت مبكر نسبياً لانطلاق القطار؛ لنجد مكاناً للجلوس نعود بعدها إلى دمشق وقد خيم عليها الظلام.

أما الرحلة الثانية فكانت بالحافلة الكهربائية، نطلق من المرجة وسط دمشق باتجاه جوبر، عربين، زملكا، حرسنا حتى مدينة دوما، الموقف الأخير سائراً بين البساتين التي تمتلئ بالأشجار المثمرة وأشجار الزيتون كنا نمضي بعد الوصول إلى دوما فترة استراحة في أحد المطاعم نتناول الغذاء ونشرب الشاي، ونعود أدراجنا في أي وقت نريد، لأن الترام يسير باستمرار دون توقف طويل في دوما.

وبالنسبة لموضوع الدراسة فقد كانت تجري في ظل أجواء سياسية متصارعة، لم تنل نفس الدرجة من الاهتمام الذي قوبلت به الأحداث مع المحتل الغاشم، وترك أمر تسويتها إلى الأطراف صاحبة الشأن لما فيه مصلحة البلاد.

أنهت مرحلة الدراسة الإعدادية، وانتقلت إلى مرحلة الدراسة الثانوية، وقبل البدء بمباشرتها حدث انقلاب الزعيم حسني الزعيم على السلطة، فكانت خطوة إلى الوراء؛ لأنه

أتى في مرحلة لم يقف فيه البلد على قدميه بعد؛ فيإزالة الآثار التي خلفها المحتل من تأخر وتراجع في تطور البلد، وتحقيق تقدمه في مضمار التنمية والرقي.

في جو الدهشة والاستغراب بما حصل تابعت دراسة البكالوريا بفرعها العلمي، وكانت المناهج المعتمدة على مستوى عال من الدقة والاتقان، تفرض على الطالب أن يدرك بأن الطريق ليست سهلة وغير مفروشة بالورود.

رسمت خطة تهدف إلى التركيز على دراسة المواد الأساسية بكل تمنع وعمق، واتخذت من شعار "من طلب العلا سهر الليالي" هدفاً للوصول إليه، كانت دراستي ليلاً ونهاراً دون كلل أو ملل؛ لترسيخ المعلومات في ذهني، واستعنت بربي ليكون عوناً لي بهذا المشوار الصعب المحفوف بمخطر الفشل الذريع لا سمح الله.

دخلت الفحص وأنا على ثقة كبيرة بأن التوفيق سيكون حليفي، بإحراز علامة عالية في الرياضيات والطبيعات والعلوم، وتوكلت على الله العلي القدير بتصميم وإرادة قوية. انتظرت النتائج ووقفني الله بالنجاح، فعمت الفرحة جميع أفراد العائلة، وظهرت عليهم علامات الزهو والافتخار، واعتبر هذا النجاح نجاحاً لهم أيضاً.

وخلال هذه الفترة تعرضت البلاد مجدداً لانقلاب عسكري قاده اللواء سامي الحناوي، تلاه انقلاب ثالث بقيادة العقيد أديب الشيشكلي.

كانت أمنيته متابعة الدراسة الجامعية في كلية الطب، ولكن "ماكل ما يتمناه المرء يدركه"، وكان قدرتي الانتساب إلى معهد دار المعلمين على أساس شهادة البكالوريا، أخرج بعد دراسة عام واحد لأدخل معترك الحياة العملية.

وفي الحقيقة لم يتخذ هذا التبدل في المصير قراراً عائلياً، إنما بفعل الغير، حيث إن زميل والدي في القضاء حذّره من مغبة الدراسة في فرع الطب؛ لما تتطلبه من نفقات باهظة لمدة طويلة ينوء عن حملها موظف من أصحاب الدخل المحدود، وفي وقت يقرب فيه موعد إحالته إلى التقاعد، استقبلت الصدمة بروح عالية من الصبر، وقررت أن يتم استكمال دراستي الجامعية في كلية الحقوق إلى جانب أدائي وظيفة التعليم.

بذلك لم أقصّر بحق نفسي وامتمثلت لقول الشاعر حافظ إبراهيم:

لا تلم كفي إذا السيف نبا صح مني العزم والدهر أبي
مارست مهنة التعليم في مدرسة معاوية الابتدائية، وتخرج على يدي عدد كبير من
الطلبة كان منهم الطبيب والمحامي والأستاذ وعدد آخر مارس الأعمال الحرة في مجالاتها
المختلفة فتركت بصمة صغيرة في مجال مهنة البداية.

تابعت دراسة الحقوق بإرادة وتصميم؛ لتحسين وضعي العلمي، وتخرجت حاملاً
سلاحاً علمياً جديداً يساعدني على العمل في مجال آخر جديد قبل نهاية العقد الخامس.
بمحصولي على الإجازة في الحقوق أكون قد أنهيت مرحلة هامة من حياتي الشخصية
وتهيأت لاستقبال مرحلة العطاء.

وقبل الانتقال إلى التحدث عن المرحلة القادمة، أعود للكلام عن مرحلتين هامتين
سابقتين تحدثت عنها لأنها بما يجب أن تنهي فيه مرحلة العيش المشترك مع العائلة، والآخر
مرحلة تكوين الذات.

الأولى كما قلت تناولت مرحلة العيش المشترك، الذي تميز جوه بالألفة والمحبة ضمن
أسرة صغيرة، تضم أباً كرس جهده الكبير لتأمين حاجاتها من متطلبات الحياة بطيب خاطر
وسرور، غير حافل بالأعباء المادية الكبيرة؛ نتيجة انعكاس آثار الحرب العالمية الثانية، وأماً
دفعها حنانها إلى الحرص على توفير أسباب العيش الرغيد لأفراد الأسرة، وجدّة أكسبتها
الحياة الطرق الصحيحة لتذليل الصعاب وتوجيه المخطئ إلى جادة الصواب.

وقد تعلمت في هذه المرحلة كيفية إرساء قواعد التضافر وأهمية الانسجام في توطيد
أواصر المحبة بين أفراد الأسرة الواحدة.

كما وقفت من خلال ما كانت ترويه جدتي لأبي على معلومات وأخبار وأسرار
هامة تتصل بحياة جدي وأبنائهم الخاصة.

كان جدي رجلاً كبيراً، يُولي أسرته كل اهتمام، في أجواء ضبابية مرت بها المنطقة،
ويصرف أوقات فراغه بهواية العزف على آلة الأوكورديون الحاناً كان يتردد صداها في أذن

جدتي كلما نظرت إلى الآلة التي احتفظت بها حتى وفاتها، وكانت الذكرى الحلوة في عمرها المديد، في حين كانت الذكريات الأخرى أليمة؛ لفقدان ابنتها -عمتي- في ريعان الصبا، حزناً وحسرة على وفاة والدها الذي كانت تحبه إلى درجة كبيرة، وكذلك وفاة ولدها شفيق في حادث أليم في العشرين من عمره، وكان بنظرها رجلاً شهماً شجاعاً يضرب فيه المثل.

أما أمنيته التي تمسكت بها خلال عمرها الطويل فكانت أن يكلاً الله ابنها الوحيد -أبي- بالصحة والعافية، وأن يحفظه من كل مكروه.

ولن ننسى أبداً وفاءها الكبير لزوجها والتحدث دائماً عن أخلاقه ومآثره الحميدة وحبه فعل الخير والجود بسخاء لكل ملهوف.

أما الحادثة التي تركت شجوناً أدمت قلبها، فهي قيامها من وراء ابنها الوحيد بإقراض أختها البكر كل ما تملكه من ثروة ذهبية؛ لتحول دون تنفيذ يمين الطلاق عليها إن لم تحضر المال إلى زوجها لتوسيع أعماله التجارية، وبالرغم من إلحاح جدتي ومطالباتها المتكررة لم تعد الثروة، وذهبت مع الريح بأبشع صور الخديعة، وقد تذكرت في معرض هذه الحادثة قول الشاعر المتنبي:

ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمماً عليه ويندم
أما الثانية فكانت مرحلة التأهيل التربوي، أطلق عليها مرحلة تكوين الذات؛ اعتماداً على دعم الأسرة ووقوفها إلى جانبي لتذليل الصعاب.

قناعات شخصية

سأتناول هنا سرد الأمور الجوهرية التي يجب أن تتوفر في المراحل الدراسية على اختلاف مستوياتها: الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية، وأقول -وبكل تواضع- إنها حصيلة تجارب مرت عليّ يمكن الاهتداء بها عند اللزوم، على أن يراعى التطور العلمي والتقني واختلاف الأساليب التعليمية والتربوية في عصر النور والمعرفة التي تفوق التصور في يومنا هذا.

وما يرد ذكره هو مبادئ أساسية منهجية للتعليم بشكل عام، تصلح لكل زمان ومكان:

- إعداد البرامج التعليمية بدقة واتقان.
- تأمين الكادر التعليمي اللازم لكل مرحلة بالمستوى العلمي المطلوب لها.
- الحرص على أن تكون المؤلفات الدراسية المقررة بأسلوب السهل الممتنع الذي يشد إليه طالب العلم.
- تنوع موضوع المؤلفات؛ بحيث تتناول ثقافات الحضارات، مع التركيز على كل ما يتصل بتاريخ أمتنا التليد.
- تركيز الاهتمام البالغ على مواد أساسية: كاللغة العربية والرياضيات والطبيعات والعلوم والتاريخ؛ لما لها من تأثير كبير في تكوين الذات.
- وبالنسبة لأيامنا هذه التركيز على الاهتمام بالمعلوماتية واللغات الأجنبية؛ لدورها الهام في عصرنا الحاضر في نشر العلوم والمعارف من مصادرها التاريخية.
- تضمين المناهج مواداً تصقل المواهب المختلفة، كالرسم والموسيقى والرياضة، وما سواها.

وأؤكد على أن عامل التشجيع يلعب دوراً هاماً في نجاح العملية التعليمية على أن يكون مترافقاً بإرادة وتصميم من طالب العلم. ومن قبيل بيان طيب قلب بعض أبناء هذا البلد وبكل صدق وأمانة، أذكر ما صادفته

من بعضهم مع صديق لي كنت اعتبره أخاً، عملاً بالقول المأثور: ربّ أخ لم تلده أملك، عندما كنا نقوم بدراسة المواد النظرية مشياً على الأقدام في طريق المشاة من "الجبخانة" حتى الربوة، تحت ظلال الأشجار المتصقة، أو في البساتين المجاورة لها تتلخص بالآتي:

- استراحة أبي صياح: وكان يقدم فيها ساندويش الفلافل أو البيض أو الجبنة أو المقالي من زهرة وبطاطا وباذنجان، حيث كنا نجدّه عند العودة قد حضّر لنا حسب ذوقه واحدة لتناولها مع الشاي بسعر زهيد، مع رفضه في كثير من الأحيان قبول الثمن، تشجيعاً منه لطلب العلم الذي حرم منه، على أن يلقى منا كل عون ومساعدة إذا طرقتنا باب الوظيفة، ولكن عاجله الموت قبل تحقيق ما كان يتمناه، كم أنت كبير بأبنائك يا بلدي.

- كرم الضيافة من أصحاب البساتين: حين جلوسنا تحت إحدى الأشجار الوارفة الظل، كان صاحب الحقل يقدم إلينا صحناً من أنواع الفاكهة: المشمش والتفاح والدراق، وهذا دليل كرم الضيافة العفوي.

- العناية في إعداد سندويش طعام العشاء: كان "أبو فايز" صاحب مطعم في حي الشعلان القريب من منزلنا، يشتري لنا خبزاً مرقوقاً من التنور المجاور له، ويعد سندويشة بحبرة متناهية، تحتوي على ما لذ وطاب من المأكولات الشهية تقديراً لما كان يقول هذا نظير تعبكم اليوم، ويستوفي ثمناً زهيداً يراعي فيه مقدرتنا الشرائية، وأذكر قوله لنا: "ما أجمل العلم". هذه قصص غيضة من فيض أكتفى بها على سبيل المثال وليس الحصر، تدل أكثر ما تدل عليه شهامة وكرم أبناء بلدي.

وأختم هذه الزاوية من الذكريات بحادثة فريدة من نوعها بتاريخ مدينة دمشق، جرت في منتصف شهر أيار خلال اليوم الأخير من شهر شعبان، وقبل قدوم شهر رمضان في اليوم التالي، وكان الجو صحواً والسماء مشرقة بنور الشمس، وكثير من العائلات الدمشقية جلست على ضفاف نهر بردي الخالد، تمهيداً لاستقبال شهر الصوم الكريم بسرور.

وفجأة اكفهر الجو وامتألت السماء بالسحب السوداء الداكنة، وهطلت أمطار غزيرة كحبال الغسيل أدت إلى امتلاء النهر بالماء الدافق، غطت جوانبه من نبع الفيحة حتى

الربوة، وضافه في مدينة دمشق أدت إلى تدفقها وخروجها بغزارة لا مثيل لها في الأحوال الاعتيادية، سار الماء في الطريق كنهج مواز لبردى، سبب أضراراً بالغة، كانت ذروتها في ساحة المرجة، وسوق علي باشا القريب منها وسوق العتيق، وتم قطع الطرق المؤدية لمداخل المدينة.

وقد احتمينا من آثار الطوفان مع الأهالي بالصعود للأمكنة التي تقع أعلى من مستوى النهر.

إنه منظر يدعو إلى الدهشة والألم للخسارة المادية التي مُني بها أصحاب المحلات التجارية، الممتدة من ساحة فيكتوريا حتى المرجة، وضياع الفرصة التقليدية لبعض أبناء المدينة باستقبال شهر الصوم الكريم بحفاوة وسرور.

وأستميح القارئ الكريم العذر إن كنت قد أطلت في سرد مذكرات متعددة الجوانب، لأنني أقصد بذلك إحاطة من يقرأها بحوادث لم يذكرها التاريخ، وأخرى من قبل شاهد عيان لها لا يعرفها إلا من رآها رأي العين.

أعود وأكرر اعتذاري وأبين بأن إطالة سرد تلك الأمور كان من ضرورة المعرفة بالشيء، ولا سيما أنها تتناول مجريات أمور وأحداث لم يقف عليها كل من عاصرها، وأخرى ذات خبرات عملية علّها تساعد على الاسترشاد ببعضها لرسم الخطى المستقبلية الناجحة.

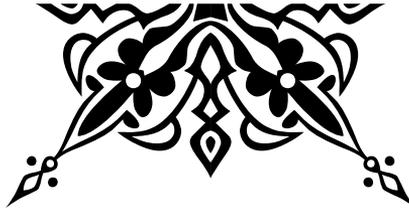
وقل وأنا أقول معك: "رب زدني علماً".

أحداث من التاريخ

من خلال احتواء فترات زمنية متعاقبة على مجموعة متنوعة من أحداث تاريخية هامة، عمدت في هذا السياق إلى ذكر جميع الأحداث التي جرت خلال العقد الخامس والسادس وأوائل السابع، حسب تاريخ تسلسلها الزمني؛ لوقوع الحدث على نحو يتناول في شموليته جميع جوانب الحياة العامة.

- حدوث انقلابين في سورية مع بداية العقد الخامس.
- عودة الحكم الوطني الدستوري في سورية.
- ظهور التحالفات الإقليمية كحلف بغداد أو إطلاق مشاريع وحدوية كمشروع الهلال الخصيب بين سورية والعراق ودول أخرى.
- قيام ثورة تموز في مصر بقيادة البكباشي جمال عبدالناصر.
- تأميم قناة السويس ومحاوله اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر.
- العدوان الثلاثي على مصر من قبل (إنكلترا، فرنسا، إسرائيل).
- تلاحم النضال السوري المصري في إغراق البارجة الفرنسية (جان بارت) من قبل الضابط السوري "جول جمال".
- إعلان الوحدة بين سورية ومصر وتشكيل الجمهورية العربية المتحدة.
- حدوث الانفصال وانفصام عرى الوحدة بين سورية ومصر.
- نشوء منظمة التحرير الفلسطينية لتحرير أرض فلسطين العربية.
- قيام ثورة الثامن من آذار في سورية.
- حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م.
- حدوث انقلاب القذافي في ليبيا على حكم السنوسيين.
- تفاقم الخلاف بين الملك حسين في الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية انتهى بثورة عارمة.
- قيام الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد في سورية.

- حرب التحرير عام ١٩٧٣ التي قامت بها سورية ومصر لمحو آثار الانتكاسة.
 - عقد مؤتمرات عربية متعددة لمعالجة القضايا المصرية الهامة.
- وأكتفى هنا بتعدادها دون شرح تفصيلي لأنها جاءت في وقت قريب نسبياً وتم التعايش معها والتعرف على نتائجها.



أجواء

إنه من المفيد هنا الحديث عن مظاهر اقتصادية وأدبية ومهرجانات أدبية وموسيقية وسينمائية شهدتها دمشق وأصبحت دورية كل عام.

كما سأتناول في الوقت نفسه الحديث عن تبدل النسيج العمراني للمدينة، أسفر عنه زوال معالم أثرية وحضارية كانت لها خصوصيتها.

أبدأ بالحديث عن مظاهر تركت بصمات لها أهميتها تمثلت بـ:

معرض دمشق الدولي: وهو مظهر اقتصادي كبير، ويعتبر من أقدم المعارض، وأبرزها تشارك فيه بعض الدول العربية والأجنبية ممثلة بشركاتها التي تتبارى بعرض أرقى وأحدث المنتجات الصناعية والزراعية، وقد حقق نجاحاً فاق حدود التصور على المستوى الاقتصادي والتجاري والسياحي، كما كان مناسبة للترفيه عن النفس، من خلال التجول في حدائقه الحافلة بالأزهار، والاستمتاع بمشاهدة نوافير الماء المقامة وسط الحدائق والمتصاعدة من مياه مجرى بردى، والنظر إلى الألعاب النارية بألوانها الزاهية، وأشكالها الرائعة، واستكمال الرحلة باستراحة في أحد المطاعم التي أقيمت فيه، وتناول ألد المأكولات والبوظة والمشروبات الباردة، أو الجلوس في المقاهي والمنتزهات التي انتشرت في كل مكان، وقد أصبح هذا الحدث تقليداً سنوياً يرتاده مئات الألوف.

وبكل أسف شديد أقول: إنه بدلاً من أن يتقدم إلى الأمام ويتطور، أخذ بالتراجع إلى الوراء، وأصبح عادياً وزالت معالمه المتميزة جملة وتفصيلاً.

-معرض الكتاب: حيث تقوم دور النشر والتأليف بعرض منتجاتها الثقافية في مجال الشعر والأدب والتاريخ والقانون وأنواع أخرى من المؤلفات التي لها أهميتها في توفير المعرفة للذات، حيث يقوم المثقفون بشرائها، وأصبح تقليداً سنوياً يرتاده آلاف الزائرين.

-مهرجان السينما: حيث تعرض في صالات المسرح والسينما أضخم المنتجات في ميدان التمثيل والأفلام والمسرحيات، وهو ظاهرة سنوية يلتقي فيها أشهر الممثلين والمسرحيين، وتوزع فيه الجوائز على الفائزين.

-مهرجان الموسيقى: وهو ظاهرة تعزف فيه أشهر الفرق الموسيقية مقطوعات لعباقرة من الملحنين الموسيقيين، كما تجرى حفلات غنائية لملوك الطرب في العالم.

وكم أنت رائعة يا دمشق في إعداد هذه المظاهر على نحو يبهر الأبواب.

-تبدل النسيج العمراني لمدينة دمشق وأذكره من قبيل الأمل الكبير الذي خلفه معول الهدم العشوائي في إزالة المعالم الأثرية الهامة، التي كانت تزدهر بها مدينة دمشق، وسيقتصر البحث فيه على مكان واحد يعطي فكرة واضحة عما جرى في أمكنة أخرى مماثلة.

أبدأ بالكلام عن ساحة المرجة، وسيكون وصفي لها مبنياً على أساس المشاهدة الحية لمعالمها في أوائل الخمسينات، خلال ذهابي وإيابي من العمل في التعليم بمدرسة معاوية التي كانت في مطلع أحد مداخلها من الناحية الشمالية.

لقد بوشر بإزالة المعالم الهامة فيها بدءاً من مشروع تغطية مجرى بردى من ساحة فيكتوريا حتى مدخل المرجة، فقد تناولت هدم السور الأسمنتي الذي كان بشكل عمراي، يسمح من خلال فراغاته رؤية تدفق المياه في النهر وجدران المرصوفة بالحجارة البيضاء، ومشاهدة القناتين الرومانيتين الموجودتين قبل دخول النهر إلى الساحة، وكان ينساب منها الماء إلى الأحياء الجنوبية والشمالية.

كما أتى التطوير على رفع أحد معالم الساحة الأثرية، وهي الساعة المستديرة البيضاء التي كانت مركبة على عمود حديدي أسود، تزينه نقوش هندسية رائعة، أقيم في مدخل نهر بردى إلى الساحة.

أما الشيء المحزن فكان في هدم الأبنية التي شيدت على جوانبها في الجهات الأربعة بأسلوب العمارة الدمشقية الشهيرة بطرازها الفريد الذي يجمع بين الماضي والحاضر.

هدمت أولاً دار البلدية التي تشبه في طرازها دار الحكومة المجاورة لها، والتي ما زالت حتى الآن كمقر لوزارة الداخلية، وقد شيد بناؤها بفن معماري رفيع، وواجهتها ذات الشرفة العريضة التي تطل على الساحة، وقد اتخذت هذه الدار قصراً للملك فيصل إبان الثورة العربية الكبرى.

جاء التطوير بعدها على إزالة الأبنية التي كانت تعود لجهات رسمية لأداء الخدمات للمواطنين، كدار العدلية ودار الطابو (المصالح العقارية) ودار البريد والبرق، ودار الترام (الحافلات الكهربائية) وغيرها، وقد تم جمع هذه الخدمات المختلفة في هذه الساحة على نحو جماعي شامل، يماثل المجمعات الحكومية في أيامنا هذه؛ لتخفيف العبء على المواطن بالتنقل من مكان إلى آخر لإنجاز معاملاته.

وقد طال الهدم أيضاً جامع يلبغا دنكز الذي كان بناؤه ممثلاً لفن معماري، يجمع بين التراث العربي والتركي، وكان خسارة كبيرة لا تعوض، سواء في حرمة الذي يتسع لمئات المصلين، ونوافذه الزجاجية المزينة بأشكال ورسوم هندسية تبهر الناظر إليها، ومحرابه المرمرى الأخاذ، ومنبره المصنوع من خشب السنديان، تزيينه آيات قرآنية خطها أمهر الخطاطين في مختلف العصور.

أما الساحة فكانت مرصوفة بالرخام المرمر الأبيض، تتوسطها بعض برك الماء، يتدفق منها الماء، وتوجد فيها في الجانب الشمالي المنافع العامة، وأماكن وضوء المصلين، وترتفع من الجهة الشرقية من الجامع مئذنته الشهيرة بجمالها المماثل لأخت لها في الجامع الأموي الكبير بدمشق، وزوال مداخله الواسعة وأبوابها النحاسية الصفراء المزينة بنقوش عربية وتركية. كما تناول الهدم إزالة أحياء بكاملها، شيدت على مداخل المرجة من جهاتها الأربع، وكذلك أبنية المحلات التجارية، وصلالات العرض السينمائي، والمقاهي الشعبية، والمطاعم، ومعامل صناعة الحلويات والمعجنات، وأمكنة بيع الخضار والفاكهة.

وكان آخر حدث للتطوير هو الاستغناء عن خدمة الترام، ورفع السكة الحديدية التي يسير عليها لتخديم أحياء: الميدان والعمارة وباب توما والصاحية والمهاجرين، وسكان الغوطة الشرقية: جوبر وعربين وحرستا حتى دوما، وبذلك زالت معالمه نهائياً، وقد بقيت هذه الخدمة في ذاكرة من عايشها.

إن الإسهاب في سرد الأماكن الأخرى التي طالها معول الهدم؛ كحي البحصه وحي الشالة وسوق العتيق، ودور العلم والفنادق والمقاهي والمنازل الطينية التي بنيت بفن معماري

فريد من نوعه وإزالة الطرق المرصوفة بأحجار البازلت الأسود وغيرها يدمي القلب، ويبعث على الحزن والأسى في النفوس.

ولا يمكن أبداً أن أنسى بناء مدرسة الصناعة الذي أزيلت معالمه بشكل كامل، وكان روعة في البناء المعماري، حيث شيّد على أرض تصل مساحتها ما بين ٤٠٠-٢٥٠٠م^٢ بحجر رمادي بطابقين، أحدهما: علوي للدروس النظرية، والآخر: بالأسفل كمشاغل بمختلف الاختصاصات المهنية، وفي القبو كان المطبخ لتأمين الوجبات الغذائية للوقاية من التسمم. وأن مشاهدتي هذا المعلم التربوي الحضاري كان خلال إجراء الفحص التحريري والشفهي بنهاية مرحلة التعليم الابتدائي.

ويقال عنه أنه مركز تعليم مهني متميز نظري وعملي، وكان من أوائل المدارس المهنية في الشرق.

سأكتفي بهذا الحد من الأمكنة الهامة التي تناوّلها الهدم العشوائي في قلب العاصمة، ولن أتناول أبداً ذكر أمكنة أخرى تحمل في أهميتها التاريخية والأثرية نفس المرتبة، خلدها المؤرخون بمراجع يمكن العودة إليها، وهذا يغني عن ذكرها بالتفصيل والشرح.

كلمة

من قلب محب صادق لبلاده، ويحرص على عدم المس بالمعالم الحضارية التي بقيت منارة للراقي والتقدم في جميع المجالات، تنعم بمشاهدتها الأجيال الصاعدة، أدعو أولئك الذين يسهرون على التطوير والتحديث أن يأخذوا بعين الاعتبار موضوع الربط بين الماضي والحاضر، وأن تكون دراساتهم مبنية على أساس الحفاظ على الأوابد التاريخية التي شيّدت عبر العصور، وهي بحمد الله أكثر من أن تعد وتحصى تزهو بها مدينة دمشق الخالدة.

شمس الغروب

أما خاتمة القول فسوف تقتصر على أحداث مرت بها عائلي في أواخر العقد الخامس وأوائل السادس تمثلت في:

-إحالة والدي إلى التقاعد بعد بلوغه السن القانونية.
-أداء والديّ فريضة الحج، وعودتهما سالمين إلى أرض الوطن.
-عودة أختي فلك وهي حامل بأشهرها الأخيرة إلى العيش المشترك مع طفليها لوفاة زوجها.

-بدء والدي بزيارات متكررة لإخوتي الإناث في عمان.
-مرض والدي بمرض عضال أسفر بانتقاله إلى دار البقاء.
-انتقال مسؤولية رعاية العائلة إليّ.
-زواج أخي عبدالوهاب وانتقاله للعيش بمفرده مع عائلته.
-وفاة جدي لأمي، وانتقاله إلى ديار الحق.
-دخول أخي منذر معترك الحياة بالتحاقه بالعمل في إحدى المؤسسات.
وبذلك تكون حياتي الشخصية قد انتقلت إلى مرحلة جديدة تختلف كلياً عن السابقة شكلاً ومضموناً.

بزوغ الشروق

بمحصولي على شهادة الإجازة في الحقوق بدأت مرحلة الخيار الصعب لخطوات المستقبل، وكانت بحكم التسلسل الزمني لحياتي الشخصية قد انحصرت في مجالات ثلاثة:

الأول: ممارسة العمل الحر في مجال تجارة الألواح الزجاجية والمرايا والأواني من الكريستال الأبيض والزهر والسماوي، ولوحات الزينة على الجدران، مع جدي لأمي شريكاً له في الجهد، لقاء راتب شهري، ونسبة من الأرباح الصافية على أن يتم تمويل المشروع بكامله من قبل جدي.

ولكن الفكرة لم تنل قبولي لغموض استمرارية العمل بعد وفاته ورغبتني عدم الدخول في خلاف مع الورثة.

ولابد لي أن أبوح بسر خاص، وهو أنه لم يكتب لي النجاح والتوفيق بأعمال حرة مارستها خلال دراستي الجامعية على نحو مماثل.

الثاني: مزاوله مهنة المحاماة، وهذا يحتم أن يكون لي مورد مالي يغطي جميع نفقات العائلة المعيشية ومستلزماتها الضرورية، خلال فترة التمرين على أعمال ممارسة المهنة، وهذا كان شبه مستحيل.

الثالث: الالتحاق بعمل وظيفي في القطاع الحكومي، وعليه وقع الاختيار متوكلاً على الله تعالى أن يكتب لي التوفيق بهذا المسار.

تحينت الفرص للاشتراك في المسابقات التي تعلنها الدوائر والمؤسسات الحكومية من وقت لآخر لحملة شهادة الإجازة بالحقوق، وكان ذلك في ثلاث منها في مجال: الاتصالات، والقضاء، والإصلاح الزراعي.

اخترت الالتحاق بمديرية البريد والبرق والهاتف التي نجحت في مسابقتها، وكنت الثاني من حيث ترتيب الفائزين العشرة.

باشرت العمل بتاريخ ١٨/٠٣/١٩٥٩، وقبل أن تسند إليّ أية مهمة وظيفية، اتبعت دورة للاطلاع على أسلوب العمل في القطاع الإداري؛ للتأهيل المسلكي ومع انتهائها شغرت

وظيفة رئيس الشؤون الإدارية، فوقع الاختيار عليّ وأسندت إليّ مهمة تصريف شؤونها وأعمال الدوائر المرتبطة بها.

ومن قبيل الصدف النادرة أحيل مدير إدارة القطاع الإداري والمالي والاستثماري إلى التقاعد، وأمام صعوبة العثور على البديل، تولى المدير العام للمؤسسة مهمة تسيير شؤونها فأصبحت صلتني المباشرة معه.

يحمل المدير العام درجة الدكتوراه من جامعة السوربون في فرنسا، إضافة إلى كونه من أشهر أدباء دمشق، وعرفت من خلال ذلك أن معيار نجاحي يتوقف على اتقاني المجالين الحقوقي والأدبي.

وبهذه الأثناء شغرت وظيفة رئاسة مكتبه الخاص؛ فأسندت إليّ، وبحكم طبيعتها اطلعت على أسلوب العمل في مختلف المجالات، واكتسبت خبرة ساعدتني على القيام بتنفيذ بعض المهام الصعبة؛ ففرت ونلت ثقة رأس الهرم الوظيفي.

ومن قبيل التندر بجوادر تدعو إلى الدهشة جرت هذه الواقعة في مكنتي الذي كان ملتقى بعض الأدباء من أصدقاء المدير العام الحميمين، خلال فترة انتظارهم للدخول إلى مكتبه.

وفي إحدى زيارات الأديب الكبير الأستاذ أحمد الجندي تبادلنا مواضيع أدبية مختلفة للأدباء والشعراء في مختلف العصور، فقامت -ولست أدري دافع المشاركة بالحديث- بذكر واقعة للشاعر أبي تمام في معرض إلقاء قصيدة بمدح الخليفة المعتصم ورد فيها هذا البيت:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
فهب أحد الحاضرين الذين يكرهون الشاعر قائلاً: أما زدت أن شبّهت الخليفة بأفراد من رعيته.

لكن الشاعر لم يتوقف عن الإلقاء، ونظم مرتجلاً هذين البيتين لحظة إلقاء القصيدة:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل بنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وهذا خير برهان على أن أبي تمام أبرع الشعراء في نظم الشعر، بذهن ثاقب لا مثيل له.

ففقّاه الأستاذ بصوت عال وقال: بارك الله فيك يا أدبي الصغير، فرن جرس الهاتف وكان على الخط المدير العام، وقال لي: الدكتور أحمد الجندي في مكتبك ينتظر فليدخل. وقبل دخوله طلب إليّ أن أحضر أخرى مماثلة للزيارة القادمة لشاعر آخر وتحقق ذلك بالتالية:

اعتاد أمير الأدباء في العصر العباسي الشريف المرتضي أن يجمع سنوياً أدباء وشعراء العرب المشهورين لتقييم الإنتاج الأدبي الخاص بهم. استرسل الأمير في حديثه، وهاجم بقسوة بالغة الشاعر الخارق أبا الطيب المتنبي في محاولة للنيل منه؛ لعداء شخصي بينهما، فوقف أبو العلاء المعري -ملك الشعر والأدب- مقاطعاً بقوله: إذا لم يكن للمتنبّي من بصمة فارقة في الشعر فيكفيه فخراً قصيدته العصماء التي مطلعها:

لك يا منازل في القلوب منازل

امتعض الأمير، وصفق بيديه وقال: أخرجوا هذا الأعمى من المجلس، وتوجه إلى المشاركين في اللقاء الأدبي بالسؤال: هل تدرون ماذا يقصد المعري بذكر هذه القصيدة بالذات؟ فأجيب: بأن الأمير أدرى، وقال: إنه يريد التذكير بقول الشاعر في القصيدة بهذا البيت:

وإذا أتتكم مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ولقد شاركت -خلال وجودي بهذه الوظيفة- بأعمال اللجان التخصصية، وفي المباحثات واللقاءات مع ممثلي الإدارات العربية، التي تهدف إلى زيادة أواصر التعاون معها في مجال البريد والبرق والهاتف، كما كنت أميناً لسر اللجنة التي قامت بدراسة موضوع توحيد الأنظمة وأساليب الخدمة، وتبادل الخبرات مع الإدارة المصرية إبان قيام الوحدة، كما أسهمت

بوضع الهيكلية الجديدة للمديرية لتصبح مؤسسة عامة ذات طابع اقتصادي، ووضع نظامها الأساسي، وأنظمة أساليب العمل في مجالاتها الخاصة، بما بدلاً عن تلك التي كانت سارية المفعول إبان الاحتلال الأجنبي.

بقيت في العمل بهذا المكتب حتى ما قبل نهاية عام ١٩٦٥، سافرت بعدها إلى فرنسا للتأهيل المسلكي في إطار التعاون بين إدارات أداء خدمات البريد والبرق والهاتف على نفقة الاتحاد الدولي التابع لمنظمة الأمم المتحدة، وأذكر هنا كلمة المدير العام لي: "ثابر على متابعة الاهتمام بهواية الأدب، فهو ثقافي ومتعة، وأنت مدعو لحضور لقاء الأدباء الأسبوعي في مقهى البرازيل الكائن في مدخل حي البحصّة وأهلاً وسهلاً بك. يا بني وفقك الله وكتب لك النجاح".

وللأسف الشديد لم تكتب لي المشاركة، حيث إن المدير العام قد أحيل إلى التقاعد وأقام في بيروت.

إن ما شجعني على قبول المنحة هو توفر المصروف الشهري لعائلي من راتب الوظيفة، وحصولي على نفقات الإقامة والمصروف الشخصي في فرنسا من موازنة الاتحاد الدولي. وفي فرنسا التحقت بدورة تأهيل باللغة الفرنسية مدتها ثلاثة أشهر، ثم التحقت بالمدرسة العليا للبريد والبرق والهاتف، حيث تم دراسة النظم المختلفة والنصوص الدولية الخاصة بهذه الخدمات، تعدتها إلى نظم إدارة شؤون المصالح الإدارية والمالية والاستثمارية في الإدارة الفرنسية، وبنهاية الدراسة النظرية قمنا بإجراء دورات تدريبية عملية في مراكز الخدمات بالمدينة والريف.

تم سير المكتسبات التي حصلنا عليها من قبل مندوبي الاتحاد الدولي وممثلي الإدارة الفرنسية للتأكد من تحقق النتائج المرجوة، وحصلت على شهادة دبلوم في التأهيل المهني من الإتحاد الدولي.

مرحلة النهوض

عدت إلى المؤسسة حيث أسندت إليّ وظيفة رئيس قطاع الشؤون الإدارية أصالة، ورتاسة فرع البريد في مدرسة الاتصالات تكليفاً.

كما كانت لي مشاركة فعالة في أعمال اللجان التي يتم تأليفها من وقت لآخر؛ لدراسة أساليب العمل، واقتراح تطويرها إلى الأفضل في المجالات الإدارية والمالية والفنية. وفي منتصف الستينات تقرر عقد لقاءات دولية في تشيكوسلافاكيا (براغ-براتيسلافا) وفي بلغاريا (صوفيا - فارنا) حيث شاركت فيها، وقد عادت عليّ بالفائدة المهنية بالدرجة الأولى، وسنحت لي فرصة القيام بسياحة خلال فترة التدريب العملي الميداني في المدن والريف، بزيارة المعالم الحضارية والأثرية طبقاً لبرنامج أعدته الإدارة المعنية.

وبعد عودتي ثابرت على أداء المهام الملقاة على عاتقي بنفس الوظائف المسندة إليّ. وفي أوائل السبعينات قدمت للمؤسسة منحة دولية لكبار المسؤولين في قطاع الاتصالات، ولم يرشح لها أحد، -وخشية ضياعها وحرمان المؤسسة من فائدة التخصص المسلكي والمهني - بدورة دراسية واطلاعية، تم وضع برنامجها بالتنسيق مع الاتحاد الدولي - قرر مجلس إدارة المؤسسة ترشيحي لها.

التحقت بالدورة التي جرت في فرنسا، وحضرها مسؤولون يزيد عددهم عن العشرين، وكان برنامجها يتألف من مواد نظرية وزيارات ميدانية لمختلف مواقع العمل التي دخل إليها أداء الخدمات آلياً.

جرى في نهاية الدورة إلقاء محاضرات من قبل المشاركين، تظهر المكتسبات التي تحققت، وتم على ضوئها حصولي على شهادة دبلوم علمي من الاتحاد الدولي.

بصمات مهنية

عدت إلى دمشق بعد ستة أشهر من الغياب، واشتركت بعمل لجنة تم تأليفها لدراسة موضوع مستقبل مؤسسة البريد والبرق والهاتف بشكل يؤدي إلى فصل الخدمات واستقلالية كل منها، فاقترحت اللجنة أحداث مؤسسة مستقلة لخدمة البريد، وأخرى مستقلة لتقديم خدمات المواصلات السلوكية واللاسلكية. وذلك انسجاماً مع النهج الجديد الذي يقضي على الدمج العشوائي بين إدارات الخدمات التي لا يوجد تماثل بينها.

شاركت مع اللجنة التي قامت بإعداد صك أحداث مؤسسة للبريد وآخر بإحداث مؤسسة للمواصلات السلوكية واللاسلكية، وتنفيذاً لأحكام المرسومين الصادرين بإحداث مؤسستين مستقلتين عن بعضهما، فقد تم فرز العاملين في المؤسسة الأم موزعين حسب اختصاص كل منهم مجموعة بمؤسسة البريد، والثانية بمؤسسة الاتصالات، وتم اختياري لمؤسسة الاتصالات، وفي ضوء التشكيلات الأولية أسندت إليّ وظيفة رئيس القطاع الإداري والقانوني والمالي.

أوكلت إليّ مهمة بالغة الأهمية، وهي وضع الهيكل الإداري للمنشأة الجديدة ونظامها الداخلي الذي يحدد توزيع المهام على المديریات والدوائر ونظام الاستثمار. في حين إن بقية الأنظمة في المجالات الأخرى كانت موضوعة مسبقاً من قبل مراجع متخصصة في الدولة؛ لشمولية أحكامها جميع المنشآت ذات الطابع الاقتصادي.

كنت في الحقيقة أمام امتحان صعب يتوقف عليه مستقبلي الوظيفي، باشرت بتنفيذ المهمة كرسام أمامه لوحة بيضاء لا يدري من أين يبدأ برسم المشهد.

وأعترف هنا بأن الدورات المسلكية والمهنية التي التحقت بها في فرنسا كانت عاملاً هاماً في نجاحي، لما اكتسبته من خبرة حقيقية بهذا المجال.

وقد تجسّدت الصعوبة في وضع الهيكل الهرمي للجهات الفنية، وتم اختياره بالتنسيق التام مع زملائي الفنيين ذوي الخبرة العالية.

أنجز وضع النظام الداخلي للمؤسسة في فترة قصيرة جداً، وكان على المستوى المطلوب

بما يساير طبيعة المرحلة القادمة.

أقرت الأنظمة، وباشرت المرجعيات بممارسة مهامها حسب التسلسل الهرمي: مجلس الإدارة، المدير العام، المديرات المتخصصة الفنية والإدارية والقانونية والاستثمارية والمالية والتمويل والعلاقات العامة.

وتألفت في الوقت نفسه لجنة إنجاز للنهوض بتنفيذ المشاريع الفنية التنموية لتطوير الخدمات، وإدخال خدمات جديدة تساهم في التقدم التقني في مجال الاتصالات، تتمتع بحسب مركزها القانوني بأوسع الصلاحيات.

كما قامت لجنة كنت أحد أعضائها برئاسة المدير العام للمؤسسة بوضع الملاك العددي المتحرك حيث من خلاله يتم تدارك القوى البشرية بمرونة كاملة حسب الحاجة الفعلية، وقد توليت في هذه المرحلة -إضافة لوظيفتي الرئيسية- أمانة سر مجلس الإدارة، وأمانة سر لجنة الإنجاز، ولجنة التنسيق.

وفي هذه الفترة تابعت المؤسسة بخطة متسارعة عملية التطوير والتنمية وادخال أحدث التقنيات في مجال الاتصالات بمختلف أنواعها.

وشاركت في المؤتمرات والاجتماعات واللقاءات التي تهدف إلى تعميق أواصر التعاون مع الإدارات العربية والأجنبية.

واهتمت المؤسسة اهتماماً بالغاً في تنفيذ المشاريع المشتركة بين الإدارات العربية الثنائية منها أو متعددة الأطراف.

ومن هذه المشاريع مشروع الاتصالات الفضائية بين الدول العربية، وشاركت بوضع اتفاقية إحداث هذه المؤسسة باسم عربسات في القاهرة، بمقر الجامعة العربية، كما شاركت في الاجتماعات الثنائية بين الإدارتين السورية والعراقية في بغداد؛ لوضع أسس توحيد الأنظمة وإقامة المشاريع المشتركة.

وحضرت أيضاً الاجتماعات التمهيدية بين الإدارة السورية والسعودية والأردنية التي عقدت في عمان؛ لوضع أسس تنفيذ مشروع مشترك يحقق الربط بين هذه البلدان بشبكة

كوابل أرضية.

وبصدق أقول: إن العنصر البشري الفني والإداري والمالي والمهني في المؤسسة قد قام بجهود كبيرة للنهوض بأعباء جسام في مرحلة النشوء وكان على مستوى المسؤولية. كما قام الجهاز الفني بما يتمتع به من كفاءة عالية وخبرة تقنية عالية في مجال الاتصالات بوضع أسس إدخال أحدث التقنيات، بما يساير التقدم والتطور في جميع المجالات السلوكية واللاسلكية، وتجلى ذلك بوضوح في وضع المواصفات الفنية للمشاريع على درجة عالية من الجودة والخبرة.



قمة النهوض

بوشر في هذه المرحلة تنفيذ مشاريع اتصالات في مجال تحديث المقاسم الآلية والمواصلات الخارجية واستبدال بعض شبكات الكوابل الأرضية وإقامة محطة الاتصالات الفضائية ومشاريع أخرى جديدة تتناول بدء تنفيذ مشاريع لربط الريف بالمدن وأخرى لمواجهة حجم الاتصالات القطرية والدولية المتزايدة.

كما أدخلت الأتمتة في المجالات الإدارية والمالية والاستثمارية والتعليم في حدود ضيقة لعدم توفر الاعتمادات المالية لتغطيتها بحجم كبير.

وكانت النشاطات جماعية قائمة على التعاون التام لإنجاز مهام التطوير والتحديث والتنمية، على أكمل وجه.

ونتيجة زيادة حجم العقود المبرمة مع الشركات المحلية والأجنبية لتوريد التجهيزات والكوابل والقطع التبديلية وسواها، دخلت المؤسسة في نزاع قضائي ناشئ عن عدم قيام الشركات بالوفاء بالتزاماتها العقدية، الأمر الذي ألقى على القطاع القضائي -الذي كنت على رأسه- مهمة إعداد المذكرات والدفوع القانونية أمام القضاء للمحافظة على حقوق المؤسسة، أو إجراء مفاوضات مع بعض الشركات لتسوية الخلافات معها بشكل ودي، أو المشاركة في لجان التحكيم القانونية لدى مجلس الدولة، وقد تم إنجاز هذه الأعمال على الوجه المطلوب، منتصرة بحق على كل من يحاول النيل من حقوقها المشروعة.

كما تم في مجال تطوير وتحديث النظم وضع التعليمات التنفيذية للحوافز الانتاجية بحيث حددت النسب في ضوء إنتاجية كل عنصر.

كما تم تعديل أحكام الصندوق التعاوني بشكل يؤدي إلى توسيع قاعدة شمولية منح المعونة المالية في حالات جديدة؛ لتكون عوناً للمستفيد في مواجهة الحوادث الطارئة.

وكذلك شاركت مع اللجان التي قامت بدراسة ووضع الاتفاقات الثنائية بين الإدارة السورية وإدارات مصر وقبرص ولبنان، من أجل تنفيذ مشاريع اتصالات عبر الكوابل البحرية، أسفرت عن تمديد كابل أوغاريت مع قبرص، وكابل بالميرا مع مصر ولبنان.

وفي إطار إقامة مشاريع دولية للاتصالات عبر كوابل بحرية تخدم كلاً من البلدان الواقعة جنوب شرقي آسيا والهند وبحر العرب والخليج العربي والبحر الأحمر، والدول الواقعة شمال إفريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط، التي عقدت اجتماعاتها في إندونيسيا والهند وقطر ومصر والجزائر، شاركت فيها كعضو في الوفد السوري.

كما شاركت في اجتماعات أخرى بنفس الهدف للربط بكوابل بحرية مع اليونان ويوغوسلافيا وإيطاليا وفرنسا.

وفي إطار تبادل الزيارات الاطلاعية على سير الخدمات في مرفق الاتصالات في بعض البلاد العربية والأجنبية والاستفادة من خبرتها بهذا المجال، قمت بمشاركة وفد سوري بزيارة إدارات: مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، اليمن، والكويت.

كما شاركت في اجتماعات الجمعية العمومية لمؤسسة الاتصالات الفضائية (عرب سات) ومجلس إدارتها التي عقدت في الأردن ولبنان والسعودية وسلطنة عمان ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب واليمن ودولة الإمارات العربية.

كما أسهمت الإدارة السورية بوضع اتفاقية مؤتمر وزراء الاتصالات العرب ضمن إطار الجامعة العربية، وشاركت في اجتماعاته السنوية والطارئة.

وكان جدول أعمالي قبل إحالتي إلى التقاعد حافلاً بنشاطات محلية وخارجية، لعبت فيها - بوصفي مساعداً للمدير العام للشؤون الإدارية والقانونية والمالية - دوراً هاماً بروح عالية من المسؤولية.

نهاية المطاف

وقبل أن أختم الذكريات، أعرج على بعض الأمور الشخصية والعائلية، من حيث وفاة أخي محمد عبدالوهاب، ووالدي يسرى، وانتقالهم إلى ديار البقاء والخلود. وكذلك أنهيت الرسالة الخاصة بأسرتي الصغيرة، من حيث إتمام أبنائي جميعاً محمد الهادي، وأحمد مهند، وبانة، وماهر، دراستهم الجامعية، ودخولهم معترك الحياة العملية كل في مجال تخصصه.

قبل دخولي في مرحلة التقاعد استعرضت مراحل حياتي السابقة، وما جاء فيها من أمور تتناول جوانب مختلفة، أجد من واجبي إبداء القناعات والومضات التالية:

- الاعتزاز بالمكتسبات الباهرة التي حققها أبناء وطني؛ لكونها منارة مضيئة في التاريخ.
- الإنحاء بإجلال أمام أضرحة الشهداء أكرم من في الأرض وأنبل بني البشر.
- الاهتمام بالمثل العليا لرجالنا العظام صنّاع التاريخ.
- الحفاظ على تراثنا الحضاري والمعالم الأثرية التي ما زالت قائمة في بلدنا الحبيب.
- الربط بين الماضي والحاضر، عند تنفيذ مشاريع التطوير والتحديث.
- إغناء مناهج التعليم بالمواد التي تسهم في بناء الذات.
- توجيه تحية شكر لمربي الأجيال الصاعدة.
- ضرورة القيام بزيارات ميدانية لأماكن تزهو بها المدن من جوامع وكنائس وأحياء وأسواق للاستمتاع بمشاهدتها كيلا تبقي ذاكرة من التاريخ القديم.
- أداء الواجبات والحقوق بكل صدق وأمانة وبما يمليه الواجب.

نصيحة من القلب

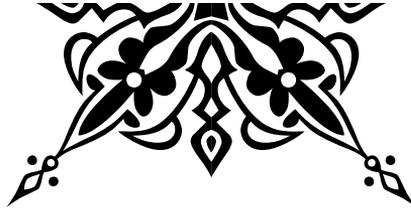
من قبيل الوفاء أَدْعُو بأن يقابل المرء عملية الإحسان بإحسان، امتثالاً لقوله تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٦٠] وأن يقدم على نجدة الملهوف، وأن يهتدي بالقيم السامية التي رسمها أجدادنا الكرام، وأن يكون شعار الألفة والمحبة رائد الجميع في بناء علاقاتهم الاجتماعية.

وأكبر ثروة يجنيها المرء في حياته على اختلافها هي محبة الآخرين، وقدسية الاعتراف بالجميل، ومقابلة الود بالود.
والله ولي التوفيق،،،

دعاء

دعائي الأخير بأن يحفظ الله جل جلاله بلدي الحبيب سورية من كل سوء ومكروه،
وأن يعيد إليها الأمن والاستقرار والسلام، إنه على كل شيء قدير.
وأحب أن أقول مسك الختام: إن حب الوطن لا يعلو عليه شيء في الوجود، وأكرر
قول ما قيل عنه من فخر واعتزاز:

أنت يا سورية بلادي	أنت عنوان الفخاما
أنت سورية ربيع	في جبين الدهر شاما
إنما حب بلادي	في فؤادي قد أقاما
حماك الله يا بلدي من كل مكروه.	



مسك الختام

من حيث إن حياتي الشخصية قد امتدت إلى مرحلة التقاعد، وضعتني مراقباً لأحداث وأمر يعايشها الصغير والكبير في هذه الأيام الصعبة بجلوها ومرها. ومن حيث إنها تختلف كلياً عن مرحلة الذكريات التي رسختها الأيام في النفوس عبر العقود الزمنية التي مرت.

وانطلاقاً من واجب المرء أن يتحسس آلام وأوجاع الآخرين ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم.

فقد رأيت قبل اختتام المذكرات، بأن أتناول موضوع الإحالة إلى التقاعد، بذكر قناعات شخصية، توصلت إليها نتيجة الدراسة المعمقة لطبيعة عيش بعض الناس الذين يشكلون شريحة كبيرة من أبناء المجتمع.

وأنه من قبيل الواقع الذي لا يدعو إلى الشك أن التقاعد في حد ذاته فراغ قاتل يدعو إلى إيجاد الطريقة الملائمة لتخرج منه، تلك الفئة التي لم يسعفها الحظ بوضع خطة لاستقبال مرحلة التقاعد.

وأحب هنا أن أهنئ - من صميم - قلبي أولئك الذين رسموا لأنفسهم هدفاً واضحاً يتمكنون من خلاله تحقيق الاستمرارية في العمل، وملء الفراغ بجد ونشاط في حياة جديدة أطلق عليها البعض أسم "مت قاعداً".

١- أذكر هنا على سبيل المثال وليس الحصر المجالات التي يمكن أن يطرقها المتقاعد خلال أوقات فراغه القاتل في ضوء إمكاناته المادية والمعنوية وهي:

- ممارسة العمل الحر في مجال التجارة أو الصناعة حسب الإمكانيات المادية.
- إجراء الدراسات الاقتصادية أو المالية أو الحقوقية كل في مجال اختصاصه.
- الدخول في ميدان التأليف الأدبي بمختلف المجالات طبقاً للمواهب الفردية في مجال الثقافة والأدب.
- المشاركة في حضور الاجتماعات واللقاءات العلمية والثقافية والتاريخية

بهدف تطوير الذات بالمعارف.

- إعادة ما تم قطعه من صلوات في المجال الاجتماعي.
- السفر بقصد السياحة والترفيه عن النفس قدر المستطاع وفق الإمكانيات المتاحة عندما تتاح الفرص.
- الاهتمام بالمطالعة ومتابعة حضور مجالات التطوير المختلفة.

ولن أسترسل أكثر من هذا الحد. وذلك امتثالاً للحكمة التي تتردد على

ألسنة العامة: "قم اسع يا عبدي وأنا أسعى معك".

٢- في حين إنني أدعو أولئك الذين التزموا الجدران الأربعة في ديارهم التطلع إلى ما يخرجهم من ديمومة الفراغ، وتجنب ما ينجم عنه من خلافات عائلية واجتماعية، تنعكس على حياتهم الشخصية وتسبب لهم الألم والاكتئاب الذاتي.

ونصيحتي هنا لهؤلاء ضرورة الابتعاد عن كل ما من شأنه أن ينعكس على حالتهم

الصحية التي هي أهم شيء في الوجود.

وأنا على ثقة تامة بأنه لا يمكن أن يقف أي عائق أمام الإرادة الصلبة.

والله من وراء القصد،،،

من ذاكرة الأيام

لمعالم وأعلام شرقية وغربية خالدة

محمد لطفي الغنام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

أعرف بأنني قطرة ماء في بحر أولئك.. عمالقة التاريخ، الذين قدّموا ثمرة عقولهم النيرة هدية كبيرة لا يعادلها شيء في الوجود، وكان لها الفضل الكبير في إضاءة الشعلة التي أنارت الطريق إلى حضارة زاهية تبهر العقول نشهدها ونقطف ثمارها، وتمتد آثارها إلى أبناء الجيل الصاعد.

بكل تواضع أقدّر عالياً جهودهم الخيرة من أجل رخاء البشرية، وتوسيع آفاق العلم والمعرفة وسير أغوار هذا الكون المذهل.

لكم يا جهاذة العلم والمعرفة في الشرق أو الغرب كل شكر وامتنان، وأدعو في الوقت نفسه أولئك الذين يتابعون دون كلل مسيرة البحث والعطاء لخير للبشرية جمعاء، الاستمرار بالنهج الذي رسمه أجدادنا الكرام لتفجير الطاقات الخفية التي يزخر بها هذا الكون العظيم.

محمد لطفي الغنام

اعتراف

لم يكن من مخططاتي أن أدون أية ذكريات عن حياتي الشخصية، ولكنني فكرت ملياً بالموضوع واستعرضته من جميع جوانبه؛ فوجدت أنه ليس ما يمنع من ذلك شريطة التركيز على نواحي أخرى، تخرج عن نطاق الذات، وتتناول في مضمونها إعطاء فكرة واضحة عن حقبة زمنية لم تتح الظروف أن يتم الاطلاع عليها، وهي في شموليتها تتناول جميع جوانب العيش المشترك.

من هذا المنطلق رأيت أن أتناول فيما ورد سابقاً أموراً خاصة لها مدلولاتها في الاستفادة من العبر والخبرات - إن وجدت - وأركز على أحداث عامة - إن لم أتمكن من إعطاء فكرة واضحة - تصبح مندثرة وخارج تاريخ جيلها.

واعتبر نفسي بأني قد نجحت إلى حد ما في تحقيق الفكرة بفضل تشجيع ومؤازرة أبنائي لي وترجمتها بما يملكونه من خبرة في نشر المعلومة، أن أصل إلى الهدف المنشود، وقد تم تخزين ما صدر عني من أفكار ومعلومات وتجارب على صفحة خاصة باسمي على الأنترنت يستقي منها القارئ ما يشاء براحة وأمان.

أذكر هنا وبشكل قاطع أنني كنت صادقاً مع نفسي أولاً، ولم أبالغ في القول، وبينت ما يجيش في صدري بشفافية تامة، ولا هدف لي إلا تسليط الضوء على أمور لو لم أفعل ما فعلته؛ لأصبحت في ذاكرة النسيان.

معدرة وألف معدرة لهذه الصراحة بالقول، لأنني لم أكن في الماضي من هواة الكتابة لتفرغي إلى مجابهة أعباء الحياة القاسية، التي مر بها جيل الثلاثينات والأربعينات بعدها انقشعت الغمة واختلقت الموازين.

لقد توخيت أن تكون هذه الومضات معبرة خير تعبير، وترسخ ما جاءت به من خبرات وتجارب إن وجدت أو أشرت إليها صراحة بالرأي.

إن جميع المعلومات والحوادث والطرائف مستقاة من مصادرها الموثقة من موسوعات علمية وأدبية وتاريخية واجتماعية، لذلك ليس هناك ما يدعو إلى الشك بها إطلاقاً، لأنها

من ينبوعها الأصلي.

وبالنسبة للقسم الأخير مما كتبت وأوردته أقول إني عبرت بكلمة نابغة من القلب عن
حي مدينة دمشق، ينبوع حياتي، وأخصها بجزء يسير مما تستحقه، واستشهدت بذلك ما
صدر عن محبيها قبلي.

وأحببت أيضاً - في غمرة التقدم العلمي الباهر - أن أعود إلى التذكير بأولئك الجهابذة
الذين كان لهم الفضل الأكبر في إرساء التقدم في سلم الحضارة.
والله من وراء القصد،،،

محمد لطفي الغنام

حب من القلب

لست الوحيد بهذا الكون الذي يحمل في أعماقه محبة عارمة للمدينة التي ولد فيها وله فيها ذكريات لا يمكن أن تزول لأنها تجري بدماء عروقه ما دام حياً.
مدينة "دمشق" كما قيل عنها الأرض المزهرة أو الحديثة الغناء هي أقدم مدينة في العالم ظلت عارمة نحو أربعة آلاف سنة وستظل بعونه تعالى عارمة أبد الدهر.
كتب عنها الكتاب والأدباء والشعراء منذ العصور القديمة إلى وقتنا الحالي، وقد قال عنها أحد المؤرخين: "دمشق في أوصافها جنة خلد رضية، أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانية؟".
فمن الواجب عليّ أن أخصها بجزء يسير مما تستحقه وأبدأ بأبيات من قصيدة ابن دمشق البار الشاعر نزار قباني تلك القصيدة:

فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا	فيا دمشق.. لماذا نبدأ العتبا
حببتي أنت فاستلقي كأغنية	على ذراعي ولا تستوضحي السببا
أنت النساء جميعاً ما من امرأة	أحببت بعدك إلا خلقتها كذبا
يا شام إن جراحي لا ضفاف لها	فامسحي عن جبني الحزن والتعبا
وأرجعيني إلى أسوار مدرستي	وأرجعي الخبر والطبشور والكتبا

وأردد هنا ما قاله الشاعر حافظ إبراهيم:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب	هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما	قلب الهلال عليها خافق يجب
جدران للضاد لم تنتهك ستورهما	ولا تحول عن مغناهما الأدب
أم اللغات غداة الفخر أمهما	وإن سألت عن الآباء فالعرب
في الشرق والغرب أنفاس مسعرة	تحفو إليك وأكباد بها لهب
كم غادة بربوع الشام باكية	أليف لها يرمي بها الطلب

وأكتفي بما قاله الشاعر إيليا أبو ماضي أهم شعراء المهجر:

لا تعجبوا من دهشتي وتحيري
وتعجبوا إن لم أكن متحيراً
خلع الزمان شبابه من أرضها
فهو اخضرار في السفوح وفي الذرى
أخذت من المدن العواصم مجده
وجلالها وحوت حلالات القرى

وهنا أكرر قول الأديب الكبير محمد كرد علي بهذا المجال:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفي لك مطربها بما وعدا
خل للإمام الذي عمت فواضله
شرقاً وغرباً فما نحصي لها عدد
الله ولاك عن علم خلافته
والله أعطاك ما لم يعطه أحداً
يمسي السحاب على جبالها فرقاً
ويصبح النبت في صحرائها بددا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئته
أو الربيع دنا من بعد ما بعدا
ما نسأل الله إلا أن تدوم لك الـ
—نعماء فينا وأن تبقي لنا أبداً

ومهما حاولت أن أكبح جماح نفسي في البحث عن أروع ما قيل بهذه المدينة الخالدة من الأدباء والشعراء أشعر بهالة ضخمة من روائع الوصف بعدد وافر من النصوص الشعرية والأدبية وقد قيل:

ما وضعت الجنة بشيء
إلا وفي دمشق مثاله
وأختم القول كمسك الحتام للشاعر نزار القباني حيث قال:
كتب الله أن تكون دمشقاً
بك يبدأ وينتهي التكوين

ب- أسماء مدينة دمشق

أطلق عليها المؤرخون والأدباء والشعراء ألقاباً أكثرها شهرة:
(الشام، الفيحاء، شام شريف، باب الكعبة، الياسمين، جلق، درة الشرق، شامة
الدنيا، جنة الخلد).

ج- أبواب مدينة دمشق الأثرية

كانت مدينة دمشق عبر العصور عرضة للغزو والغارات من الأعداء، لذلك أحيطت بسور عظيم من الحجارة يحميها من ويلات الدهر، وله منافذ موزعة في جميع أنحاء مدينة دمشق القديمة، فتحت فيها أبواب للدخول إليها بأمان وهي: (باب شرقي، باب توما، باب الجنيق، باب الفراديس، باب الفرج، باب السلام، باب الجابية، باب الصغير، باب الكيسان).

كما كانت فيها أبواب فرعية داخل الحارات القديمة وهي: (باب سريحة، باب زقاق البرغل، باب مصلى، بوابة الصاحية، بوابة الميدان).

د- معالم دمشق الأثرية

تزخر مدينة دمشق بمعالم أثرية هامة أكثر من أن تعد وتحصى، فيها مهد الحضارات الغابرة.

وأكتفى هنا بتعداد عناوينها على سبيل المثال وليس الحصر: الجوامع، الكنائس، الأديرة، أضرحة الأولياء، مقابر الصحابة، القصور، البيوت الدمشقية العميقة، دور العلم والثقافة، البيمارستان (المستشفيات)، المدارس والمعاهد التعليمية منارة العلم والمعرفة.

هـ- أنصبه رجال سورية الأبطال في الساحات العامة

- نصب صلاح الدين الأيوبي في مدخل قلعة دمشق
- نصب التلغراف في ساحة المرجة
- نصب يوسف العظمة في ساحة الشهداء
- نصب السيف الدمشقي في ساحة الأمويين، ساحة التحرير، ساحة العباسيين.

و- قصور دمشق وخاناتها وحماماتها

وهي غنية عن التعداد والتعريف وأكثر من أن تعد وتحصى وسبق أن تم التحدث عنها في المذكرات السابقة.

ولعل أهم ما تم التركيز عليه هو دار الإمارة التي شيدها معاوية بن أبي سفيان؛ لتكون مقراً له، والتي سميت الدار الخضراء (قبتها الخضراء)، وهو من أبرز المشاهد العمرانية، وبكل أسف لم تحفظ معالمه وزال من الوجود.

ز- الهودج

من دمشق ومن زقاق جوزة الحدباء " كانت تنطلق قوافل الحج والعمرة إلى الديار المقدسة من فندق الحرمين الشريفين في وسط الزقاق، حيث كان يتجمع فيه المسلمون من جميع البلدان المجاورة، وينطلق الهودج الذي يطلق عليه "موكب الحج الشامي".

ح- خاتمة

وأنتهى الكلام عن دمشق بما قاله المؤرخ "فيليب حتي" بأنها أروع أثر عربي في القرن الثامن عشر، ولعل ما يبهر الناظر قصورها الفخمة وأهمها "قصر العظم"، ومعالمها البارزة المتمثلة بقلعتها الخالدة، والجامع الأموي الكبير، وخاناتها وحماماتها، وكنائسها وأديرتها العريقة" وتبقى دمشق منارة الحضارة الإنسانية عبر العصور.

مظاهر منيرة لدمشق

تطالعنا الشاشة الصغيرة من وقت لآخر ببرامج تتناول إعطاء صور حية عن مهرجانات وألعاب تدخل البهجة والسرور في النفوس، وتتمثل في عروض لأمكنة متنقلة يطلق عليها أسماء مختلفة تتجول في جميع مدن العالم.

وقد واكبت مدينة دمشق هذه الظاهرة، واستقدمت في أوقات متعاقبة على مدار السنة فرقاً منها ليستمتع بعروضها المختلفة أبناء دمشق، ترويحاً عن أنفسهم من عناء التعب اليومي لفترة استجمام قصيرة.

١- المباريات الرياضية: حيث كان يتم استقدام فرق رياضية لألعاب كرة القدم، وكرة السلة، تجري مباريات ودية مع فرق نوادي دمشق المختلفة.

٢- مدينة الملاهي: حيث كانت تقام على أرض فسيحة يتم فيها تخصيص أماكن لبيع الألعاب المختلفة، وتنتشر في ساحاتها الألعاب المتنوعة للأطفال، وتقام على جوانبها المطاعم وباعة السندويتش والمرطبات والمشروبات، ويتم إجراء عمليات لليانصيب وعروض فولكلورية متنوعة، على مساح تنصب لهذه الغاية، إضافة إلى أنه يستغل بعض المواطنين هذه الظاهرة لعرض منتوجاتهم وبيعها كأهم في سوق تجاري.

٣- مباريات الملاكمة والمصارعة الحرة: حيث تستقدم فرق رياضية متخصصة بجمال الأجسام وقوة العضلات تظهر عنفوان الشباب.

يبدأ العرض بسير أبطال الملاكمة أمام المشاهدين مظهرين قوتهم الخارقة، يأتي بعدهم أبطال المصارعة الحرة، يظهرون ما تمتاز به أجسامهم من عضلات قوية، يكون في ختامها عرض لكمال الأجسام.

٤- السيرك: حيث يتم استقدام أحد السيركات العالمية، ويقدم عروضه المختلفة في صالات مغلقة يعرفها القاصي والداني، ولا تغيب عن ذهن أحد.

٥- لعب الموت: ولعل أهم ما تم مشاهدته في هذا السيل هو قيام سائقي الدراجات النارية بالسير بدراجاتهم على جدران أسطوانة خشبية متراصة بحركات تبهر الناظر، وتبعث

في نفسه خوف السقوط كلما زاد سرعته.

أما الألعاب المبهرة التي كانت تتم وهي الاستعراضات الرياضية على الحبال، والقيام
بألعاب بهلوانية في الفضاء، ومن ثم التمسك بالحبال دون أن يكون هناك شبك واق
للحماية.



تكامل أحياء دمشق

لم تكن هناك حدود فاصلة بين بعض أحياء دمشق عن بعضها، وبصورة خاصة حي زقاق الصخر، الذي كنت أظن فيه حيث يقع بشكل ملاصق تقريباً لحي سوق ساروجة القريب منه من الناحية الشرقية، ولا تفصل بينها أية حواجز سوى شارع الصالحية، وبذلك كانا يشكّلان تكاملاً عمرانياً مع اختلاف كلي في فن العمارة، الذي يجعل بينهما فارقاً ملموساً من الناحية التاريخية والعمرانية.

أبدأ بالحديث بأنه كان يمتد بين هذين الحيين بناء ضخّم، من شارع التجهيز حتى شارع الصالحية، بشكل مائل يتألف من ثلاثة طوابق، على نسق عمراي تركي، سقف من القرميد الأحمر، ومدخله يقع في بوابة الصالحية، وقد اتخذ مقراً للأركان العامة للجيش والقوات المسلحة، ودوائرها المختلفة، وإلى جانبه من الناحية الشمالية المجلس النيابي، ونادي الضباط العسكري، وقد تم هدمه وأزيل من الوجود، وأقيمت على أرضه الفسيحة أبنية حديثة.

وإن اتصال حي زقاق الصخر بحي سوق ساروجة جعله ملاذاً لسكان الحي، يتوجهون إليه دون أية مشقة؛ لقرب المسافة والترابط الاجتماعي بين العائلات. وأنه لو لم يتم انشاء شارع البحصّة - وهدم المنازل التي تقع على أطرافه وبشكل خاص حي الشالة برتمته، وحي العبيد، ومنازل أخرى لم يبق منها أي أثر - لكانا امتدادين متكاملين بين العرافة والحداثة، وأحب أن أبدأ حديثي قبل الكلام بحي سوق ساروجة بالتنويه إلى الضريح للرجل الصالح أحد أولياء الله الذي كان في مدخله على الشمال، واسمه الشيخ "عثمان" رحمه الله.

بني حي سوق ساروجة خارج سور مدينة دمشق، واحتل مكانة مرموقة في عهد الأمراء المملوكيين، وأصبح مجالاً للتنافس بينهم، فتسابقوا لبناء المنشآت فيه، وأشادوا المدارس والجوامع والحمامات التي ما زال الكثير منها قائماً حتى الآن، وكانت المدرسة الشامية البرانية أساساً لإنشائه، وأخذ بالاتساع حولها تدريجياً حتى أكتمل على النحو الذي بقي عليه

الآن.

ويتميز هذا الحي بسوقه الكبير، ومنازله الواسعة، وحماماته ومساجده الضخمة، واتخذ رجال الدولة العثمانية مركزاً لهم، وأطلق عليه اسم اسطنبول الكبرى، ويشكل هذا الحي مع ما يجاوره تكاملاً عمرانياً هاماً بالنسبة للتطور العمراني والتاريخي لمدينة دمشق. يتم الدخول إلى أحياء سوق ساروجة من بوابات هي: بوابة الصالحية، وبوابة عين الكرش، وبوابة البحصنة مروراً بجوزة الحدباء، أو من زقاق القرماني، ويعتبر حي سوق ساروجة حياً سكنياً متكاملًا، ضم الكثير من البيوت السكنية التقليدية، والبيوت الشامية العريقة وثلاث حمامات (الورد، الجورة، الخانجي) إضافة إلى حمام القرماني، وأفانق لأنواع مختلفة من الخبز، وجوامع وطاحونة، وعدد وفير من الأضرحة والترب (المدافن)، وعدد من المقاهي، وعدد وفير من المحلات التجارية، وباعة الأطعمة والحلويات.

ومن أهم القصور المشيدة فيه، حي قصر محمد علي العابد الذي أصبح قصرًا جمهورياً في زمن الرئيس محمد علي العابد، ومن ثم سكناً له، ومن ثم اشتراه أحد الدمشقيين سليم اليازجي، وحوله إلى مدرسة -الشهيرة بالمدرسة الأهلية- البيت الشامي، وتعود ملكيته إلى محمد فوزي العظم، المدرسة المرادية البرانية في منزل الشيخ مراد علي النجاري، مسجد الوزير (أمير دمشق)، دار اليوسف، والتربة النجمية، جامعة الورد).

حارة جوزة الحدباء: حيث تنتشر فيها محلات بيع "الأنتيكا" والشرقيات، وسميت تسمية هذه الحارة بجوزة الحدباء؛ لأنه كان يوجد فيها شجرة جوز كبيرة متحدبة، ولها أغصان مائلة في وسط الحارة، وكان سكانها يركبون الحناشير ليخرجوا منها، وكانوا يمشون تحت الشجرة حتى يعبروا بسلام.

أهل الخطوة

من القصص التراثية التي تداولتها الأجيال وتوارثتها جيلاً عن جيل لا يذكر الجيل الحالي عنها الشيء الكثير إلا ما قد يكون قد وصله عبر أحاديث الأجداد والجدات، ومنها

قصة سوق ساروجة في دمشق، وسبب تسميته بذلك.

حيث يحكي أن ولياً من أولياء الله كان يسكن هذا الحي وهو شخص صالح وهبه الله قدرات خارقة يتميز بها عن سائر البشر لورعه وتقواه، وكان هذا الولي من أهل الخطوة، وفي يوم من الأيام كانت أمه تطبخ أكلة يحبها "كبة لبنية" وكان موجوداً في الديار المقدسة يؤدي مناسك الحج، فنادته لوجود وصال بينهما عن بعد (قدرة التخاطب) طبخت لك اليوم كبة، فقال لها: إن شاء الله يا أمي أنا آت إليك وسأكل منها، وأخذ بعضاً منها لأطعم أصحابي في مكة، وما هي إلا لحظات وحضر الولي الصالح إلى الحي، وتناول نصيبه وعاد بها إلى مكة وهي ساخنة، ومن وقتها سمي هذا الحي "سار و إجا".

مظاهر هذا الحي في الأعياد

شكل هذا الحي مع جواره تكاملاً عمرانياً هاماً، ولم يكن بينها حدود يفصل بينها؛ لذلك كانت العلاقات وثيقة بين أهل المجاورة لها، حيث كانت تقام الزينات وتنتشر الألعاب (المراجيح، الدويجة، الترحلق، جميع الألعاب البسيطة) وتقام بسطات الباعة المتجولين من مأكولات ومشروبات.. الخ) وباعة الهدايا والألعاب، حيث ينتشر في الشوارع الأطفال المبتهجون من الصباح حتى المساء طيلة فترة العيد، ويغمرون بالبهجة والسرور، وتعتبر من قبيل الحلم لولا جوارها لهذا الحي العريق.

وعند هذا الحد أنهي الكلام عن الناحية العمرانية لمنطقة سكنية خارج سور مدينة دمشق.

ويمكن من خلال التجول في التوسع الغربي للحي مشاهدة مظاهر الأبنية الحديثة في أحياء أصبحت من نصيب ذوي الدخول الكبيرة التي تنعم بالرخاء.

الفيحاء بين القديم والحديث

رغم ما تعرضت له مدينة دمشق من غارات وحروب وويلات، فقد بقيت صامدة تزخر بما وهبها الله من جمال وروعة على وجه الأرض.

وما تردد دخولها من وصف إبداعي من قبل الأدباء والشعراء وعظام الرجال يخلق في أعماق السامع شعوراً يهفو إلى مشاهدة ذلك مشاهدة حية تطفئ لهيب الشوق المتأجج، للاستمتاع بجمالها الأخاذ.

وحمداً لله أنه حتى تاريخه تضم في أحياء المدينة القديمة قصوراً وبيوتاً بطابعها الشامي الأصيل وأمكنة أثرية خلدها التاريخ.

لذلك فإنه والحالة هذه ستبقى تلك الأمكنة محط الأنظار للأجيال الصاعدة، وتشد إليها أرجل كل من يصل إلى هذه المدينة العريقة.

إن هذا الاسترسال في وصف ربوع مدينة دمشق القديمة لا يحول دون التحدث عن التوسع العمراني الحديث، الذي كان في غاية الروعة والجمال، وأضفى على المدينة جمالاً لا يعادله جمال في الوجود.

وإنه رغم كون التنظيم العمراني الحديث لم يحدد شكلاً معيناً للأبنية، بل اقتصر على فرز الأمكنة للحدائق والساحات والأسواق التجارية، ومواقع أخرى لتقديم الخدمات إلى المواطنين.

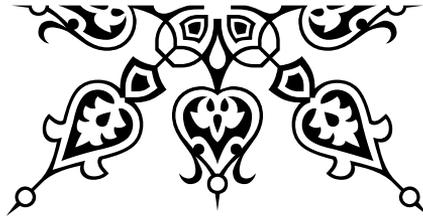
وإن أي جولة - سواء أكانت مشياً على الأقدام أو بواسطة نقل - يمكن استخلاص العفوية التي كانت وراء تنظيم يثلج الصدور.

إنني هنا أبدأ بإعطاء فكرة دقيقة عن بدء التوسع العمراني الجديد، حيث بدأ أولاً غرب حي السبكي وبساتينه الخيرة، حيث شيّدت الأبنية بعلو واحد (٣ طوابق) في حي أبي رمانة، ومن ثم التوسع غرباً فتناول حي المالكي، ثم انتقل التوسع الغربي ليظال أحياء المزة حيث أقيمت مدن في الناحية الشرقية والغربية، بينما تتمتع به من جمال يغنيها عن أي وصف لها.

ولم يقتصر التوسع على ناحية دون سواها، بل تناول أطراف المدينة في الناحية الشرقية حيث أقيمت أحياء سكنية، تميزت بجمال أخذ طالت بساتين الكزبري والعدوي والقابون وبرزة وبساتين وحقول جنوب حي الأكراد.

أما التوسع الفريد من نوعه فكان البناء لسفوح جبل قاسيون امتداداً من ساحة خورشيد حتى الصالحية حتى ساحة تشرين، حيث توزعت البيوت في جادات خمس تطل إطلالة بمنتهى الروعة على مدينة النور دمشق.

حماك الله يا دمشق من كل مكروه وأعاد إليك الأمن والبهجة والسرور أبد الدهر.



إشراقة أمل

أ- يتعرض المرء في مسيرة حياته إلى صدف لم يكن ليتوقعها إطلاقاً، ويمر عليها مرور الكرام دون أن يدري أنها ستكون في يوم من الأيام محور حديث أو تندر لأمر ما، أو في معرض استشهاد لحالة معينة.

وما دعاني إلى هذا التوضيح الدور الذي لعبه عامل الصدفة في إتاحة الفرصة أمامي لمشاهدة المعالم الحقيقية لدور دمشق القديمة والفن المعماري التي تميزت به.

منها كانت لدار شرقية في الميدان بحي الجزماتية، حيث دعيت إلى وليمة غداء **الأولى** أقامها أحد الأعيان ابتهاجاً لنجاح ولديه التوأمين في شهادة البكالوريا، تقع الدار في حي متواضع في مظهره، ولا يتم ظاهر الدار أنها بروعة لا تعادلها أية روعة في الجمال. في مدخل الدار على اليمين، كانت هناك قاعة جدرانها من الخشب، وبأشكال تزيينية حفرأ باليد، زينت الفوارغ فيها بمعرضات من المعروضات التي لا تقدر بثمن، وفي وسط القاعة بركة ماء صغيرة يتدفق منها الماء بنوفرة صغيرة، وأقيمت على جوانبها القواطع ومساندها، فرش عليها السجاد المخملي الأحمر والوسائد الجانبية. وعلى يسار المدخل كان هناك بركة ماء جانبية، عليها أصص نباتات الأزهار، وعلى جانبها وجدت أمكنة المنافع العامة، وأخرى للمغسلة.

وفي فسحة الدار التي كانت تضم في أعلاها غرف السكن، وفي الأسفل قاعات الجلوس والمطبخ والحمام، وفي صدرها الليوان، وقد زينت جدرانها بلوحات قرآنية لست بحاجة إلى تقديم وصف حيّ لروعة الأشجار ونباتات الأزهار وأغصان شجرة العنب التي غطت سماء الساحة، وحجبت نور الشمس المحرقة.

وكانت في زقاق المنفلوطي في حي سوق ساروجة في دار تقع قبالة جامع الورد، **الثانية** ولا يدل مظهرها الخارجي على كونها بجمال معماري جميل، لمواطن عادي من

أفراد المجتمع لا يتميز بثروة كبيرة.

دخلنا الدار وكان على جانب المدخل الفسيح إلى حد ما المزين على أرضه وجدرانها بمزروعات الورود وأشجار الياسمين، وعلى يمينه كانت هناك قاعة طويلة يُصعد إليها بدرجتين، جدرانها وسقفها مزين بلوحات زيتية مصورة لمناظر طبيعية خلابة، ويتم الجلوس فيها على المقاعد والأرائك والمساند المغطاة بأفخر السجاد.

أما على اليسار فكانت تمتد قاعة كبيرة، تتوسطها طاولة الطعام والكراسي على جانبيها، ومن مدخل يؤدي إلى فسحة الدار في الزاوية منها، وقد زينت جدرانها بلوحات زيتية لأكبر الرسامين، يصور بعض التجمعات حوله الولايم.

أما بالنسبة لفسحة الدار لغرفها العلوية، وما تحويه من مزروعات، فهي غنية عن الذكر، حيث كانت لا تقل روعة وجمالاً عن مثيلاتها في الدور المماثلة.

الثالثة فكانت منزل في حي القيمرية ضمن مجموعة من الدور تشكل في منظرها الخارجي وحدة لتجمع سكني.

وقد تم الدخول إلى الدار من ساحة كبيرة، توزعت على أطرافها من الجهات الثلاثة الشمالية والغربية والجنوبية دور السكن الشعبية، حيث حرص أهل هذا الحي الصغير على تزيين أطراف المنازل بأشجار ومزروعات متسلقة الجدران.

وفي الحقيقة فإنني قد دهشت حقاً لنموذج البناء الذي رأيته، حيث كان المدخل لا يتجاوز في طوله أكثر من ثلاثة أمتار، وقد أقيم على يمينه مكان لوضع الملابس الثقيلة والأغراض الشخصية، وقد تم تزيينه وتصميمه على نحو جميل.

ويؤدي المدخل إلى فناء الدار الواسع الذي يقع في صدره الليوان، وعلى جانبه غرف الجلوس والطعام، وفي الجانب الآخر كانت تقام أمكنة تحضير الأطعمة.

ولست بحاجة إلى التذليل على روعة التزيين التي اختص بها هذا المنزل الذي يعتبر بحجة من القصور الخفية.

ب- الأبنية الحديثة: لست بحاجة إلى الوصف وما يتميز به من روعة فائقة؛ لأن الجميع يعرفونها حق المعرفة، وقد تم فيها التباري في أعمال الديكور والتزيين لتكون آية في الروعة.

ولعل ما يغني عن القول هو التجوال في قرى الأسد وفيلات يعفور وغيرها ومشاهدة ما تتميز به دمشق الحديثة.

كما وأنه لا بد من الإشارة إلى ضاحية دمر السكني في جزرها المتعددة، وحدائقها وساحاتها وأسواقها.

ولابد من التذكير بأن أجمل وأروع مكان قضاء السهرات الجميلة تتم في ربوع هذه المنطقة التي انتشرت فيها المقاهي والمطاعم وصالات العرض، ومنتديات الأدب والموسيقى والغناء.

وأنتهي كلامي عن هذا الموضوع بأنه والحمد لله قد انتقل هذا الفن المعماري إلى ضاحية قدسيا والديماس، وقد أصبحا مماثلين بالروعة.

تمهيد توضيحي

اعتزني حالة من الحيرة لا حدود لها في تحديد المواضيع التي يجب أن أتطرق إليها خارج إطار الذكريات الخاصة.

وانطلاقاً من النهج الذي رسمته بأن يكون ما يتم التحدث عنه يتصف بالشمولية التي تهم الجميع، وعدم اقتصره على حوار عابر لا يلقي أي اهتمام سوى إلقائها في سلة المهملات، ودفنها في عالم النسيان، فكرت ملياً بالموضوع، ورجعت إلى الوراء، ووجدت أن الحياة زاخرة بما يمكن أن يكون مربط الفرس.

إن تاريخنا العربي وما يزخر به العالم العربي ليثبت وبشكل قاطع على إمكانية توسيع آفاق المعرفة وتثقيف الذات البشرية بمعلومات خارقة تبعث على الدهشة، وما كانت لتصل إلينا لولا الحماية والعناية الإلهية في حفظها؛ لتكون منارة مضيئة في حياة الشعوب.

إنني لم آت بشيء جديد، وأريد التحدث من قبيل "الفزلكة" لأن ما وقع اختياري عليه لا يحتاج الدفاع عنه:

إن ما سيتم التحدث عنه هو من المعلومات في المراحل الدراسية المختلفة، أو هي تتبع لما يعرض على الشاشة الصغيرة من معلومات ثقافية وتاريخية وعلمية وفنية، ولكنها ليست بالتأكيد بالعمق الذي يرد من خلال التحدث عنها الآن، حيث سنتناول شرح معلومات تفصيلية وخفايا لم تكن معروفة من قبل.

أؤكد هنا بكل صدق وشفافية أنها مستقاة من منابعها الصحيحة الموثوقة، ولا تدعو إطلاقاً إلى الشك بها. وهي في الوقت نفسه تنير أي استفسار من أولئك الذين شاهدوها بأم أعينهم، وتعزز النتائج التي توصلوا إليها من خلال الاستنتاجات الشخصية، وتقطع الشك باليقين.

لقد استعرضت ما يجب التركيز عليه حياً للفائدة العلمية، فوقع اختياري على المواضيع

التالية:

- من آثار العقول المذهلة في اكتشاف بعض أسرار الكون.

- لوحات فنية لأروع رسامي الفن التشكيلي الرفيع.
- ثمار البحوث التي قتلت أصحابها.
- عباقرة عالم الموسيقى العالمية.
- التذكير بأهم مدن العالم وتراثها الحضاري.



أ- من ثمار العقول المذهلة

في غمرة الحضارة المبهرة التي نعيشها هذه الأيام لا بد لنا من أن نذكر باعتزاز أولئك العلماء الكبار الذين كان لهم الفضل الكبير في إنارة الأفكار، وغرس حب البحث والتعمق في دراسة مكونات هذا الكون العظيم، واستخلاص كل مفيد في إنارة الأفكار، وتوسيع آفاق العلم والمعرفة، والوقوف على نتائج تذهل العقول، وتبرهن بشكل قاطع على عظمة الفكر البشري في تحليل أسرار هذا الكون وعظمة خالقه.

أبدأ الحديث عن نظريات علمية وطبيعية أذهلت العقول تتلخص بالتالي:

١- قاعدة أرخميدس

وتنص على أن الجسم المغمور كلياً أو جزئياً في مائع يكون مدفوعاً بقوة إلى أعلى، وهذه القوة تعادل وزن حجم المائع الذي يزيحه الجسم كلياً أو جزئياً على الترتيب. ولعله من المفيد أن يعرف المرء السبب الذي حدا بهذا العالم الفذ أن يقوم بهذه الدراسة، ويستخلص تلك النتائج المبهرة التي تذهل العقول. كان ملك "سيرموسة" قد كلف أحد الصائغين بصنع تاج له من الذهب الخالص، وشرع الصائغ بصنع التاج وانتهى منه، وسلمه إلى الملك، فشكَّ الملك في أمر الصائغ ظناً منه أنه قد غشَّه؛ فأسند إلى صديقه أرخميدس أمر الكشف عن صحة التاج.

وجد أرخميدس صعوبة في التحقق من الأمر، إذ لم يكن من المعروف في أيامه التحليل الكيميائي.

لعب القدر دوره مع أعظم علماء التاريخ، وكان أرخميدس في حوض الاستحمام العمومي، وإذ به يلاحظ أن الماء يرفع رجليه إلى الأعلى كلما دفع رجليه إلى الأسفل، وأن هناك قدرًا من الماء يزاح نتيجة لذلك.

انطلق أرخميدس بعد ذلك دون أن يرتدي ثيابه قائلاً: "وجدتها وجدتها" وتوجه إلى

بيته، وأخرج التاج ووضعه في الماء، -وكان وزنه قبل ذلك- ووضع في نفس الإناء كتلة من الذهب الخالص لها نفس وزن الجسم الأول، فلاحظ أرخميدس أن كتلة الماء المزاح في كتلة الذهب الخالص تختلف كلياً عن كتلة الماء المزاح الناتج عن وزن الذهب الخالص، وذلك لاختلاف دفع الماء على كلا الجسمين.

يعتبر أرخميدس أشهر علماء عصره، اخترع العجلات المسننة، والكرة المتحركة، واكتشف نظرية العتلة، حيث قيل إنه كان يعتقد أنه يمكن رفع الأرض إن وجد ما يُرتكز عليه.

٢- قانون الجذب العام لنيوتن

يعرف اختصاراً بأنه قانون استنباطي، ينص على أنه توجد قوة تجاذب بين أي جسمين في الكون، تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما وعكسياً مع مربع المسافة بين مركزيهما.

وتذكر الروايات المأثورة عن هذا الاكتشاف بأن إسحاق نيوتن كان يجلس تحت شجرة تفاح عندما سقطت تفاحة على رأسه، وجعل يتساءل عن السبب الذي جعل التفاحة تنجذب نحو الأرض في المقام الأول، ونشر نظريته عن قانون الجاذبية العالمي في أواخر القرن التاسع عشر، حيث تقوم النظرية التي أسست فكرة الجاذبية بأنها: قوة يمكن التنبؤ بها تؤثر على كل موجودات الكون.

ومن قبيل التندر بين بعض العلماء أنه يقيناً ما من شيء يرتفع إلا ويهبط ثانية، وربما في يوم من الأيام ستتمكن من معرفة سبب ذلك بالضبط، ولكن إلى أن يحين ذلك سنبقى مسرورين إذا عرفنا بأن كوكب الأرض لن ينجذب نحو الشمس في أي وقت قريب لأن الجاذبية تبقيه في مداره.

٣- دور العرب في هذا المضمار

ولابد هنا من القول والمؤكد في الموسوعات العلمية الموثوقة بأن علماء العرب قد وقفوا على الجاذبية الأرضية، ويمكن الاكتفاء بما جاء في كتابات الخازني: إن الأجسام الساقطة تنجذب نحو مركز الأرض وأن اختلاف قوة الجذب يرجع إلى المسافة بين الجسم الساقط وهذا المركز (كتاب ميزان الحكمة).

وتشير الكتب التاريخية إلى أن العرب كانوا قد عرفوا عن الجاذبية وتأثيرها، واكتشفوا قوة الثقالة الناشئة عن الأرض للأجسام، وأطلقوا عليها اسم "القوة الطبيعية".

٤- تجربة غاليليو

قام غاليليو بتجربته الشهيرة في بداية القرن السابع عشر، وتتلخص بأنه رمى كرات ذات كتل مختلفة من أعلى برج "بيزا"، وبيّن أن سرعة وصول الجسم للأرض لا يتعلق بكتلته. وقام لاحقاً بتجربة درجة الكرات على سطح مائل، واستنتج منها أن السبب الذي يؤدي إلى وصول الأجسام الأثقل للأرض قبل الأجسام الأخف في بعض الأحيان هو احتكاك الهواء في الغلاف الجوي بالجسم.

خاتمة

لولا عامل الصدفة التامة لما عثرت على هذه المعلومات القيمة التي أنارت طريق العلم والمعرفة، مما دفعني إلى تزويد الآخرين بها لأهميتها.

ب- روائع أهل الفن

١- فنيست فان جوخ

وراء الصور واللوحات دائماً توجد شخصية مبدعة كالفنان "فنيست فان جوخ" واحد من أكبر الفنانين البارزين في التاريخ، عاش تقلبات عديدة في حياته، انتهت بمصير مأسوي وعمره ٣٧ عاماً.

وقد أنتج خلال عشر سنوات قضاها في الرسم عدداً كبيراً من اللوحات، أشهرها: غرفة نوم، ليلة النجوم، المقهى الليلي.

وقد قال عن نفسه: "إن الوقت الوحيد الذي أحس فيه أنني حي هو عندما أرسم". ولد فان جوخ في "هولندا" وكان والده قس كنيسة هولندية وكان من المفروض أن يصبح في يوم من الأيام قساً في الكنيسة مثل والديه، ولكنه فشل في امتحان اللاهوت في مدينة أمستردام.

بدأ بالرسم وهو كبير في العمر، ورسم أول لوحة دون أن ينتظر إلى أحد ليعلمه، ولم ينظر إلى نفسه بأنه أصبح كبيراً بالعمر، وكما تناول أعماله الناجحة هي لوحة أكلة البطاطا، وقام برسم نفسه أكثر من ٢٠ مرة، اكتشف من خلالها مهارات جديدة، وتعتبر لوحته الأكثر شهرة تلك التي قام برسمها وهو في مشفى للأمراض العقلية "ليلة النجوم" حيث كان يعالج في فرنسا بسبب اضطراباته العصبية التي كان يعانيتها.

رسم هذه اللوحة للمنظر الذي تخيَّله خارج غرفته في المصحى، وكتب لأخيه في ذلك الوقت "الموت مثل رحلة إلى النجوم أن تموت بسلام كأن تذهب إلى هناك سيراً على الأقدام". وهذه اللوحة الخارقة موجودة الآن في متحف نيويورك للفن الحديث.

تعتبر أعماله الأكثر شهرة، والأعمال العديدة غير المشهورة في ١٠ أعوام قبل موته بشكل مفاجئ ومأسوي، حيث رسم ما يزيد عن ٩٠٠ لوحة، تعتبر من أعظم الأعمال، وبعد وفاته أصبحت لوحاته الأعلى في العالم والأكثر شهرة.

٢- معلومات عن ليوناردو دافنشي

كان فنانياً رائداً، وصاحب فكر في عصر النهضة الإيطالي، والذي عرف بأعماله الدائمة مثل لوحة: العشاء الأخير، أو لوحة الموناليزا.

أ- لوحة العشاء الأخير: تلك اللوحة المليئة بالغموض والأسرار، فقد أثير حولها الكثير من الجدل، والعديد من التساؤلات، وتعتبر من أهم أعمال الفنان الإيطالي دافنشي، وهي عبارة عن لوحة زيتية جدارية، على امتداد جدار حجرة الطعام داخل دير القديسة "ماريايليه جراتسية" في ميلانو بإيطاليا، تصور المسيح جالساً على المائدة مع ١٢ من حواريه بهيئة بشرية بسيطة، وتحكي هذه اللوحة مفاجأة السيد المسيح، بأنه ستم خيانتة قبل شروق الشمس، وتكشف بوضوح ردود فعل الحوارين التي كانت مزيجاً من الرعب والصدمة والغضب.

وتظهر إلى جانب المسيح نفسه الشخصية المحورية في اللوحة ليهودا المتآمر، وقد تعمد دافنشي رسم وجهه في الظل؛ بينما ظهر خلف يهودا مباشرة بطرس بلحية بيضاء ووجه غاضب؛ متحدثاً إلى يوحنا المعمدان، الذي يظهر بملامح أنثوية في نفس الوقت مائلاً برأسه ليستمع إلى بطرس.

وقد نجح دافنشي في تصوير الانفعالات على وجه الشخصيات بمنتهى الدقة، حيث نجح في تصوير تلك الواقعة التاريخية المهمة، وعمل فيها دافنشي ببطء شديد، حيث استغرق في رسمها ١٨ سنة، وتعتبر هذه اللوحة تحفة فنية بارزة في عالم الفن.

ويقال إن لوحة العشاء الأخير تحوي سر نهاية العالم عن طريق طوفان سيجتاح الأرض عام ٤٠٠٦.

ب- لوحة الموناليزا: كانت لوحة دافنشي الأكثر شهرة في العالم كله، وجاءت قصتها عندما قام القطاع الخاص بتكليف دافنشي برسمها، ولاقت اللوحة استحساناً هائلاً؛ لدرجة أن مؤرخي الفن قالوا عنها: "إن دافنشي من خلال لوحة الموناليزا حوّل الروح الإنسانية إلى عظمة ملكية".

وتعتبر هذه اللوحة صورة للجيوكوندا، وهي زوجة لتاجر، ولم يتأكد ذلك كغير ذلك من الأقوال، ومن المؤكد أن الموناليزا بالنسبة لدافنشي عمل لا ينتهي بسبب محاولته الدائمة في الوصول إلى الكمال، ولم يقم بتسليم اللوحة أبداً إلى طالب، صنعها وأبقاها معه حتى نهاية حياته.

وتوجد هذه اللوحة معلقة في متحف اللوفر في باريس محفوظة وراء زجاج مضاد للرصاص، وتعتبر ثروة وطنية لا تقدر بثمن.

ج- لفنان رامبرانت: تم مؤخراً في لندن عرض لوحات الفنان الهولندي "زامبرانت" وذلك خلال شهر آذار ٢٠١٥ واعتبرت بحق لوحته الشهيرة عن الزوجين "إسحاق وروبيكا" أهم لوحات المعرض، وأكثرها غموضاً؛ لكونها تعبر عن اندماج الحب الروحي والجسدي. وقد رسمها رامبرانت خلال عشرة أيام بناء على طلب شخص أراد أن تكون تذكراً لحفل زواجه، ومع الوقت اكتسبت هذه اللوحة شهرة كبيرة باعتبارها رمزاً للعاطفة القوية التي كانت تربط بين رجل وامرأة، وقد بلغت شهرتها بأن قال الفنان العبقرى "فان كوخ" عندما شاهدها للمرة الأولى: "إنه مستعد للتنازل عن عشر سنوات من عمره مقابل أن يقف أمام هذه اللوحة عشرة أيام، كي يتملى من جمالها ويتمعن من تفاصيلها وألوانها". وفي هذه اللوحة يظهر رجل وهو يرتب على صدره وكتفه عروسه الشابة في لمسة نفيضة بالإحساس والعواطف المتأججة.

ج- ثمار قتلت أصحابها

١- العالمة الكبيرة ماري كوري، اكتشفت البولونيوم والراديوم فقضيا عليها، وتعتبر أشهر امرأة اقتحمت ميدان العلوم، وسطرت اسمها في سجلات التاريخ جنباً إلى جنب مع علماء القرن العشرين، الذين أحدثوا ثورة في مجال الطب، وهي القائلة: "إنني لا أرى أبداً ما تم إنجازه، بل أرى ما لم يتم إنجازه بعد" وقد حصلت على جائزة نوبل مرتين في ميدانين مختلفين، وكان لاكتشافاتها فضل كبير في معالجة الأورام السرطانية، واكتشفت عنصرين كيميائيين هما البولونيوم والراديوم، وأجريت تحت إشرافها أول دراسات لمعالجة الأورام باستخدام النظائر المشعة.

توفيت " كوري " نتيجة لاكتشافاتها وعدم معرفتها للآثار الضارة للإشعاع الذي أصابها بفقر الدم ورحلت على أثره.

٢- وليام بولوك: يعتبر المخترع الأمريكي وليام من أشهر العلماء الذين قدموا طفرة كبيرة في مجال الطباعة، ووضع أسس ماكينة الطباعة الدوارة التي تستخدم الآن، ووضع عليها تحسينات مختلفة جعلتها أكثر سرعة وكفاءة، مما أدى إلى إحداث ثورة في صناعة الطباعة، وبعد سنوات قليلة من اختراعه توفي بولوك بسبب إحدى الطابعات التي اخترعها أثناء إجراء تعديلات على إحدى المطابع الجديدة التي كان يقوم بتركيبها؛ حيث علقت قدمه بحزام القيادة الخاص بالطباعة، وسحقت ساقه؛ فأصيب بالغرغرينا بعد بضعة أيام، ثم مات أثناء بتر ساقه.

٣- الكسندر بوجدانوف: ويعود إلى هذا العالم الفضل الكبير في وضع بذور علم نقل الدم، الذي يعتبر من أهم العلوم الطبية، ساعياً بالشباب الأبدي الدائم، وبعد أكثر من عملية نقل دم كامل أجراها بوجدانوف على نفسه، لاحظ تحسن بصره وإرجاء الصلع وغيرها من الأعراض الإيجابية.

ولكن وللأسف فقد نقل لنفسه دمًا ملوثًا بالمalaria والسل، وهو ما أودى بحياته بعد وقت قصير من إجراء العملية، وعزي ذلك إلى أن إجراء عملياته الأخيرة لم يختبر بها سلامة الدم الذي استخدمه.



د- فن الموسيقى

سبق أن ذكرت في معرض ذكرياتي السابقة لمحة مختصرة عن عالم الفن والموسيقى والأدب والفلسفة الفارابي وبينت قصة طريفة خلدت عظمته في مجال التلحين الموسيقي. وهنا أعرج لأتناول الحديث باختصار شديد عن علماء جهابذة الفن والموسيقى والتلحين والإبداع، وهما: موتسارت، و بيتهوفن.

١- موتسارت: مؤلف موسيقى نمساوي، يعتبر من أشهر العباقرة المبدعين في تاريخ الموسيقى، رغم أن حياته كانت قصيرة لم تتجاوز الـ ٣٥ عاماً، أنتج خلالها ٦٣٦ مقطوعة موسيقية، وصفت بأنها أروع ما أبدعته قريحة الإنسان لموسيقى كلاسيكية هادئة. لقد ذكر في سيرته الذاتية أنه كان فناناً عبقرياً، كتب اسمه في تاريخ الموسيقى والفن، يملك نهجاً خاصاً به في موضوع التأليف الموسيقي، وتقديمه إلى العالم بأسلوب فريد من نوعه.

ظهرت عبقرية موزارت في مجال العزف على جميع أنواع الآلات الموسيقية ببراعة متناهية، لا حدود لها، أبهرت كل من سمعها. كما كانت "الأوبريت" الخاصة به ناجحة، فيها العديد من الأغاني، وتجلى ذلك "بأوبريتاته" الهزلية الثلاثة في حياته، مما جعله بحق قطعة نادرة وعملاً فنياً ثميناً بنظر المؤرخين.

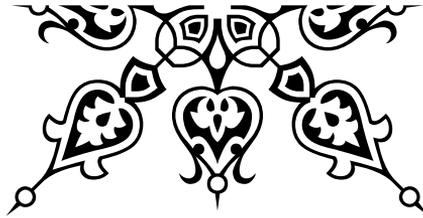
٢- بيتهوفن: يعتبر بيتهوفن من عظماء الموسيقيين الكلاسيكيين في العالم، وأحد أبرز الملحنين في علم الموسيقى، وهم: "باخ وبراحسن" وكان تأثيره بهذا الفن على الجيل الصاعد عميقاً وكبيراً، وشكّل نقطة تحول بين الموسيقى الكلاسيكية والموسيقى الرومانسية. ويقال في هذا الصدد: إن اللوحة الذهبية فوجاير التي أرسلت إلى الفضاء الخارجي احتوت على تسجيلات موسيقية من تأليفه.

وقد برع بيتهوفن في التأليف الموسيقي، وقد أصيب في أواخر حياته بالصمم، ولم يمنعه

ذلك عن الإبداع، حتى إنه كتب في هذه الفترة أفضل أعماله الموسيقية، التي اعتبرت اليوم من أهم ما أنتج من الموسيقى الكلاسيكية العالمية.

وتقول المصادر التاريخ عنه: إنه كان لديه اعتزاز بنفسه، قوي الشخصية، يتحكم بالعزف كما يريد إذا ما بدا له أن مستمعيه لا يولونه الاهتمام الكافي، ويتصرف على طبيعته في جميع الأحوال.

وخلاصة القول: إن بيتهوفن من ألمعي عصره بفن الموسيقى، وترك آثاراً خالدة في الألحان الموسيقية المعاصرة.



هـ- مدن الأحلام أمكنة من الذاكرة

أحب قبل إنهاء ما طرحته في هذه التضحيات، أن أسرد بصدق واقع حالة تعتبر من عالم الخيال، لقد كانت أول رحلة لي إلى باريز عن طريق روما، حيث أقمت فيها ليلة أتاحت لي القيام بجولة ليلية لمعلمها المدهشة، وعند "بركة الأماني" طلب الدليل السياحي أن يضم السائح أمنية، ويلقي قطعة نقدية معدنية على نية تحقيقها، عسى أن يتسم الحظ له وبذلك تتحقق أمانيه، وفعلاً قمت بذلك وكانت أميبي الوحيدة أن يكتب إلى مشاهدة روائع ملك الله، وقد استجاب الخالق، وشاهدت أجمل المدن التي سأذكرها:

بودابست
تقع على جانبي نهر الدانوب الأزرق، وتعتبر المركز السياسي والصناعي والاقتصادي لبلاد المجر، وهي من أكبر مدن الاتحاد الأوروبي وأكثرها عراقية، حيث يمتاز تاريخها بالمزيج بين حضارة الشرق وحضارة الغرب، وتظهر فيها بوضوح طراز الحضارة الشرقية المتمثلة ببناء تصميم أغلب بيوت المدينة بفن معماري عربي أصيل. وتمتاز هذه المدينة بجمالها الرائع، وأطلق عليها باريز الصغرى، لما فيها من معالم أثرية وجمال روحي لعشاق الفن، وبالأخص عشاق الموسيقى وأصحاب الذوق الرفيع. وحري بكل زائر لهذه المدينة العريقة أن يقوم بجولة نهرية في أمسية تحت أضواء القمر يستمتع بمشاهدة قصورها ومبانيها، ذات الفن المعماري الرفيع، المنتشرة على ضفتي نهر الدانوب الشرقي والغربي.

فيينا
عاصمة النمسا وتعتبر أفضل مدينة بالعالم للعيش، وقد سحرت الزائرين وجذبهم لتقدم لهم مزيجاً فريداً مثيراً من الترفيه والإبداع والفن والحداثة. وتشتهر هذه المدينة بتراثها الإمبراطوري الذي يتمثل بصورها الشامخة، وصلات الموسيقى التي تتمتع بأرفع مستويات العالم الموسيقية، ومتاحفها ومشاهدة ما يزر به من مقاهي ومطاعم، تحمل أعرق التقاليد المتوارثة عن الأجيال في القرون السابقة.

وأوصح كل زائر لهذه المدينة العريقة أن يستمتع بمشاهدة دار الأوبرا ومتحف الفنون الجميلة ومتحف الشمع الشهير "مدام تيسود" على أن يتم ذكرى بالخير عندما يتم التمتع باحتساء كأس من الشوكولاتة الساخنة وقطعة من كعكة فينيا المشهورة.

واللقب الذي تشتهر به هو "مدينة النور" وتمتلك هذه المدينة أربعة مواقع من **باريز** التراث العالمي، وتضم العديد من المتاحف أهمها: "متحف اللوفر" وعدداً من الكاتدرائيات أهمها: "كاتدرائية نوتردام دوباريز" وفيها قوس النصر العظيم الذي يخلد انتصارات فرنسا، ويرتفع برج إيفل أشهر معالم المدينة على الإطلاق، والعديد من الكنائس أهمها: "كنيسة القلب المقدس" وعدد من أضرحة مقابر العظماء أهمها: "البانيتون والانفاليد" دار الأوبرا العريقة في بنائها الأسطوري الشامخ، شبكة مترو الأنفاق الذي يربط مناطق باريز ببعضها، وغاباتها الجميلة أهمها: "غابة بولونيا وغابة فانسن" والعديد من القصور الشاهخة التي اتخذ بعضها قصرًا رسمياً للسلطات الفرنسية "قصر الإليزيه، قصر الجمعية الوطنية الفرنسية، قصر لوكسمبورغ الصغير، قصر مجلس الشيوخ" وأمكنة أخرى تبهر الأبواب أكثر من أن تعد وتحصى، ولا بد من الإشارة إلى أنه تعد "ديزني لاند باريس" وجهة سياحية رئيسية في أوروبا تغني مشاهدتها تحمل مشقة السفر لرؤيتها في أمريكا.

ومما لا يمكن إنكاره إطلاقاً أن مدينة باريز مركز إشعاع حضاري وثقافي وفني وتعليمي لا مثيل له على الإطلاق، يشجع على زيارة هذه المدينة المتألقة والقيام بجولة نهرية في أحد مراكب نهر السين العظيم، لمشاهدة ما تزخر به من نفائس.

هي إحدى المدن المغربية المشهورة، وتتميز بموقعها الجميل الذي تحيط به التلال من **فاس** كل جانب، وتتكون من قسمين: فاس البالي، وهي المدينة القديمة، وفاس الجديدة التي بنيت في القرن الثالث عشر.

تعتبر مدينة فاس من المدن الرومانسية في العالم (باريز، برشلونة، كوتو اليابانية،

جايور الهندية، لشبونة البرتغالية، مونتي كارلو، فينيسيا الإيطالية).

شهدت مدينة فاس تطوراً عمرانياً واقتصادياً بلغ ذروته في عهد الموحدين، حيث تحول مسجد القرويين إلى جامعة ومركز للتيارات الفكرية والدينية والثقافية. وأهم معالمها السياحية: القصر الملكي، قصر النجوم، جامع القرويين، متحف الفنون والحرف الخشبية، والمدرسة بوعدانية، وباب أبي الجنود، ومتحف دار البطحاء.

وعند التجول في أسواقها القديمة، فتشعر وكأنك في مدينة دمشق القديمة بأسواقها المسقوفة ومحلات الأتيكا والمصنوعات اليدوية، وصناعة حفر وتزيين النحاس والسيوف، وحماتها الشعبية، وأزقتها الضيقة، وشوارعها المرصوفة بالحجارة، ويجب ألا يغيب عن البال تذوق جميع أنواع الأطعمة بمذاقها الذي يفتح شهية الأكل.

تتميز بطبيعتها الجبلية، حيث تمتد على مساحة واسعة من نصفها الشمالي **سلوفاكيا** جبال كرباتيا من بينها جبال تاترا التي تشتهر بمناطق التزلج والعديد من البحيرات والوديان ذات الطبيعة الخلابة.

تتمتع سلوفاكيا بجمال طبيعي له مذاقه الخاص للسياح والمرضى، الذين يتوافدون عليها من مختلف بلدان العالم للاستشفاء والعلاج الطبيعي، وإعادة التأهيل. وقد أتاحت لنا أثناء زيارتها، مشاهدة معالمها، ونحن نصعد بالتلفريك للقيام بجولة في مغارات جبل تاترا، حيث شاهدنا غاباتها بأشجارها الباسقة التي تشكل لها ضراماً يحميها من جميع المؤثرات الطبيعية، واستمتعنا برؤية بحيرتها التي تزخر على ضفافها بالمقاهي والمطاعم وأماكن اللهو والتسلية.

قمنا بجولة في مغارة خلّت نفسي وكأنني في مغارة جعيتا بجبل لبنان، حيث تتدلى فيها وعلى جدرانها الصواعد والنوازل، ويتدفق الماء في مسارات كأنه نهر جار، أمضينا أمسية حلوة في أحد مطاعمها، تذوقنا طعاماً لذيذاً له مذاقه الخاص، وسمعنا أعذب الألحان الموسيقية التي تهدئ النفس لأشهر الموسيقيين العالميين.

المدينة العائمة التي تبهر العالم، وهم عاصمة مقاطعة فينيسيا وتطل على البحر. **البندقية**

ويمكن لزيارتها التنقل والسير في الشوارع، وركوب القوارب، وعبور الجسور، وتعتبر هذه المدينة واحدة من المدن الأكثر تفرداً في العالم.

من أهم معالمها: قصر دوجي، مسرح لافينييسي، جسر رياتو، كنيسة فيراري، الترسانة الفيسينية، ميدان سان ماركو، كنيسة جورجيو.

خاتمة

كثيراً ما يتم التحدث عن أهم المدن العالمية وما تتميز به من معالم، وانطلاقاً من هدي البعيد من تقديم وصف حي لبعض الأماكن التي شاءت الظروف أن أقوم بزيارتها، وهو أن يكون رائد كل سائح التركيز على كل مفيد، ويكون عاملاً هاماً لزراعة ذكريات تنسي هموم الحياة وقسوتها.

أختم كلامي أنه ما أروع هذا الكون وما فيه من عجائب! تبهر العقول، وإذا أحب الله عبده أطلعه على ملكه، وإن ما أوردته مشاهدات حية موثقة قولاً وفعلاً وليس نقلاً. ومما لمست من عادات سائدة لدى الأوروبيين عامة، هو تمضية العطلة السنوية في أماكن سياحية هامة في العالم للراحة والاستجمام.

وحبذا لو تتمثل بهم لأن التمثل بالكرام فلاح.

طبتم عمراً

صور طواها الزمن

تحدثت سابقاً وبشكل حقيقي عن واقع الحياة التي عاشتها أجيال سابقة في ظل واقع أصبح في عالم الزوال، ولم تبق منه سوى الذكريات في نفوس من عايشها، وقد أصبحوا قلة، وبذهاهم تطوى صفحات مؤثرة لا يمكن معرفتها، وتصبح من ذاكرة التاريخ. قد تشاء الظروف أن يرد ذكرها ضمن مخطوطات أو أحاديث وقصص متبادلة بين العائلات، تمر مرور الكرام، دون أن تترك أي أثر في النفوس.

وأمام ظاهرة انتشرت مؤخراً، أقام بعض الكتاب والأدباء والرواة بتدوين مخطوطات ونشرات وكتب بأسماء مختلفة، تناولت جانباً هاماً عن واقع الحياة الماضية، تعطي القارئ صورة خيالية لأمكنة حدوثها وواقع الحياة فيها.

ولكيلا يبقى ما قلته دون دليل، فإنني أعود إلى الماضي وأبين أن مدينة دمشق القديمة (أذكرها تعداداً على سبيل المثال وهي شاهد حي على ما أقول): حي الميدان، حي الشاغور، حي الأمين، حي باب توما، القصاع، القيمرية، العمارة، حي المناخلية، وما بقي من حي سوق ساروجه.. ما زالت حمداً لله محافظة على طابعها الأصيل ونسيجها العمراني الفريد. وفي الوقت نفسه أبيت أمكنة أخرى تناولها الهدم العشوائي، لا تقل أهمية عن غيرها من حيث أسلوب العمارة والروعة وأخص بالذكر: بناء جسر الثورة، شارع الثورة، شارع الحمراء، فقد أزيلت أحياء قديمة غنية بتراثها، والدليل على ذلك اختيار ما تبقى منها مواقع أثرية محمية تشاهدها الأجيال الصاعدة.

ولعل أهم ما يحزن القلب ولا أجد تفسيراً وسبباً للقضاء على معالم دمشق الحضارية، لأنه يبقى دليلاً على مواكبة مدينة دمشق للتطور، حيث أقيم في زمن يعود إلى قرن مضى، وربط جميع أحياء مدينة دمشق القديمة والحديثة ببعضها، ومدينة دمشق بريفها، في الغوطة الشرقية، فكانت شبكته تمتد من بوابة الميدان حتى ساحة خورشيد في نهاية المهاجرين، تتفرع الشبكة في ساحة المرجة لتغذي أحياء الصالحية والعمارة، وباب توما والقصاع، وفي نهاية الخط تتابع شبكته سيرها من مخطط القابون إلى قرى الغوطة الشرقية في جوبر وعربين وزملكا

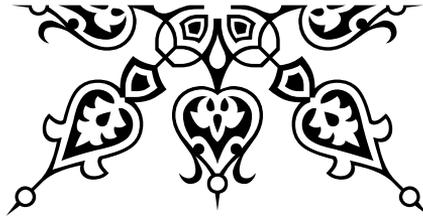
وحرستا حتى مدينة دمشق.

وليس هناك أي مبرر أو حجة لإزالته في بداية العقد السادس لأن شوارعه وخطوط

سيره ما زالت قائمة حتى تاريخه.

وإن نظرة شاملة إلى بعض المدن القريبة المجاورة أو الأوروبية؛ فإنه حتى تاريخه يحتفظ

بهذا النوع من وسائل النقل مع تطويره بما يساير طبيعة المرحلة.



معلومات مهنية

لم يكن بودي إطلاقاً يتحدث مجدداً عن مرحلة مرتت بها في حياتي المهنية، ولكن في معرض الذكريات تتوارد بعض الحوادث تستدعي -لغرابتها وخروجها عن المألوف- التطرق إليها.

مع بدايات عهد الحرية، عادت مرافق الخدمات إلى أيدي الدولة الشرعية، حيث إنهما كانت تحت إشراف وإدارة المحتل الغاشم.

وفي الحقيقة يمكن القول إنه لم يكن هناك خدمات فعلية سوى البريد، في حين إن خدمتي البرق والهاتف كأهمهما مسيرتين قولاً وفعلاً لخدمة المحتل في جميع أنحاء البلاد. استلمت الإدارة السورية شبكات هوائية تؤمن اتصالات بين المدن والريف بأسلوب يكاد أن يكون بدايياً مع ما كان سائداً في العالم المتطور.

ومن هذا المنظور اتجهت الأنظار نحو إدخال الخدمة الآلية بدلاً عن تلك التي كانت تؤدي الخدمات من مقاسم يدوية أو نصف آلية.

كما تم تطوير خدمة البرق لتصبح عن طريق المورس وجعلها تدريجياً مساهمة للتقدم العلمي.

أبدأ بالتحدث عن الهاتف الآلي، ولا أخفي سرّاً إذا قلت: إنه لم يلق ما يجب أن يلقاه من اهتمام؛ لأن كل متطلباته الأساسية -بفضل الله- كانت ميسرة إلى أبعد الحدود. كانت البدايات أن يتم تغذية مدينة دمشق في أواخر عقد الأربعينات بعشرة آلاف خط هاتفية لمدينة عريقة كدمشق الفيحاء.

رغم أن الكم لم يكن بالمقدار الذي يغطي جميع المتطلبات الآنية والمستقبلية على السواء فإنه وللأسف الشديد كان موضع نقاش حاد بين أعضاء المجلس النيابي حيث استبعد الكثير منهم هذا العدد، واعتبره البعض نوعاً من البذخ والسرف، وآخر لإرضاء أصحاب الإمكانيات المادية الكبيرة دون أن يكون المنطق في المناقشة الواقع الاجتماعي والصناعي والتجاري، واتساع ميدان تبادل الخدمات بين المواطنين.

تمت الموافقة على مضض، ولم تمر مدة وجيزة على وضعه في الخدمة حتى نفذت الخطوط برمتها، ودخلت المدينة بأزمة هاتفية عانت منها خلال العقود التالية رغم التوسعات التي جاءت في محاولة للتغلب عليها، ولكن للأسف الشديد أصبح الهاتف في مرحلة من عمره سلعة تخضع للعرض والطلب عانت من ويلاتهما جميع فئات الشعب.

مرحلة التطور

انطلاقاً من الرغبة الصادقة في تكوين الجهاز (الكادر) الفني القادر على القيام بعملية التشغيل والصيانة للتجهيزات القائمة بأيدي وطنية، وبخبرة عالية، فقد تم إبرام اتفاقية تعاون فني مع الإدارة الألمانية في مطلع عقد الستينات، تقضي بإحداث مدرسة للاتصالات بمعونة ألمانية لتأهيل الكوادر لمختلف أقسام الاتصالات.

وفي الحقيقة المفرحة أنها كانت نواة لجهة متخصصة في إعداد الجهاز الفني على مستوى عال من الخبرة والمهارة.

وأذكر هنا بأن ما تم تخريجه من أفواج فنية متخصصة قد غطت المتطلبات الأساسية لما تم ادخاله من خدمات متطورة، وكانت عاملاً فعالاً للاستغناء عن الخبرات الأجنبية التي كانت في حدود ضيقة جداً في مرحلة التأسيس.

طبيعة الخدمات

استمرت خدمات الاتصالات السلكية واللاسلكية في بلدنا الحبيب على مستوى كبير من الأداء، ولكنها لم تكن بالكم الذي تغطي جميع جوانب متطلبات الحياة، واقتصرت ضمن حدود سمحت بها السيولة النقدية، لأن سورية لم تقبل إطلاقاً أن تكون تحت رحمة أحد في تقديم الخدمات الأساسية إلى مواطنيها.

لقد نعمت سورية بشبكة اتصالات سلكية ولاسلكية، انتشرت في جميع أنحاء البلاد

وبشكل مقبول من جميع النواحي، وأخرى ربطتها مع بلدان العالم أجمع ضمن الحدود التي سمحت بها إمكاناتها المادية الذاتية.

اعتراف

من أجل الحقيقة فقط أقول وبكل صدق: إن التوجه في التطوير والتحديث في ميدان الاتصالات، ومواكبة التقدم التقني فيه قد كان موضع الاهتمام البالغ بمختلف المستويات. وعلى سبيل الذكر فإن إدارة الاتصالات السورية كانت سبّاقة لأية إدارة اتصالات إقليمية لإدخال خدمة الهاتف الخليوي.

وقد أعدت الدراسات القيمة، واختارت أفضل النظم، ووضعت المواصفات الفنية، وأجرت دراسات للجدوى الاقتصادية لهذا المشروع الهام، وحددت جميع متطلباته على نحو يثير اللفتة نحو تحقيقه؛ لشموليته في تغطية أماكن يصعب تخديمها بالخدمات القائمة. ولكن وللأسف الشديد ولاعتبارات مادية بحثة تطلبتها خدمات أخرى تسبقه في سلم الأولويات، تأخر تنفيذه وما قلته بهذا الصدد يتسم بشفافية بالغة لكوني مشاركاً في مراحل المختلفة.

قصة من الحياة

أحب أن أسرد على مسمعكم قصة حقيقية من حياتنا المعاصرة، تحمل في طياتها كثيراً من المعاني، تعطي انطباعاتاً بأن الدنيا ما زالت بخير والحمد لله.

في معرض حديث جانبي مع أحد زملائي في العمل اقترحت عليه أن يكتب في الجمعية التعاونية للعاملين في المؤسسة؛ ليحصل على ملكية دار للسكن؛ فأجابني أنه والحمد لله قد أنعم عليه من حيث لا يدري بملكية عقار سكني في أحياء دمشق، هبة من السماء، ويتلخص الموضوع بأنه استأجر داراً في أحد الأحياء الشعبية ملاصقة لدار يقطنها أحد أساتذته الكرام الذي كان له فضل كبير في إرساء حب العلم والمعرفة في نفسه، وكان شخصاً متميزاً بأخلاقه الرفيعة، وبشخصيته المتواضعة كان يحب العزلة والوجدانية، ويقضي جل وقته في المطالعة وعزف الموسيقى على الكمان.

نشأت من خلال الزيارات المتكررة صداقة أثمرت بأن يتولى الزميل موضوع رعايته والاهتمام بشؤونه المختلفة؛ لأنه أصبح وحيداً بعد وفاة زوجته ولم يرزق بأبناء.

أخذت امرأة (الزميل) مع ابنته موضوع الاهتمام بجميع شؤونه المنزلية مأخذ الجد، خاصة وأن وجوده في الفترة الصباحية التي كان يقضيها مع زملائه في مقهى البرازيل إلى ما بعد الظهر، حيث كان يجد طعام الغداء جاهزاً، ولم يصدر عن زوجته وابنه أي انزعاج من هذا العمل الإنساني الكبير؛ لفرد من أفراد المجتمع يستحق التكريم لخدماته الجليلة في إعداد الأجيال ونشر العلوم والمعارف.

وأسرّ لي زميلي بأنه في معرض أحاديث تبادلها مع المرابي الكبير استفسر منه عما إذا كان ما يقوم به هو من قبيل الشفقة أو الرحمة؟ فرد عليه: بأنه قام بالامتثال للأثر "من علمني حرفاً كنت له عبداً"، وأن ما يتم تقديمه هو في الحدود الدنيا لما يجب أن يكون عليه. واستمر الأمر على هذا المنوال طيلة حياة المرابي التي كانت موزعة بين دمشق وبلودان، ففي دمشق خلال فصلي الشتاء والربيع.

في أحد الأيام فوجئ زميلي بقيام المرابي الكبير بتسليمه مظلوماً مغلقاً بإحكام وطلب

إليه الاحتفاظ به على أن يقوم بفتحه بعد مواراة المرابي الثري وانتقاله إلى رحمته تعالى.
وعندما قام زميلي بفتح المظروف وجد سند ملكية لدار سكن المرابي باسمه عرفاناً
بالجميل ولم يكن يدري بذلك قبلاً.

أقوال مأثورة

لقد حفل تاريخ الشعوب بأقوال وأمثال في شتى المجالات لتكون سبيلاً لنهل الخبرة
والاستفادة من ثمرات الآخرين.

ولعمق المغزى الذي حملته، ودورها في البناء الاجتماعي الصحيح؛ فقد سطر الكثير
منها بمداد من الذهب، وقد جاءت المذكرات على بعض منها. وأحب هنا التذكير ببعضها:
قول الرسول الكريم محمد ﷺ في الصداقة: "المرء على دين خليله".
قول الفيلسوف الإنكليزي برناردشو في كبرياء النفس عند منحه جائزة نوبل: "إن
هذا طوق نجاة يلقي به إلى رجل وصل فعلاً إلى الأمان، ولم يعد عليه من خطر".

قول الشاعر نزار القباني في مدينة الفيحاء دمشق:

كتب الله أن تكوني دمشقاً بك يبدا وينتهي التكوين
قول القائد صلاح الدين الأيوبي عقب انتصاره في موقعة حطين لجنوده: "لا تظنوا
أنني ملكت البلاد بسيف حاكم، بل تعلم القاضي العادل" وأكد على عدالة القضاء ودوره
البناء في بنية المجتمع ما أكده بعد قرون من الزمن السياسي المخضرم ونستون تشرشل، حين
قال: "إذا كان القضاء بخير فإن الدنيا بألف خير وأمان".

قول الخليفة عمر بن الخطاب في العدالة والحرية: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتم
أمهاتهم أحراراً" وقد أصبحت الحرية -التي نادى بها- شعاراً للثورة الفرنسية بعد عدة قرون.
قول القائد الفارسي (هرمزان) في الخليفة عمر بن الخطاب: "حكمت فعدلت فنمت
يا عمر ونحن ملكنا وظلمنا فحفنا فسهرنا وبذلك انتصرتم علينا".

قول الشاعر في التصميم والإرادة وعدم التردد:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تتردد

الزجل الشعبي

انتشرت في مرحلة من حياة بلدنا الحبيب ظاهرة المونو لوجستات الشعبية، وقد تبارى فيها كثير من المشهورين خلدتهم الأيام، وبقيت آثارهم ماثلة في الأذهان، وقد حفلت ذاكرتي بأسماء كثيرة وقع الاختيار على "مونولجست" شعبي في الثلاثينات، لعب دوراً بارزاً في الغناء الشعبي، تمثل في الأزجال الانتقادي الاجتماعية، ما زالت أهازيجه وأشعاره الشعبية ماثلة في الأذهان، وترك ثروة غنية في مرحلة فنية قائمة بذاتها، حيث كانت بداياته في الزجل، تتناول انتقاد التفكك بين أفراد الحي الذي عاش فيه وجاء فيها:

"مصيبة كبيرة مصيبتنا.. كيف نلتذ بعيش.. لا في محبة ولا في رحمة.. ولا في قوة بتربطنا".

ثم انتقل بعدها إلى تكديس زجله لمقاومة المحتل الفرنسي، والعدو الصهيوني، ومن ثم إلى الأزجال الانتقادية الاجتماعية.

وأول مونولوج شعبي كتبه وغنّاه ضد المستعمر الفرنسي كان: "البيت بيتنا والأرض لأبونا وبأي عن جايين تنهبونا.. وشو جاي تعمل يا جراد لعند هون وبس هوها يا عهون.. في شي مستحيل كذاين".

واستمر الأغواني في خطه الوطني والقومي فنظم وغنى في جميع مجالاتها.. ولم يقصر أبداً في التطرق إلى القضايا الاجتماعية، التي انتقد فيها العادات الاجتماعية السيئة مثل: الاحتكار وغلاء الأسعار وغلاء المهور، والكذب والمماطلة والتسويق وغيرها.

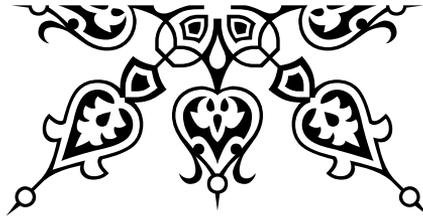
وسأقتصر هنا على ما جاء في مذكراته حول بداياته حيث قال: "بدأت حياتي العملية معاً لسائق سيارة على خط دمشق - بغداد، ومع مرور زمن قصير حصلت على إجازة سوق وأصبحت أعمل سابقاً بين دمشق ومدن المحافظات، وقد استلهمت فكرة مونولوجي الأول الذي رده وغنّاه الناس لسنوات عديدة، وافتخر بذلك ومطلعه: "نحننا الشوفيرية.. نحننا جدعان تركب في الماكينا.. أشكال وألوان ركبنا ناس كثير.. وعرفنا مين الأمير.. ومين بيسوق الحمير.. ومين القاضي بين الجميع".

ولعل أبلغ ما قاله في غارات إسرائيل على مدينة دمشق عام ١٩٤٧ ما يلي: "اليهود عملوا غارة.. ما حرقت ذنب حمارة".

وما تم ترديده على أفواه الناس أن المحتكرين عندما خصهم بالنقد اللاذع بمونولوجات متعددة عناوينها: "شوسيب غلاء الأسعار.. كيف ما مشيت المال.. و مصيبة كبيرة مصيبتا... أنا قلبي دايب.. كتروا المصايب.. ما في ضرب خايب.. أعشار وضرائب.. والله زهقنا من الحياة... وغيرها أكثر من أن يعد ويحصى".

وحاولوا إغراءه بالمال ولم ينجحوا؛ فسلطوا عليه البلطجية لتأديبه وأنقذه من هذا الموقف المارة من الناس.

وبذلك اعتبر الأغواني من أهم ما قدم المونولوج في سورية، واعتبر علماً بارزاً من خلال المواضيع والقضايا التي طرحها.



قصص من التاريخ العربي

يجب ألا ننسى أن نتوج المآثر الانسانية بذكر قصص من التاريخ الإسلامي والعربي الأصيل في الشهامة والوفاء والكرم، وقد تم اختيار أكثرها نبلاً وعمقاً في المضمون.

أ- أوفى من السمؤال:

السمؤال شاعر جاهلي عربي، من أكثر الشعراء شهرة في وقته، وكان يملك حصناً في شمال الجزيرة قريباً من المدينة المنورة، بناه جده على تلة عالية مكان توقف للمسافر من وإلى بلاد الشام.

ضرب بالسمؤال المثال بالوفاء لإسلامه ابنه للقتل؛ على أن يفرط بدرع أودعها أمانة عنده امرؤ القيس كانت ملوك كندة يتوارثونها ملكاً عن ملك، فطلبها ملك الحيرة وألح في طلبها، فلما حجبت عنه سار إلى السمؤال وداهمه بجيشه؛ فأغلق السمؤال الحصن وحال دون دهمه ودخوله؛ فأخذ ابناً للسمؤال - وكان عائداً من الصيد خارج الحصن - فخير ملك الحيرة السمؤال بين دفع الدرع التي هي في حوزته، أو قتل ابنه؛ فاختار السمؤال الوفاء بالذمة، وأعطاهما لورثة امرئ القيس فقال السمؤال:

وفيت بأدرع الكندي أني إذا ما خان أقوام وفيت

وفي ذلك قال الأعشى في وفاء السمؤال:

كن كالسمؤال إذا سار الهمام له في جحفل كسواد الليل طرد
بالأبلق بالفراد من يتماء منزلة حصن حصين وجار غير غدار

وأبلغ ما قاله السمؤال من الشعر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وإن لم يحمل على النفس حينها فليس له إلى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزير وجار الأكثرين ذليل

ب- اختبار لحاتم الطائي لما قيل عنه

يحكي أن أعرابياً عرج على دار حاتم الطائي بعد عناء نهار طويل، ملتمساً الراحة والطعام والشراب؛ لما سمعته من كرم ومروءة، فلما التقاه حاتم سأله بجفاء عن صاحبه فأجابه الأعرابي: والله إني متعب من السفر وشديد الجوع والعطش، فقصدتك لما سمعت عن كرمك بين العرب، فقال له حاتم متعمداً الجفاء: وهل داري مفتوحة لكل من يقصدي كي يرتاح ويأكل ويشرب؟ فارتبك الأعرابي وأحمر وجهه خجلاً وأسرع إلى جواده وامتطاه مطلقاً له العنان دون أن ينطق بكلمة، فلما ابتعد تلثم حاتم وامتطى حصانه ولجمه، فلما التقاه حياه وقال له:

- من أين أنت قادم يا أخا العرب؟
- فأجابه الأعرابي من عند حاتم الطائي
- فسأله حاتم: هل وجدت حاجتك عنده؟
- فأجاب: كنت جائعاً فأطعمني وعطشاناً فسقاني..
- عندها كشف حاتم اللثام عن وجهه وهو يضحك، وسأل الأعرابي:
- لماذا كذبت علي؟
- فأجابه الأعرابي: والله لو قلت غير ذلك لما صدقني أحد من العرب، ولقالوا عني بأنني مجنون.
- فابتسم حاتم وعاد إلى داره مصطحباً معه الأعرابي فنحر له وأطعمه وأكرمه.

ج- جود الكرام

- سأل رجل حاتم الطائي قائلاً:
- يا حاتم هل غلبك أحد في الكرم؟
- فقال: نعم، غلام يتيم من طي نزلت بفنائه وكان له عشرة رؤوس من الغنم، فعمد

على رأس منها فذبحه وأصلح من لحمه وقدم إليّ، وكان فيما قدم إليّ الدماغ؛ فتناولت منه فاستطبتّه وقلت: طيب والله، فخرج من بين يدي وجعل يذبح رأساً رأساً، ويقدم لي الدماغ وأنا لا أعلم، فلما خرجت لأرحل نظرت حول بيته دماً عظيماً، وإذا هو قد ذبح الغنم بأسره.

- فقلت له لم فعلت ذلك؟

- قال يا سبحان الله تستطيب شيئاً أملكه وأبخل عليك؟ أنها لسمعة قبيحة على العرب.

- قيل: يا حاتم ماذا عوضته؟ قال ثلاثمائة ناقة حمراء وخمسمائة رأس من الغنم.

- فقيل إذا أنت أكرم منه.

- فقال بل هو أكرم؛ لأنه جاد بكل ما يملك، وإنما جدت بقليل من كثير!

يا له من قول بليغ.

قيل إن أحد قياصرة الروم بلغه أخبار جود حاتم الطائي، فاستغربها وعلم أن لحاتم فرساً من كرام الخيل عزيزة عنده، فأرسل إليه بعض حجاجه يطلبون الفرس، فلما دخل الحاجب دار حاتم استقبله أحسن استقبال وهو لا يعلم أنه صاحب القيصر، وكانت المواشي في المرعى ولم يجد إليها سبيلاً لقرى الضيف فنحر الفرس واحتدم النار، ثم دخل إلى ضيفه يحدثه؛ فأعلمه أنه رسول القيصر قد حضر يستميحه الفرس، فسأه ذلك حاتم وقال: علمتني قبل الآن فيني قد نحرتها لك إذ لم أجد غيرها.

فعجب الرسول من سخائه وقال والله لقد رأينا منك أكثر مما سمعنا.

ضرب من الخيال

يتعرض الإنسان في حياته إلى مواقف مذهلة يتصف باستحالة التنفيذ، يقف حيالها مكتوف الأيدي لا يدري ما يجب فعله، تاركاً مقدرات حلّها إلى الخالق الكريم. وقد مرت عليّ حوادث متنوعة جاء حلها بقدرات خارقة تبهر العقول.

أ- رحمة السماء

تمتيت أداء فريضة مناسك العمرة وزيارة قبر الرسول الأعظم ﷺ في المدينة، وقد تيسر أمر أداء المناسك، وتمت بحمده تعالى بأيسر السبل، ولكن الشيء الذي لم يكن في الحسبان هو أزمة السير الخانقة التي كانت حول الحرم المكي والشارع الرئيسي من مكة إلى جدة، مما سبب تأخراً لبضع دقائق حرمي من السفر في الموعد المحدد.

لم يبق أمامي سوى الانتظار حتى موعد الطائرة التالية الذي سيكون بعد ثلاث ساعات، مما يؤدي إلى فوات الوقت بزيارة قبر الرسول الكريم ﷺ، وتم نصحي بالغاء السفر لموعد آخر.

فكرت ملياً، وأجبت في نفسي بأنه إذا عزمتم فتوكل على الله، وصلت المدينة في موعد كادت فيه صلاة العشاء أن تنتهي ويغلق الحرم النبوي أبوابه إلى صباح اليوم التالي. ابتهلت إلى الله العليّ القدير أن يكللني بإنجاح الزيارة، وعدم حرمانني من تحقيق أمنيّتي الغالية النافعة من القلب، وطلبت إلى السائق أن يسرع قدر المستطاع، فأجابني أنت وحظك وسدد الله خطاك لما يحبه ويرضاه.

وقبل وصولنا إلى الحرم النبوي الشريف رأينا الأنوار متألّثة والأبواب مفتوحة وأن إقامة الصلاة قدر أحرّت لمدة ساعة ريثما يتم حضور رئيس جمهورية باكستان ضياء الحق، وبفضل الله ومشيبته تمكّنت من أداء ركعتين في الروضة الشريفة، وقمت بزيارة قبر الرسول الكريم متوسلاً إليه بالشفاعة، وسلمت على صاحبي رسول الله أبي بكر وعمر.

فشكرت ربي على هذه الهبة التي لا تقدر بثمن، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

ب- ضربة حظ

أبدأ حديثي بأن الإرادة والتصميم هما عاملا النجاح في الحياة، وأن الحظ يأتي في المرتبة الثانية، ويجب عدم الاعتماد عليه في الأمور المصيرية. اعتمدت في حياتي الدراسية عدم إغفال أية ناحية يتوقف عليها النجاح، وتؤدي إلى الفشل لا سمح الله. في أوائل دراستي الجامعية في الحقوق كنت أطالع قبل موعد الفحص بساعتين مقدمة جاءت عليها مادة "تاريخ الحقوق" لم أعطاها حقها في الدراسة، ظناً مني وكغيري أنها من قبل تسليط الضوء على تاريخ هذه المادة. وعندما دخلنا قاعة الفحص ووزعت الأوراق والأسئلة جاء السؤال الرئيسي الوحيد: "أذكر ما تعرفه تفصيلاً عن تاريخ الحقوق". ذهلت وأيقنت أن الحظ وقف إلى جانبي، وجعلني قادراً على تناول الموضوع بما يستحقه من شرح وتفصيل. وبذلك أصبح لدي اليقين وبما لا يقبل الشك إطلاقاً أنه على المرء ألا يستهين بشيء مهما صغر.

ج- عناية السماء

فوجئت وأنا على متن الطائرة المتجهة من دمشق إلى ميونيخ بمناداة أحد مضيفي الطائرة: أنه على الراكب لطفي غنام التوجه إلى مقدمة الطائرة، استغربت الأمر واعتزني الدهشة، واتجهت إلى المقدمة، فوجدت الكابتن قائد الطائرة "طيب الله ثراه" ينتظرنني

واستقبلني بترحاب كبير، وعتب عليّ لعدم إشعاره بسفري، حيث كانت تربطنا صداقة حميمة، واستفسر عن أحوالي وعمّا إذا كان هناك أي تقصير في واجب الضيافة. وعدت إلى مكاني في الطائرة، وقد غمرني سرور بالغ بهذه المفاجأة غير المتوقعة.

وقبل موعد هبوط الطائرة في مطار ميونيخ استدعاني كابتن الطائرة وأجلسني في مقعد خلفه قائلاً: إنه أحب لي مشاهدة عملية الهبوط الممتعة.

ومن قمرة الطائرة شاهدت روعة المدينة من الجو وجبالها وسهولها وغاباتها وكانت بغاية الروعة.

وفجأة وأثناء دوران الطائرة استعداداً للهبوط والبدء بالانخفاض التدريجي، حصل هرج ومرج وارتباك شديد استنفر فيه الطيار والطائرة وما لبث أن عاد الهدوء والسكينة إلى الأجواء.

فاجأني الطيار أنه تم بعونه تعالى تجنب كارثة جوية لا حدود لها حيث إن برج المراقبة بخطأ غير مقصود أعطى الموافقة على هبوط طائرتين على مدرج واحد في الوقت نفسه.

وتبين من خلال حديثه أنه لولا العناية الإلهية واليقظة بمشاهدة الطائرة مستعدة للهبوط التدريجي لحدث ما لا تحمد عقباه.

وأنه من قبيل الحقيقة المؤكدة أنه والحمد لله يتمتع طيارونا بمهارة فائقة، أصبحت مضرب الأمثال، رعاهم الله وحماهم من كل مكروه.

د- وحي الخيال

رافقت زميلاً لي من ساحل العاج في قياس طقم جوخ في أحد مولات باريز، ونحن ننتظر المصعد أذيع بالمذيع: أنه سيكون في الطابق الأول قسم مبيعات الملابس الرجالية رخيصة خيالية، فطلبت إليه مرافقتي للمشاركة في الشراء، ووصلنا لحظة تقديم ملابس رجالية متنوعة حديثة، فأسرعت بلمح البصر في ملء العربة بأنواع مختلفة ومقاسات جيدة، يبدأ السعر فيها من ١٥ حتى ٣٠ فرنكاً، وجررت العربة، بينما زميلي ما زال يخلع ويقيس البدلات، ينتقي واحدة من مقاسه؛ فأنقضى الوقت وخرج خالي الوفاض.

وتكرر الأمر في الطابق الثالث بجناح القمصان والكنزات والملابس الداخلية، فقامت باختيار عدد منها.

نظر إليّ زميلي وقال لي: أنت ماهر وذكي خرجت من العرس بكنز كبير، بينما أنا أسأت التصرف ولم أحكم عقلي.

ومن قبيل الحقيقة أقول: إنها كانت فرصة نادرة خارقة للعادة، استهدف منها المحل التجاري الدعاية لجلب الزبائن، وكان ذلك حالة لم تتكرر. وعليه يجب على المرء أن يستغل الفرص السانحة.

هـ- وامتصماه

قدم رجل للمعتصم الخليفة العباسي قائلاً: يا أمير المؤمنين كنت بعمورية؛ فرأيت امرأة عربية مهيبة في السوق تسحب إلى السجن، فصاحت في لهفة: وامتصماه.. وامتصماه وامتصماه.. فكتب المعتصم رسالة: "إلى كلب الروم أخرج المرأة من السجن وإلا أتيتك بجيش بدايته عندك ونهايته عندي".

فلم يمتثل الأمير الرومي، فانطلق المعتصم بجيشه وحاصر عمورية، فاستسلمت ودخل المعتصم المدينة، وأحضر المرأة إليه وسأها: هل أجابك المعتصم؟ قالت: نعم.. أعز الله ملكك يا أمير المؤمنين يكفيني فخراً أنك تأت لي.

وكان لهذه النخوة العربية الأصيلة صداها الكبير في البلاد الإسلامية، فخصه فخصه الشعراء بقصائد المدح، ولعل أروعها القصيدة العصماء لأبي تمام التي مطلعها:

السيف أصدق أبناء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
حيث جاءت معبرة خير تعبير عن مكانة الكرامة عند العرب وحب التفاني لنصرة الملهوف، وأكدت في الوقت نفسه كذب المنجمين الذين نصحوا المعتصم بعدم الغزو؛ لأن النصر لن يكون كما تقول كتبهم بأن فتح المدينة قمرية لن يكون إلا وقت نضج العنب والتين.

و- جوانب أخرى من شخصية صلاح الدين الأيوبي

طلعت في ذاكرتنا صورة القائد البطل الأسطوري صلاح الدين الأيوبي، وأخفت جوانب أخرى من شخصيته التي تتصف بملامح مشرقة وقسمات مضيئة. لقد كان صلاح الدين قائداً عسكرياً نذر حياته للجهاد، وحقق انتصارات كانت مجرد حلم لمعظم القادة خلدتها التاريخ.

وما كان يتميز به هذا القائد العظيم أنه كان إنساناً يتمتع بقدر غير معروف للبشر من الإنسانية، وصحبة الناس أي كانوا عرقاً أو ديناً أو مذهباً.

لقد كان مؤمناً بحق شعبه في الأرض، وحقه في حياة كريمة، وأن القتل والقتال هما الطريق الوحيدة لتحقيق ذلك، ولم يكن شعاره حب الانتقام وسفك الدماء إطلاقاً، لقد اتصف بالتسامح، وترك الفرنج يغادرون القدس دون التشفي منهم لما ارتكبوه من مجازر وأعمال غير إنسانية.

وأكبر دليل على ترفعه عن الدنيا عندما ترك نشوة النصر، وانشغل بالبحث عن طفل فرنجي ضاع من أمه في ساحات القتال، فأدهش بإنسانية الأعداء قبل الأتباع، وضرب أروع أمثلة في نصره الملهوف.

وبذلك أعطى صلاح الدين الأيوبي للعالم أجمع، صورة مشرقة عن مآثر الأخلاق الإسلامية ومشاعر العطف والرحمة.

سهرة العمر

احتفاءً بضيّفي دمشق الكبيرين أمير الشعراء أحمد شوقي، والموسيقار محمد عبدالوهاب، أقام وجيه دمشق الوطني فخري البارودي حفلة استقبال في داره العامرة في القنوات، حضرها كبار رجال السياسة والوطنيين الأحرار، وكثير من الأدباء والشعراء وأهل الموسيقى والطرب، ووجهاء وأعيان دمشق، ما هب ودب من أبناء البلد المضياف، وخرجت برمتها وجمالها عن حدود البروتوكولات والرسميات.

أعرب الحاضرون عن سرورهم البالغ بهذه الزيارة التي عبّرت عن مشاعر المحبة والأخوة بين سورية ومصر.

لقد تخلل السهرة تبادل الكلمات الجميلة بمآثر الضيفين الكبيرين، وألقيت القصائد والأهازيج ووصلات الزجل الشعبي الجميل، وتبارى خلالها محبو الطرب والغناء بإظهار مواهبهم الخلاقة، وقد تألق في العزف الموسيقي، وأبهر المستمعين كل من عازف العود عمر النقشبندي حيث أبدى (كما روى الحضور) براعة في العزف والإيقاع، وساد القاعة الحبور والسرور والابتهاج عندما عزف مقطوعته الشهيرة "رقصة ستي" وغنّى بصوته العذب الرقيق أغنية الموسيقار محمد عبدالوهاب (يا جارة الوادي) كما أدى أمير البزق محمد عبدالكريم بمعزوفاته الموسيقية على البزق الذي تميز به أروع ما لحنه، وأطرب الحاضرين بأولى أغنياته المشهورة في التلحين "ليه الدلال وأنت حبيبي".

وقد أظهرت مأدبة العشاء كرم الضيافة بتقديم أطيب المأكولات التي يشتهر بها المطبخ السوري.

وكان الشيء المتميز في السهرة هو نشوة السرور التي تألقت لدى أمير الشعراء، وتفتحت بها عبقريته في نظم الشعر، حيث انزوى جانباً، وبدأ في صياغة ما تأجج في نفسه بقلب شعري أخاذ تولدت منه قصيدته العصماء التي وصف بها مدينة دمشق التي مطلعها:

قم ناج جلق وانشد رسم من مشت على الرسم أحداث
جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك دون الخلد رضوان

خلفت لبنان جنات النعيم وما نبئت أن طريق الخلد لبنان

وغنمت دمشق من هذه السهرة قصيدة عصماء من أمير الشعراء تجلى فيها الوصف
الدقيق لجمالها الفتان بأبيات تقطر عذوبه وأريجية خيرة.



طرف عفوية

ليست هذه الطرف من عالم الخيال، وهي في الحقيقة نابعة من أرض الواقع، يقابلها السامع بالدهشة والاستغراب.

هذه طرفة ظاهرها براءة أقوام في تصرفاتهم العفوية، وآخرين يتصفون بالمكر والغدر عن قصد أو بدونه.

ويتلخص الأمر أن جدتي لأبي قد اشترت خلال معرض عام ١٩٣٦ - كما حدثتنا- بنفسها ورقت يا نصيب بجائزة نقدية كبيرة في زمانها، وفي إحدى سهرات نسوة الحي تم استعراض الراح والخاسر في اليانصيب، ومن خلال الأرقام المطروحة كما دونتها إحداهن ورد رقم الجائزة الأولى التي بحوزة جدتي وطار عقلها من الفرح.

بدأت بالتفتيش عن تأمينه لقبض الجائزة، ولم تعهد بهذه المهمة لابنها؛ لأنه متدين ويعتبر اليانصيب حراماً ووجهاً من أوجه الربا.

وانتهت إلى عيادة ابن عمتها وأخيها بالرضاعة لينوب عنها ويقبض الجائزة، وأسرت إليه ما يختلج في نفسها من خوف إذا علم ابنها بالأمر، فطمأنها وضرب على صدره وقال لها: أنا لها.. أنا لها، وهكذا كان..

ظهرت علائم الثروة التي هبطت من السماء على ابن عمتها، واستغرب الأهل هذا الأمر، ولكن ذلك لم يغيب عن ذهن جدتي الذكوية؛ فأدركت أنه قد غشها واستولى على مالها بلؤم وغدر، فعاتبته سراً فأنكر، وأقسم أنه لم يرتكب أي غش أو خداع نحوها؛ فعرفته على حقيقته وأسمعتته من الكلام ما "يمسح به الأرض" كما يقولون.

صادف في تلك الفترة موسم الحج؛ فعزم هذا المخلوق المتدين على أداء هذه الفريضة؛ وكانت العادة وقتها أن يقوم الحاج بتوديع الأهل والأصحاب، ويطلب إليهم السماح، وكان لجدتي دور في ذلك، وعندما سألتها السماح أجابته بقولها: أرجو أن تعلمني متى يكون صفاء النية وبراءة الذم؟ قبل الحج أم بعد؟" فخجل من نفسه.

اتصل بي رئيس مخفر سوق الحميدية وكان صديقاً لي وأعلمني بأن أحد العاملين في القطاع الذي رأسه موقوف لديه، وأن إطلاق سراحه يتوقف أولاً وأخيراً على شهادتي. طلبت إلى الموقوف أن يتحدث بما جرى، حيث قال: إنه بعد أداء فريضة صلاة العصر في الجامع الأموي الكبير، جلس في الساحة تحت الرواق يستمتع بجمال الطيور التي تملأ الساحة وأرضها وحركاتها؛ فاقتربت منه سيدة رجته أن تترك وليدتها عنده لتتمكن من تدارك فضيلة الصلاة قبل فواتها؛ فاستجاب لما في ذلك من فعل الخير، وانتظر وطال ولم تعد السيدة، ومر أمامه خدام الجامع وسأله عن سبب حيرته، فأخبره، فقال له خدام أو صبي: لقد اصطادتك ووقعت في الشر، وليس أمامك سوى تسليمها إلى المخفر. سئلت عن صحة روايته فأكدت ذلك وقلت لرئيس المخفر إنها قطعاً لم تكن الأولى وقد صدفت حالات مماثلة، سابقة فنظم الضبط الأصولي وسلمت إلى دور الأيتام.

حلم لم يتحقق

جاء في روائع شعر المتنبي هذا البيت:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

كم كنت أتمنى وأنا في السلك الوظيفي تحقيق حلم كان يسرح في مخيلتي ويسهم إلى حد كبير في مساهمتي ببصمة تخلد ذاكره، وقد استعضت عن تلك الأمنية الغالية بغرس شجرة فل في حديقة بناء الإدارة المركزية للمؤسسة في المزة في الناحية الغربية من المدخل الرسمي، وأتخيل الآن قد عمرت أكثر من عشرين عاماً، وأصبحت كبيرة ووافرة أما ذلك الحلم الذي كان يراودني، فهو تشييد بناء برج في بناء المؤسسة القديم في شارع سعد الله الجابري بدلاً عنه، بعد أن تعرض من الناحية الشمالية إلى التصدع، وشكّل ذلك خطراً على البناء يتهدد بسقوطه.

أجريت دراسات معمقة لمعرفة أسباب تصدع البناء، وبنيت على أساسها خطط

تهدف إلى تدعيمه بأعمدة أسمنتية في باطن الأرض وفق أحدث الأساليب الفنية في هذا المضمار، وتم التوجه نحو التدعيم، ولم تلق فكرة هدم البناء وإشادة بناء حديث مكانه أية قبول من المراجع المختصة، رغم رجحانها مع المحافظة على النواحي التي تم التمسك بها أنها تراثية.

اختلفت طرق التدعيم وعدد الدعائم الأسمنتية وأمكنة وضعها، وقد بنيت كلها على أسس افتراضية وليست يقينية حول معرفة أسباب التصدع.

كنت من مؤيدي فكرة إشادة بناء برجى يحمل واجهة البناء الحالي التي قيل إنها أثرية، مع الاحتفاظ بالطابع الذي تم التمسك به؛ لعدم الهدم والتوجه نحو التدعيم. أجمعت الدراسات التي قامت بها لجان فنية استشارية على مستوى كبير من الكفاءة والخبرة بتقديم اقتراحين اثنين نال مشروع التدعيم الأسبقية، وكانت الأسباب التي دعت لذلك التوجه:

- ١- كون البناء في موقع هام في المدينة يعرضها إلى مشاهد لا تليق بها.
- ٢- كون الهدم يسبب أزمة حادة في حركة المرور.
- ٣- الكلفة المالية الباهظة التي تعجز المؤسسة على تحملها.
- ٤- عدم وجود تصور نموذجي للبناء الجديد المقترح.
- ٥- طول مدة تنفيذ المشروع الجديد.
- ٦- عدم وجود دراسات معمقة عن التأثيرات العكسية على أبنية المنطقة المجاورة من جميع الجهات.

وقد تم التدعيم في منتصف عقد التسعينات واستمرت الأعمال حتى يومنا هذا حيث تقتصر الآن على تأهيله ليكون بناء نموذجياً.

روائع الشعر العربي الأصيل

إنني من محبي ثلاثة من شعراء عصرهم: أبو تمام، المتنبي، أبو فراس الحمداني. وقد أحببت أن أنهى مذكراتي بنماذج من شعر هؤلاء، ونتيجة القرعة وقع الاختيار على الشاعر أبي الطيب المتنبي الذي يوصف بأنه نادرة زمانه وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام وحي للشعراء والأدباء، وهو شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، واشتهر بحدة الذكاء واجتهاده وظهرت موهبته الشعرية مبكراً.

كان المتنبي صاحب كبرياء وشجاعة وطموح وحب للمغامرات، وكان اعتزازه بعرويته وتشاؤم وافتخار في نفسه.

وإن أفضل أشعاره كانت في الحكمة وفلسفة الحياة، وبذلك اعتبر بحق مفخرة للأدب العربي، وهو صاحب الأمثال السائرة، والحكم البالغة، والمعاني المبتكرة، وترك تراثاً عظيماً من الشعر القوي الواضح، صور فيها الحياة أوضح تصوير، ويستدل منها كيف جرت الحكمة على لسانه ولا سيما في قصائده الأخيرة.

وقد وقع اختياري على قصيدته العصماء التي تعتبر فخر القصائد العربية، حيث قال فيها هذه الأبيات المختارة:

ولا نديم ولا كأس ولا سكن	بم التعلل لا أهل ولا وطن
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن	أريد من زمي ذا أن يبلغني
ما دام يصحب فيه روحك البدن	لا تلق دهرك إلا غير مكترث
ولا يرد عليك الغائب الحزن	فما يدوم سرور ما سررت به
هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا	مما أضر بأهل العشق أنهم
ولا نديم ولا كأس ولا سكن	تغني عيونهم دمعاً وأنفسهم
فكل بين عليّ اليوم مؤتمن	تحملوا حملتكم كل ناحية
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن	ما كل ما يتمنى المرء يدركه

وكنت أتمنى لو أتيت على أبيات من قصائد أخرى، تعتبر من أروع ما قيل في مواضيع

شتى، تصقل النفوس وتهذبها، ولا يبقى أمامنا الآن سوى الرجوع إلى ديوان شعره ونهل منه ما يغذي النفس بكل ما هو طيب.

رأي

الكتابة فعل إرادي، يبدأ بتدوين المعلومة بعد اختمارها في الذاكرة على الورق، والآن تطور ذلك وأصبح على شاشة الحاسوب.

تبدأ الكتابة كهواية منذ الصغر لعكس العواطف التي تتأجج في النفوس في مراحل مجريات الحياة حول تفرغها أو تركها أفكاراً عارضة تطالها ذاكرة النسيان.

ولا بد هنا من القول: إن سلوك عالم الكتابة يستدعي بالضرورة التعليم المستمر ومطالعة الكتب بتعمق؛ ليقف على حقيقة مدلولاتها ومراميها.

وعندما تحين الفرص التي يشعر فيها المرء أنه يسلك طريق الكتابة تأخذ الإرادة والتصميم دورها في تحقيق الفكرة، بعد التأكد من خلال اختبار الذات بموضوعية نهج الكتابة في ضوء تفتح الأذهان، والتأكد من القدرة الذاتية على النجاح في ميدان الكتابة. ومن قبيل الحقيقة أن كل امرئ يتمنى في قراره نفسه أن تكون لديه المقدرة والكفاءة ليكون كاتباً، وهذا ليس بالشيء السهل، وإن للأمر مقوماته الأساسية التي لا تتوفر إطلاقاً لدى سائر البشر.

فالكتابة جهد قيم وليس أبداً مجرد أداة لنقل الأفكار من ذهن صاحبها وحفظها من النسيان.

وبالنسبة لي فقد جاءت فكرة الكتابة متأخرة، وتولدت نتيجة عوامل فرضتها حالات لم تكن في الحسبان، لعبت الصدفة دورها الكبير في بعث روح الكتابة، والتي أقول عنها وبكل تواضع: إنها تصل ولن تصل أبداً إلى درجة أولئك الكتاب الكبار الذين لهم باع كبير في نشر العلم والمعرفة وتنقيف الذات البشرية.

ومن قبيل الحقيقة المؤكدة: إنني لا أملك إطلاقاً تقنيات ومقومات الأساليب

الصحيحة للكتابة، ولكن بما ترسخ لدي من خبرة بهذا المجال كتبتها من خلال التثقيف الذاتي والاقتداء بفحول الكتاب والأدباء، فرأيت أن أدلي بدلوي بهذا المضمار بتناول مجريات الأحداث في مرحلة من الزمن، بالتحدث فيها وإعطاء فكرة عنها، ولم أكن أرتجي من ورائها الوعظ وإصدار الأحكام الأخلاقية، وتركت لمن يشاء أن يتوصل بإرادته الحرة إلى القناعة التي تسر خاطره.

ولابد لي أن أقول بصدق إنني في معرض التحدث عن بعض الأمور العابرة أردت حفظها على حقيقتها من ذاكرة النسيان، ولتكون بمثابة اعتراف لشاهد عصر عليها. وليكون المرء رقيقاً بهذا الأمر أقول وبكل صدق وشفافية: لكل من يقول في نفسه عن هذه الخطوة التي سلكها في المرحلة الأخيرة من حياتي: "عندما كبر وشاب دخل إلى الكتاب" أقطع ذلك بالقول إن الكتابة تدخل البهجة والسرور في النفوس، وتكشف عن الخفايا الدفينة فيها، وحبذا لو عم انتشارها لصقل النفوس وتهذيبها. وفي الختام أؤكد أن الكتابة فن ووعي كبير تتطور على مر الحياة بأساليب ترضي جميع الرغبات.

كلمة من القلب

أنهي كلامي بالقول: إن الحياة مدرسة تهذب النفوس وتصلقها وتلعب النصيحة دورها في تكوين الخبرات وتأهيلها.

ولا أنكر إطلاقاً أنني قد التحقت في ميدان العمل الفعلي عقب انتهاء مرحلة دراسة التأهيل التعليمي، ولم أبدأ مرحلة الدراسة الجامعية، وانخرطت في معترك الحياة العملية ولا أذكر إطلاقاً كيف سارت الأمور حيث لعبت المفاجأة دورها الكبير في طمس كثير من الحقائق التي مرت خلالها.

ومن قبيل الوفاء أذكر بصدق وأمانة أنه كان لاثنين من خيرة القوم أثر كبير في إنارة الطريق أمامي.

الأول منهما: كان مدير المدرسة التي عينت فيها، وكان -طيب الله ثراه- رجلاً فاضلاً عركته الحياة وأكسبته خبرة ورجاحة عقل وحسن إدارة، وحكمة بالغة في معالجة الأمور، حتى استطاع بما يملكه من قدرات أن يقود السفينة -التي كان هو ربانها الماهر- إلى شاطئ الأمان والسلامة، حتى أصبحت مدرسته صرحاً تعليمياً يضرب به المثل.

في أول لقاء بيني وبينه بعد اطلاعه على خلاصة لمسيرة حياتي وخاصة الدراسية منها وخططي المستقبلية، وعرضت عليه أن يعتمد عليّ كلياً في مرحلة أصبح فيها بحاجة إلى العون لقرب إحالته إلى التقاعد، ومن قبيل الحقيقة أقول إنه لم يقبل مساعدة أحد.

وكانت النصيحة التي ركز عليها بالدرجة الأولى: تثقيف الذات، والتمكن من ميدان التخصص، وأن يكون لسلاح العلم والمعرفة الدور الفعال في خوض غمار الحياة، والوقوف أمام تياراتها المتصارعة يمناً ويسرة.

وباعتباره كان من علماء النحو والصرف والبلاغة، فقد رعاني من تقوية جميع المجالات الأدبية إلى درجة أغنتني عن طلب العون من أحد في مجالاتها.

وبالفعل كانت نواة لتغذية النفس بالمطالعة الثقافية، وتوسيع آفاق المعرفة في هذا الميدان الهام.

أما الثاني: فكان له الدور الناصح الأمين للتوجه نحو كل مفيد والابتعاد قطعاً عن كل ما هو مضر. وقال بصريح العبارة: عليك التمثل دوماً بكرام القوم؛ لأن التمثل بالكرام فلاح.

وضرب أمثلة كثيرة عن ذلك وركز على قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] (صدق الله العظيم).

وكان نصحه القيم حين أجلسني إلى جانبه وقال لي: أنت مسافر إلى عالم مبهر إن لم تتجنبه فسوف يبهرك ويجعلك تقع في مستنقع، وتعود من حيث أتيت تجر ذيول الخيبة. نصيحتي إليك أن تركز اهتمامك بالدرجة الأولى على تنفيذ المهمة التي جئت من أجلها بروح عالية من المسؤولية، وأن يكون صرف أوقاتك على أمور تعود عليك بالمنفعة وهي أكثر من أن تعد وتحصى.

لقد أثار أمامي الطريق إلى أمكنة غدت نفسي، ولولا نصحه لي لما التفتت إليها بمحض اختياري؛ لأنها لم تكن موضع علمي مسبقاً.

ولا أكتف سرّاً إذا قلت: إن اللوحات الفنية لكبار الرسامين العالمين قد شاهدتها بشغف لا مثيل له، ووقفت حائراً أمام عظمة تلك الأنامل التي أبدعتها وجعلتها تعبر بجلاء عن ذاتها.

ومن كل قلبي أدعو كل من تتاح له الظروف أن يضع في برنامجه مشاهدة "الجيوكاندا" أو "العشاء الأخير" وهي آخر نصيحة لي أذكر فيها خيراً إن شاء الله.

أمنية

لا يمكن لأحد في الوجود أن ينكر فضل الحضارات اليونانية والرومانية والعربية على الحضارة العالمية. فقد اهتم كل منها بنواحي معينة، كان لها فضل في مجملها على العقل والفكر الإنساني والسياسي والدولة والقانون.

أما الحضارة العربية فقد اعتمد علماؤها أسس العلوم والحضارات السابقة واتخذها أساساً ونبراساً لهم يهتدون به إلى طريق الإبداع والتجديد في شتى الميادين، وقاموا بتطوير هذه العلوم وترقيتها، وبذلك أنشأ العرب حضارة شرقية عربية تركز على أعمدة ذات طابع خاص وليس تقليداً للأساس.

وقد تم تكريس الجهود إلى وضع جميع الإمكانيات المتاحة تحت تصرف العلماء ورجال الفكر، ولم يبق أي مجال علمي دون أن ينال اهتمامات حاملي لواء الحفاظ على التراث الحضاري.

ومن الطبيعي أن يكون للحضارة العربية دور كبير في عصر النهضة الغربية وإسهامها بشكل كبير في توسيع وتطوير تلك المعارف، وذلك بسبب الاحتكاك المستمر بين العرب والفرنج، ويكون للعرب نصيب لا يمكن إنكاره في ميادين العلوم والآداب والرياضيات والجغرافيا والفنون والموسيقى.

وما تناولته بالشرح أعلاه يدفعني إلى الطلب لأولئك الذين يهتمون بفضل الشعوب -على اختلافها في بناء الحضارة العالمية- أن يركزوا ببرامج من قبيل التذكير بدور العرب المشرق في بناء الحضارة، من خلال برامج ثقافية وعلمية مركزة تبثها الشاشات الصغيرة من وقت لآخر، تنير العقول وتحدد دور العرب الفعال في سلم الحضارة.

ومما لا يمكن إنكاره أنه يتم تسليط الأضواء بشكل مختصر على بناء الحضارة في تاريخ الشعوب، وآمل أن ينال اهتماماً أكبر في الشرح بإسهاب، وبالأسلوب الذي ينير العقول.

بَلِّغِ اللَّهَ جَمِيعَ الْخَيْرِ بِالنَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ،،،

فهرس المحتويات

١	مختارات من الحياة ذاتية، تاريخية، أدبية، نوادر وطرائف
٥	إهداء.....
٧	اعتراف.....
٩	بناء الأجيال.....
٩	أ- الفترة الأولى.....
١١	ب- الفترة الثانية.....
١١	ج- أزهار العائلة.....
١٣	التصميم والإرادة.....
١٤	صور من الحياة
١٤	تحضيرات الصباح.....
١٥	تأمين التنقلات.....
١٦	العين الساهرة.....
١٦	فجر الشروق.....
١٧	ظاهرة التخلف.....
١٨	تأمين الاحتياجات.....
١٩	التعاون الأسري.....
٢٠	عادات متوارثة.....
٢١	هدأة المساء.....
٢١	البدر الساطع.....

٢١	توضيح.....
٢٢	ما أشبه اليوم بالبارحة؟.....
٢٣	عن الحرب.....
٢٣	في الحياة.....
٢٤	في العلاقات الإنسانية.....
٢٥	فحول الشعراء العرب.....
٢٥	مناجاة.....
٢٦	مواساة.....
٢٦	الشكوى.....
٢٦	الاعتزاز.....
٢٧	ثناء.....
٢٧	رأي.....
٢٨	صور من الماضي.....
٣١	علامات متميزة.....
٣٣	أجمل ما قرأت.....
٣٣	أقوال وحكم وأشعار.....
٣٤	حكمة بليغة.....
٣٤	من القلب.....
٣٦	متألقون.....
٣٦	أ- عالم الطب.....

٣٧	ب- عالم الإلكترونيات
٣٨	ج - عالم الموسيقى
٤٠	د- عالم العلوم
٤٣	مدن من العالم
٤٣	أ- مدينة لندن
٤٤	مدينة نيقوسيا
٤٥	ج- مدينة مدريد
٤٦	د- الدار البيضاء (كازابلانكا)
٤٦	هـ - مدينة أثينا
٤٨	طرائف
٤٨	أ- قصص جحا
٤٩	ب- أشعب الطماع
٥٠	ج- نوادر الجاحظ
٥٢	شروق
٥٧	حياة فنانيين
٥٧	عبد اللطيف فتحي
٥٨	محمد فهد كعيكاتي "أبو فهمي"
٥٨	سعد الدين بقدونس
٥٩	طرائف
٦١	مواقف مشرفة

٦٣	قصة حقيقية
٦٥	فاعل خير
٦٦	جشع مادي
٦٧	ثقافة
٦٨	العنصرية
٦٩	العبودية
٧٠	تجارة البشر
٧٢	حقائق
٧٣	ممارسة عملية
٧٤	فطنة
٧٦	شواهد وعيون
٧٩	مروءة
٨٤	وفاء
٨٤	عواطف صادقة
٨٥	تكريم
٨٦	حماية
٨٧	خدعة
٨٧	حقيقة
٨٨	غدر
٨٩	خداع

٩٠	رأي.....
٩٠	شهادة حق.....
٩١	غوستاف لوبون.....
٩٢	نصيحة.....
٩٤	دردشة.....
٩٧	صور من الحياة.....
١٠١	توضيح.....
١٠٢	أمثلة من الماضي.....
١٠٢	أ- قوة الإيمان.....
١٠٣	ب- مواقف مشرفة.....
١٠٣	ج- حكمة بالغة.....
١٠٤	د- رحمة السماء.....
١٠٦	هـ- جود الكرام.....
١٠٧	و- ومن الحسد ما قتل.....
١٠٨	حكم وأمثال.....
١٠٨	أ- معنى حرف “إنّ” المشددة.....
١٠٩	ب- قصة مثل “وافق شن طبقه”.....
١١٠	ج- رواية المثل “وعند جهينة الخبر اليقين”.....
١١١	د- قصة “سبق السيف العذل”.....
١١٢	مرض الحب.....

١١٤	قصص من الحياة.....
١١٤	أ- إرادة الطموح.....
١١٧	ب- التعاون العائلي.....
١١٩	ج- ظهور الحق.....
١٢٢	د- القصص.....
١٢٤	هـ- الأمانة.....
١٣١	و- الجشع.....
١٣٣	ز- القناعة.....
١٣٦	خلاصة القول.....
١٣٧	قادة من التاريخ.....
١٣٧	أ- القادة الأجانب.....
١٣٨	ب- القادة العرب.....
١٤١	امتحان صعب.....
١٤٦	خلاصة القول.....
١٤٧	عفوية رد جميل.....
١٤٩	خاتمة.....
١٥١	مذكرات الجزء الثاني.....
١٥٥	إهداء.....
١٥٦	بسمه أمل.....
١٥٧	رؤى سابقة.....

١٥٧	أ- الحوادث التاريخية.....
١٥٧	ب- المذكرات الشخصية.....
١٥٨	خاطرة.....
١٦٠	الأطماع الخفية.....
١٦٢	رأي.....
١٦٣	بدايات.....
١٦٧	نسمات الحرية.....
١٦٩	رحمة السماء.....
١٦٩	تكريم الأبطال.....
١٧١	فضل العلم.....
١٧٢	السيران الدمشقي.....
١٧٣	صخرة الحب.....
١٧٤	لعبة السيف والترس.....
١٧٤	شجون.....
١٧٦	ابتهاج.....
١٧٨	زيارات خاصة.....
١٧٨	الرحلة الثانية.....
١٧٩	الرحلة الثالثة.....
١٨٠	الزيارة الرابعة.....
١٨١	الزيارة الخامسة.....

١٨١	توضيح.....
١٨٣	مقالب الطفولة.....
١٨٤	ما الزائدة.....
١٨٤	حظ عاشر.....
١٨٧	شجون.....
١٩٣	خاتمة.....
١٩٦	استطراد.....
١٩٨	حسن التصرف.....
٢٠٠	غرور.....
٢٠١	استغلال.....
٢٠١	انطباع.....
٢٠٣	ضربة معلم.....
٢٠٤	عواصف الأيام.....
٢٠٥	مروءة ووفاء.....
٢٠٨	حنين.....
٢١٣	اعتراف.....
٢١٤	حكم القوي.....
٢١٦	اعتذار.....
٢١٨	مآثر من التاريخ.....
٢١٨	من واقعنا الاجتماعي الحقيقي.....

٢١٨	من التاريخ القديم.....
٢١٩	من روائع الأدب العربي.....
٢١٩	من مجالس الأدباء.....
٢١٩	أعذب ما قيل في التوبة.....
٢٢٢	مواقف خالدة.....
٢٢٢	١- لقاء الخليفة عمر بن الخطاب <small>رضي الله عنه</small> مع أحد قادة الفرس.....
٢٢٢	٢- جابر عثرات الكرام.....
٢٢٤	٣- علو المهمة.....
٢٢٥	نوادير الظرفاء.....
٢٢٧	مسك الختام.....
٢٢٨	توضيح.....
٢٢٨	خاتمة.....
٢٢٩	من قبيل التذكير.....
٢٣١	مذكرات خاصة نهائي.....
٢٣٥	مقدمة.....
٢٣٦	إهداء.....
٢٣٧	شجرة العائلة.....
٢٣٨	زواج إخوتي الذكور.....
٢٤٠	مرحلة الانتكاسة.....
٢٤٢	مرحلة بدء الشروق.....

٢٤٥	من ذاكرة الطفولة.....
٢٤٩	إضراب الطلبة.....
٢٥١	مرحلة الانتصار.....
٢٥٣	احتفالات عيد الجلاء.....
٢٥٣	أ - احتفال الأحياء.....
٢٥٣	ب - الاحتفال الرسمي.....
٢٥٤	ج - الاحتفال الجماهيري.....
٢٥٥	خاتمة.....
٢٥٦	مواقف خالدة.....
٢٥٧	خاطرة.....
٢٥٨	مرحلة النشوء.....
٢٦٤	حياة الأسرة.....
٢٦٧	مسيرة العطاء.....
٢٧٤	قناعات شخصية.....
٢٧٧	أحداث من التاريخ.....
٢٧٩	أجواء.....
٢٨٢	كلمة.....
٢٨٣	شمس الغروب.....
٢٨٤	بزوغ الشروق.....
٢٨٨	مرحلة النهوض.....

- ٢٨٩ بصمات مهنية
- ٢٩٢ قمة النهوض
- ٢٩٤ نهاية المطاف
- ٢٩٥ نصيحة من القلب
- ٢٩٦ دعاء
- ٢٩٧ مسك الختام
- ٣٠١ من ذاكرة الأيام لمعالم وأعلام شرقية وغربية خالدة
- ٣٠٥ إهداء
- ٣٠٦ اعتراف
- ٣٠٨ حب من القلب
- ٣٠٩ ب- أسماء مدينة دمشق
- ٣١٠ ج- أبواب مدينة دمشق الأثرية
- ٣١٠ د- معالم دمشق الأثرية
- ٣١٠ هـ- أنصبة رجال سورية الأبطال في الساحات العامة
- ٣١١ و- قصور دمشق وخاناتها وحماماتها
- ٣١١ ز- الهودج
- ٣١١ ح- خاتمة
- ٣١٢ مظاهر منيرة لدمشق
- ٣١٤ تكامل أحياء دمشق
- ٣١٥ أهل الخطوة

- مظاهر هذا الحي في الأعياد..... ٣١٦
- الفيحاء بين القديم والحديث..... ٣١٧
- إشراقه أمل..... ٣١٩
- تمهيد توضيحي..... ٣٢٢
- أ- من ثمار العقول المذهلة..... ٣٢٤
- ١- قاعدة أرخميدس..... ٣٢٤
- ٢- قانون الجذب العام لنيوتن..... ٣٢٥
- ٣- دور العرب في هذا المضمار..... ٣٢٦
- ٤- تجربة غاليليو..... ٣٢٦
- خاتمة..... ٣٢٦
- ب- روائع أهل الفن..... ٣٢٧
- ١- فنيست فان جوخ..... ٣٢٧
- ٢- معلومات عن ليوناردو دافنشي..... ٣٢٨
- ج- ثمار قتلت أصحابها..... ٣٣٠
- د- فن الموسيقى..... ٣٣٢
- هـ- مدن الأحلام أمكنة من الذاكرة..... ٣٣٤
- خاتمة..... ٣٣٧
- صور طواها الزمن..... ٣٣٨
- معلومات مهنية..... ٣٤٠
- مرحلة التطور..... ٣٤١

- ٣٤١ طبعة الخدمات
- ٣٤٢ اعتراف
- ٣٤٣ قصة من الحياة
- ٣٤٤ أقوال مأثورة
- ٣٤٥ الزجل الشعبي
- ٣٤٧ قصص من التاريخ العربي
- ٣٤٧ أ- أوفى من السموأل:
- ٣٤٨ ب- اختبار لحاتم الطائي لما قيل عنه
- ٣٤٨ ج- جود الكرام
- ٣٥٠ ضرب من الخيال
- ٣٥٠ أ- رحمة السماء
- ٣٥١ ب- ضربة حظ
- ٣٥١ ج- عناية السماء
- ٣٥٢ د- وحي الخيال
- ٣٥٣ هـ- وامعتصماه
- ٣٥٤ و- جوانب أخرى من شخصية صلاح الدين الأيوبي
- ٣٥٥ سهرة العمر
- ٣٥٧ طرف عفوية
- ٣٥٨ حلم لم يتحقق
- ٣٦٠ روائع الشعر العربي الأصيل

رأي..... ٣٦١

كلمة من القلب..... ٣٦٣

أمنية..... ٣٦٥